المسافرخانة

رواية :

عز الدين نجيب

(١)

- **١٨ أكتوبر ١٩٩٨م.**

أجراس سيارات الإطفاء تجلجل متتابعة في شارع الأزهر ، ومن نافذة مرسمه بوكالة الغوري استطاع شوقي نعمان رؤية سحب الدخان الأسود تتصاعد من خلف العمارات حتى تعلو فوق مئذنة جامع الحسين في الجانب المقابل من شارع الأزهر . ظن أن الحريق شب في الجامع نفسه. هُرع مفزوعاً يقفز الدرجات الحجرية للمبنى العتيق إلى الصحن الذي تتوسطه النافورة . سأل الحراس أمام البوابة فتضاربت أقوالهم بين أماكن مختلفة استنتجوها بدون معلومة قاطعة. خرج إلى شارع الأزهر يسأل المارة ، لم يجد من يُفيده ، فالكل يتساءل ويُصوَّب بصره ناحية الدخان . صعد الكوبري المعدني الذي يعبُر شارع الأزهر . من موقعه المرتفع أدرك أن سحب الدخان أبعد من مكان الجامع وأقرب إلى شارع الجمالية . نزل إلى شارع المعز لدين الله . ضربات قلبه تتسارع ، ليس من تأثير الهرولة المفزوعة ، بل من هاجس سيطر عليه بأن الحريق في المسافرخانة ، مع علمه بأن مكانه أبعد بكثير مما تشير إليه سحب الدخان ، حيث يقع مبناه في أغوار حواري حي الجمالّية على مسافة تزيد عن نصف كيلو متر من شارع الأزهر ..

مخطوف القلب اندفع مهرولاً في شارع المعز تجاه مسجد الناصر قلاوون. ازداد زحام الناس وهم يتسابقون في نفس الاتجاه . داهمتهم سيول الماء المرتدة بغزارة من الشوارع الجانبية الضيقة على الجانب الأيمن لشارع الجمالية ؛ إنها مياه خراطيم الإطفاء تعبرُ البوابة الأثرية العتيقة لميدان بيت القاضي ، واستمرت تلاحقهم بإلحاح أجراس سيارة إطفاء صغيرة تشق الزحام في نفس اتجاههم . حاول البعض معرفة مكان الحريق بسؤال الجنود فلم يتلقوا إجابة . في ميدان بيت القاضي رأي عربَتي إطفاء كبيرتَيْ الحجم واقفتين أمام البوابة ذات السقف المُقَبَّى في شكل أقواس متقاطعة ، من الواضح أنهما فشلتا في عبورها لكبر حجمهما وارتفاع سلالمهما المطوية فوقهما. نجحت السيارة الصغيرة التي وصلت تواً في العبور ، ما يكشف أن ما سبقها من سيارات إطفاء أتى من طريق آخر عبر سور باب الفتوح من الجهة

الأخرى للجمالية ، وأن الحريق استعصى إطفاؤه عليها فتم الاستنجاد بسيارات أصغر للمروق من الحواري الضيقة . التقطت أذناه أخيراً كلمة «المسافرخانة » .. يا إلهي!.. هذا ما كنت أخشاه ! .. ترنّح وقلبه يكاد يقفز من صدره واستند إلى أحد الجدران . الدنيا تظلم أمامه وهو يقاوم الانهيار . أخذ يتمتم بالدعاء بحفظه ملتاعاً .. لا لا .. مستحيل .. أرجوك يا ربي !

تحامل على نفسه ليكمل السير إلى قصر المسافرخانة ، تتقاذفه أمواج الناس في اندفاعها الأهوج نحو الحريق . أصبح التقدم مستحيلاً من شدة الزحام وتدفُق المياه ومنْع رجال الشرطة لتجاوز أحدٍ مدخل حارة الطبلاوي التي يوجد القصر في نهايتها . ألسنة اللهب بدت واضحة مروِّعة وهي تتراقص من أركانه الأربعة ، ومن فوقها تتراكم سحب الدخان الأسود . بات التنفس يتم بصعوبة ، ورياح شهر أكتوبر تدفعها في اتجاه الجموع الزاحفة . رأى عربات الإطفاء واقفة عند مدخل الحارة عاجزة عن دخولها لضيقها الشديد ، فقام رجالها بمد خراطيم الماء ذات القطر الواسع إلى داخل الحارة عشرات الأمتار حيث يوجد المبنى العتيق . انبثق خاطر في ذهنه، فقال لنفسه : فعلها المجرمون !

اختلطت في الضجيج حوله صرخات النسوة خوفاً من امتداد النيران إلى بيوتهن ، بتضرعات الداعين إلى الله لينجيِّ القصر والحي كله . بكلمات « حسبي الله ونعم الوكيل » إشارةً إلى أن الحريق تم بفعل فاعل ، وتزايد اللغط وسط الزحام ؛ بين قائل إنه الإهمال ، وآخر إلى أنه عقاب إلهي لما كان يُرتكب فيه من المعاصي، وثالث يشير إلى أن الحريق من فعل الجن التي تسكنه بعد موت الشاهبندر وتحول القصر إلى خرابة .. ولم تكن هذه التأويلات غريبة على سمع شوقي ، فقد سمع بعضها متفرقاً من أبناء الحي خلال السنوات السبع التي قضاها فيه قبل أن يغادره باثنين وعشرين عاماً.

مضت ساعة حتى بدأت النيران تخمد لكنها تعود للاشتعال ، وتناهت إلى سمعه أصوات انهيارات الجدران والأعمدة الرخامية والسقوف الخشبية الهائلة في فرقعة مخيفة من شدة النار والماء معاً ، يتلوها صوت السقوط مدوياً كصوت القنابل.

ضاق تنفسه واهتز بالسعال العنيف لكثرة ما استنشق من دخان ، فوق ما اعترى قواه من خَوَر يقترب من الإغماء . شق طريقه بصعوبة عكس اتجاه الجموع نحو ميدان بيت القاضي . بحث عن المقهى القديم الذي كان يعرفه هناك . وجد أن جميع الكراسي شاغرة بعد أن غادرها جميع رواده لرؤية الحريق . أرتمى على أقرب كرسي من القش ووضع جبهته الملتهبة على المائدة الرخامية الباردة وأحاط رأسه بذراعيه . أخذته فجأة رعدة هزت كيانه في نوبة بكاء عنيفة .

(٢)

- **١٩ أكتوبر ١٩٩٨م.**

تلك السنوات السبع في رحاب القصر .. هل أصبحت وهما أم حلماً أم ذكرى ستبقى موجعة وحارقة لي ما حييت ؟ .. وهل بوسعي أن أفصل بينها وبين تلك الجدران الشاهقة المكسوَّة بشرائح الرخام الملون ، والأسقف الخشبية المذهبة ، تلك الجدران والأسقف الناضحة بعبق الزمن وروعة الفن الإسلامي ؟ ..

لقد امتزجنا حتى بات القصر بيتي وملاذي عندما فقدتُ السكن والإبنة وأصبح ملهم خيالي عندما حرمتني منه شهور السجن الممتدة ، حيث كنت أستحضره واتجول بين قاعاته ودهاليزه وحناياه ومشربياته ونافورته ، يأخذني الحنين إليه فأعيد بناءه بالرسم أحياناً وبالكلمات أحياناً أخرى ، وعندما منعني عنه قرار فصلي من العمل أو مشاكل الحياة الزوجية قبل فسخها ، كان هو الشيء الوحيد الذي أشتاق إليه ولا أربط بين محنتي وبينه ، بل كان دائماً بلسم روحي عند كل شدة، حتى لو شهد طعنات الخيانة في ظهري وكبوات الفشل ومطاردات عملاء المباحث وإرهاب البلطجية وتواطؤ بعض الزملاء مع صناع المؤامرة ، فكيف أنسى أنه شهد كذلك ساعات اشتعال الروح بالإبداع وساعات أفراح القلب بحب وليد ، ولحظات النشوة عند اكتمال لوحة أو مقالة جديدة . كما شهد صداقات العمر وحميمية التلاقي بين نفوس مخلصة لحب الوطن ، ووهج الاكتشاف لمعاني مضيئة

عقب مناقشات ساخنة .. هل ضاع الحلم وسط لهيب الحريق ، فلم تبق غير شذرات تزيد عذاب النفس لضياع كل ما أحببته بغير عوده ؟

أفاق على لمسة خفيفة لكتفه . رفع وجهه فوجد أمامه صديقه الشاب نادر عماد الدين يقف واجماً ويقول في إشفاق .

– قلبي معك يا أستاذ شوقي .. أعرف كم تتعذب من أجل المسافرخانة ، نظر إليه بعينين ملتهبتين وقال وكأنه يفيق من غيبوبة :

– متى عرفت ؟

– كنت هناك الآن .. وطوال الوقت وأنا أشاهد الحريق كنت أتذكرك .. كان نادر صحفياً شاباً متحمساً ، تجده دائماً أول من يتابع الأحداث الساخنة في أي مكان ، واليوم يراه متجهماً لأول مرة وقد تلاشت الابتسامة البشوشة التي لا تفارق وجهه ، رآه يفتح حافظة أوراقه ويخرج صفحات كتبها بخطه في عجالة وقال بحسرة:

– للأسف الشديد لقد انتهى تماماً.

كان نادر أكثر من يرتاح إليه شوقي من شباب الصحفيين ، خاصة وأنه في الأصل رسام وكاتب .. أكمل نادر قائلاً :

– المجرمون .. لم يكفهم أنهم تركوه مصلوباً بعروق الخشب والمواسير عشرين عاماً كما ذكرتَ لي من قبل ، بحجة تصدعه .. فقرروا اليوم الإجهاز عليه من جهاته الأربعة في ساعة واحدة ، ليس من باب الرحمة بل لإخفاء معالم الجريمة بعد نهب ما تبقى منه .

انتبه شوقي لحديثه بشدة وسأله :

– ألديك معلومات مؤكدة بذلك ؟

– هذا ما يقوله بعض الناس الذين تحدثت معهم من أبناء الحي ، وهو على أي حال تفسير منطقي لسلوك المقاول الحرامي ومن معه من المتواطئين بعد أن طال صبرهم في انتظار سقوطه ، وأصبح بقاؤه وهو مهدد بالسقوط مما يهددهم أيضاً بافتضاح سرقاتهم .. ما رأيك أنت ؟

صمت شوقي فترة مشتت الذهن ، ثم قال :

- لست أدري .. لقد انقطعتُ إثنا عشرة عاماً عن القصر .. وعموماً فكل شيء وارد ، وقد زرته منذ سنتين وكانت الدعامات لا تزال تسنده كما تقول .
- لقد فكرت أن أكتب ريبورتاجاً عن الحريق للجريدة ، وسألت بعض الناس في الحارة فأكدوا هذا المعنى .
- هل ذكرو أي دليل ؟
- نعم .. أحدهم يسكن في نفس الحارة بالقرب من القصر ، قال لي إنه رأي خلال الليالي الماضية اشخاصاً ينقلون من القصر صناديق ضخمة ومشربيات هائلة ويُحمَّلونها على عربات سوزوكي صغيرة وأبواباً ونوافذ أرابسك وبلاطات فيشاني أثرية تم تفكيكها ، ولما سألهم إلى أين يذهبون بها أخبروه بأنهم يأخذونها للترميم .
- هل تعتقد أن هذا كل شيء ؟
- بالطبع لا .. فما خفي كان أعظم !

كان الزحام لا يزال شديداً بالميدان والمنطقة ، وسيل المياه لا يزال يتدفق من جهة الحريق والجو خانقاً بالدخان ورائحة « الشياط » .. قال لنادر :

- هل ستكتب ما قاله الجيران ؟
- لم أكن لأتردد في ذلك لولا أن الرجل رفض أن يذكر لي اسمه ، ولو نشرت كلامه بغير توثيق باسم قائله لكان عملي غير مهني .. هل توافق يا أستاذي على أن آخذ رأيك أنت؟

سرح ببصره للحظات ، وهمهم وكأنه يحدث نفسه :

- ليس الآن .. دعنا ننتظر قليلاً حتى تنجلي الأمور ، لكن أمامك الآن الكثير لتعمله .

قال نادر بحماس مفاجئ :

- ما رأيك في أن نلتقي هنا غداً؟ .. سأحضر الكاميرا معي ، ويؤسفني أنها لم تكن معي اليوم لأصور الحريق وهو مشتعل ، لكنني جئت على عجل وكانت

الكاميرا في البيت ، عموماً يمكنني تصوير آثار الحريق وتسجيل آراء بعض الناس وبعض رجال الآثار ورأيك أيضاً يا أستاذي .

- اتفقنا .. وأن كنت على ثقة من أنك لن تخرج بشيء من كلام المسئولين .

مع رشفات الشاي والدردشة هدأت نفسه قليلاً ، وأستأذنه نادر للذهاب إلى الجريدة . بعد قليل نهض متجهاً إلى القصر ، لكنه توقف أمام بوابة بيت القاضي غير قادر على تخطيها، وفضل العودة إلى مرسمه بوكالة الغوري .

مضى يجر قدميه بشارع المعز ، ووجد في المساجد الشاهقة مملوكية الطراز ما يخفف عنه بعض ألمه .. ها هي الحياة العادية تُستأنف ويعود زحام المارة وكأن شيئاً لم يكن ، غير مبالين أو غير مدركين لفداحة الخسارة . خاض فيما تبقى من برك المياه في الشارع نتيجة إطفاء الحريق فبدت الدنيا وكأنها في أعقاب يوم مطير، وها هي عمليات البيع والشراء تتواصل كما كانت منذ مئات السنين . اخترق حارة شديدة الضيق لاختصار الطريق إلى ميدان الحسين ، وأمام دكان صغير لبيع قنينات الزجاج المنفوخ يدوياً بمختلف الألوان : الأزرق الكحلي والأزرق الفيروزي والأصفر العسلي والأخضر الجنزاري . سمع أحد الأشخاص يعلق على الحريق قائلاً :

– طفُّوها خلاص يا ريس .. السراية انهدّت كلها على الأرض

رد محدثه : الحمد لله أن النار لم تصل إلى الجيران وإلا اشتعلت في كل المنطقة .

قال آخر : خسارتك يا بلد ! .. كان السياح يأتونك من آخر الدنيا .. أنا دخلت هذه السراية زمان .. كان بها كمية لا تعد من شبابيك الزجاج الملون لا مثيل لها . كان بإمكاننا لو اشتريناها أن نبيعها للقصور والفيلات بأعلى الأسعار .. !

عاد إليه شعور قاهر بالعجز . مضى في حواري الجمالية تائهاً يتخبط من حارة لأخرى، في مخيلته تتداعى شظايا مبعثرة من ذكريات قديمة ، يمر من تحت الأقبية والعقود الحجرية العتيقة وكأنه يمر عبر زمن سحيق مُنْبَتّ الصلة بحاضرنا اليوم .. انحن حقاً في عام ١٩٩٨ .. كان يرى الحمَّالين يُجرُّون عربات اليد الصغيرة بشتى أنواع البضائع ، ويرى الدكاكين الصغيرة لبيع الأقمشة والسجاجيد

والأواني النحاسية المنقوشة ، والأجولة المكدسة بأنواع البخور واللبان والتوابل والعطور ، وتزكمه روائحها النفاذة فيشعر بغربة شديدة ، يجاهد للخروج من متاهة الزمن السحيق عبر الأزقة الضيقة إلى رحابة ميدان الحسين .

كان عليه يَعبُر شارع الأزهر للذهاب إلى وكالة الغوري ، لكنه غيَّر رأيه فجأة ووقف على محطة الأتوبيس خائر القوى وقرر العودة إلى منزله بحي الزيتون ، يملأه شعور طاغٍ بالوحدة واليُتم ، وتضاعف بداخله هذا الشعور عندما تذكر أن عودته إلى المنزل لن تحمل له إلا المزيد من الوحدة ؛ فالبيت خالٍ ، ولا أحد ينتظره أو يهتم بحضوره أو غيابه ، تماماً مثلما كان أمره منذ ربع قرن عندما هجرت « نادية» بيت الزوجية وقررت فجأة السفر للعمل بالكويت مع أولى سنوات الانفتاح الاقتصادي، آخذة معها طفلتهما الوحيدة « نسمة » وهي دون الرابعة من عمرها ، وأدرك يومها أنها تضع قرارها المنفرد بالسفر في مقابل بقاء العلاقة الزوجية ، وعندما أصر على رفض السفر كان قرارها هو الانفصال.

(٣)

- **سبتمبر ١٩٧٦م.**

رغم صغر مساحة شقته . فإن لوحاته التي تغطي جدرانها البيضاء تجعلها أكثر سعة وانشراحاً ، لكنها تبدو في نظره اليوم بالغة الضيق والكآبة ، وزاد من كآبتها ما رآه يكسو الأرض وقطع الأثاث ورفوف المكتبة من أتربة متراكمة وفوضى مزمنة وبقايا طعام الافطار على المائدة الصغيرة ، ولاحظ أن نتيجة الحائط لم تنزع أوراقها رغم مرور عدة أيام قبل اليوم . اصطدم بصره بباب الحجرة المغلق على ما بداخلها منذ أكثر من عام ، فأنتابه شعور بالغضب لتعرضه لظلم لا يستحقه .. لماذا يعيش في هذا الضيق ويضطر إلى قبول أن يظل هذا الباب الكئيب مغلقاً في وجهه، مقتطعاً المساحة الأكبر من الشقة ، وكانت في يوم ما هي حجرة نومهما التي شهدت أسعد الذكريات ومولد نسمة ، قبل أن ينتهي ربيع الزواج بالانفصال القسري ! .. لم يكفها أنها حرمته من الطفلة وسافرت بها برغم اعتراضه ، بل طلبت إبقاء حوائجها

الخاصة بها بصفة مؤقته لحين عودتها في أول اجازة لها في نهاية العام الدراسي ، آتية معها بما يكفي لدفع مقدم لشقة خاصة . ابتسم ساخراً وهو يتذكر كيف «تكرمت» عليه بقولها أنها لن تطالب بحقها الشرعي كحاضنة للبنت في الاحتفاظ بالشقة ، وها قد مر عام وأربعة أشهر ولم تحضر ، وضمنها الإجازة الصيفية التي وعدت بالحضور في أولها ، وانقطعت عنه أخبارها ، ولكن لم ينقطع شعوره بأنها موجودة طوال الوقت بالشقة ، تراقبه وتعد حركاته وسكناته ، كان ذلك يشعره دائماً بالحصار والاختناق ، لم يكن من الصعب عليه فتح الباب وتغيير المفتاح ... « لكنك لم تفعل.. هل كان ينبغي الحنث بوعدك لها باحترام خصوصيتها ؟.. لكنها التي فعلت . بالرغم مما حققته من نقلة مادية تجعلها قادرة على توفير شقة أفضل . لم تبال بشعورك الممض بالحرمان من رؤية نسمة والاطمئنان عليها ، في البداية كنت – في قرارة نفسك – تأمل في عودة نادية إليك حين تهدأ نفساً بعد تلك الخلافات المادية ، أو تلك الناجمة عن اختلاف الطباع بينكما مثل أغلب العلاقات الزوجية ، غير أن هذا الأمل أخذ يتضاءل تدريجياً حتى تلاشي تماماً . وقد تأكدتَ من عمق الاختلاف بين طبعيكما، حتى تناهت إليك من الكويت بعض الأقاويل عن استعدادها لزواج جديد ، فزاد هذا من نقمتك ، ليس عليها بقدر ما هو على نفسك ، وتأنيبك الدائم لها لضعفك وتساهلك أمام كل ما فعلته ، لكنك رحت تبرر هذا الضعف بوجود نسمة بينكما، وحرصك ألا تكون هي الضحية لخلافاتكما..

في تلك الفترة أحسستَ بأنك مدين لمرسم المسافرخانة ، بل للقصر كله ، فلهما الفضل في الحفاظ على توازنك النفسي في تلك الفترة العصيبة ، بالاستغراق في الرسم وفي تكوين صداقات جديدة تمت في رحابهما ، حيث أصبح ما تقضيه فيهما من وقت – بين العمل الوظيفي صباحاً والعمل في المرسم بعد الثانية ظهراً – أطول مما تقضيه في البيت » .

شعر بالجوع فجأة ، فقام بفتح علبة السلمون التي اشتراها مع الزيتون الأسود والخبز وبعض الخضروات الطازجة وهو قادم إلى البيت ، ولم ينتظر لاستبدال ملابسه المشبعة بالعرق خلال مشوار العودة وسط زحام المواصلات ، راح يأكل بآلية

دون استمتاع بالأكل ، إنه نفس ما يفعله مساء كل يوم تقريباً بعد عودته من المرسم، خاصة مع وصوله إلى النصف الثاني من الشهر ، حيث لا يسمح ما تبقى من المرتب بتناول الغداء بأحد المطاعم ، فيقضي بقية أيام الشهر معتمداً على معلبات السلمون والبلوبيف والجبن وخضار السلطة وسندوتشات الفول والطعمية . توقف عن المضغ وقد انتابته صحوة احتجاجية على حاله.. « أنا لا أستحق ذلك! » . قالها لنفسه .. « في أي بلد في الدنيا لا يعيش الفنان هكذا .. تقول الفنان؟ !! .. قل الموظف الذي لا يكفيه مرتبه ليعيش بمفرده نصف أيام الشهر! .. لقد بلغت الخامسة والثلاثين، وأصبح لك اسم معتبر كفنان. ولك رصيد من عدة معارض خاصة ومن لوحات مثلَتْ بلدك في عدة دول عربية وأوروبية، ولك بعض المقتنيات بمتحف الفن الحديث. ولولا ذلك لما استطعت أن تنفق على زوجتك وابنتك فترة وجودهما معك، لكن ذلك نادرًا ما يحدث الآن، حتى أصبحت تعض بالنواجذ على هذا النادر من المرات التي تباع لك فيها لوحة، لتبقى قيمتها أطول وقت ممكن، حتى تسدد منها ايجار الشقة واستهلاك الكهرباء والمياه وشراء ضروريات المأكل والملبس وخامات الرسم، كثيرون هم الفنانون من جيلك انتعشت أحوالهم المادية في السنوات الأخيرة ببيع أعمالهم في المعارض والمراسم في ظل الانفتاح الاقتصادي الجديد، بفضل الشرائح الاجتماعية الناشئة مع سياسة الانفتاح، فهي التي تقتني بعض أعمال الفن استكمالًا للوجاهة ومحاكاة للأرستقراطيين والسادة الجدد، إلى جانب الأخوة من السائحين العرب، لكن هؤلاء وأولئك لا تغريهم أعمالك بطابعها الغرائبي، أو الذي يرمز لمعاني سياسية أو وجودية .. فمن منهم يغامر بدفع ثمانين جنيهًا مثلاً، ثمنًا للوحة تصور وجوها قاتمة الملامح خلف أسوار أو تحت كتل صخرية، أو تصور بيوتًا أقرب إلى الأطلال بألوان قاتمة بغبار الزمن تطل منها وجوه وعيون تتساءل عن مصير مجهول، أو تصور أشجار صبار بفروع ذات أسنان حادة مشرعة لمقاومة قرص هائل مثل نيزك رهيب ينقض عليها، بدلا من اقتناء منظر طبيعي بهيج الألوان، أو بورتريه لفتاة سمراء تبتسم في غواية وهي مزدانة بكيلو جرام من المصاغ الذهبي أو الفضي، يدَّعي من رسمها أنها تنتسب إلى الطبقات الشعبية أو الفلاحات أو البدويات، لكن من يقتنونها يشترونها في الحقيقة كتذكارات طريفة للزينة

في القصور والفيلات، أو لتناسب ألوانها قطع الأثاث بداخلها، قد يمر العام إذن دون أن تبيع لوحة أو اثنتين، وقد يبتسم لك الخط فتبيع ثالثة، فتسارع بحجز قاعة لإقامة معرض جديد، وتنفق أغلب ثمنها في عمل البراويز وطبع الكتالوج، وما يتبقى تودعه في دفتر التوفير الخاص ببسمة، لكنك تحصل على المقابل الحقيقي من مصدر آخر، هو حفاوة النقاد فيما يكتبونه عن المعرض، تلك المقالات التي لا يقرأها غيرك باستثناء القليل من القراء .. أكانت نادية على حق إذن حين أصرت على السفر. وبعد ذلك على الانفصال؟ »

أوجعه السؤال الذي لم يوجهه إلى نفسه من قبل، وبدا له أنه ينتقص من جدارته كزوج جدير بالمسئولية، فشعر بوخز لكرامته! .. قام يعد كوبًا من الشاي في المطبخ، لكنه عاد فأرجأ ذلك لحين الحصول على دش بارد يتخفف به من الحرارة والرطوبة الخانقتين لأنفاسه، أو بالأحرى ليبرّد به لسعة السؤال الذي ظل يلح عليه، لكن شعوره بالانتعاش بعد الدش لم ينجح في إبعاد السؤال عن ذهنه..

« ربما كانت نادية بالفعل على حق، فلابد من الاعتراف الآن بأن احتياجات نسمة واحتياجات نادية شخصيًا قد تزايدت مع الوقت. كموظفة بالثقافة الجماهيرية تذهب يوميًا إلى عملها وتهتم بمظهرها، فيكفي مرتبها بالكاد لتغطية احتياجاتها الخاصة. في البداية كان الأمر مختلفًا؛ فالمطالب كانت أقل، والمشتريات كانت أرخص والحياة كانت أسهل، ونادية أيضًا كانت أبسط، إذ بدت آنذاك أنها قانعة بما يربطنا من مشاعر كنت أظنها عميقة بعد قصة حب استمرت سنوات، وما كان يجمعنا من أفكار عن السعادة يختلف عما يلهث الناس للوصول إليه، فكم تحدثنا عن أن قيمة الانسان تنبع من مبادئه ومن احترامه لنفسه ولمن يحبه، بجانب إيمانه بالعدالة والعمل من أجل التغيير، خاصة وأننا كلينا من أبناء أسر بسيطة أرتوت بفطرة المنشأ وتغذت بالثقافة، فترفعت عن سباق المحاكاة لفئات جديدة تؤمن بمبدأ «إخطف واجري!»، لتصنع في النهاية واقعًا مزيفًا، لكن كم كنت واهما حين تصورت أنها كانت صادقة في اعلان قناعتها بهذه الأفكار!. »

مع احتساء رشفات الشاي كان قد تخفف كثيراً من مشاعر الغضب والمرارة، لما تذكره من افصاح نادية عن وجه آخر، بدا شديد الغرابة قياسًا على الصورة التي تشكلت عنها لديه، وبدأ يفكر وكأنه يضع نفسه مكانها، فيما كان يتأمل اللوحة المعلقة أمامه على جدار الصالة، وقد رسمها في بداية الزواج ممسكة بوردة عصفور الجنة، وهي تشف عن براءة، وتعكس رقة الأيام الأولى.

« هل نسيتَ أن بداية هذا التحول كانت عقب اعتقالك لأول مرة ضمن مظاهرات الطلبة الأولى ١٩٧٢؟ .. لم يكن قد مضى على ميلاد نسمة إلا ثلاثة أشهر، كيف كان لمثلها أن تواجه مثل هذه المحنة وحيدة بلا مورد يغطي احتياجاتها مع ابنتها لو استمر الاعتقال شهورًا أطول؟ .. إنها لم تمانع يوما في نشاطك السياسي، بل ربما كانت تعتز به في البداية. إنك لا تنسى زيارتها لك في سجن الاستئناف حاملة لك ولزملائك علب الأطعمة بشتى أنواع اللحوم دون أن تخبرك كيف دبرت ثمنها وأنت أدرى الناس بظروفها ،وكانت تكتفي بالقول « الخير كثير ما تحملش هم» . ولا تنسى بالطبع اشتراكها مع أسر المعتقلين في وقفات احتجاجية أمام مجلس الشعب ومبنى الاتحاد الاشتراكي مطالبين بالإفراج عن ذويهم ، وقيامهم بإرسال مناشدات بالتضامن معنا إلى منظمات حقوق الإنسان بالخارج .. لكن الأمر بدا مختلفاً بعد الإفراج عنك مع زملائك ، كان بإمكانك ملاحظة هذا التغيير وإن لم تصرح به ، باستثناء مرة واحدة أفلتت منها كلمة « أنا تعبت! » ، وأدركتَ ساعتها أن العوز المادي أُضيف إليه عامل جديد .. هو العوز للأمان .. كان افتقاد الأمان يذكّرها باحتمال تكرار ما عانته فترة السجن مهما حاولتَ أنت ملء الفراغ بالمشاعر والمعاني ، وكان لابد أن ينشأ لديها السؤال : وماذا بعد ؟ .. أليس من الطبيعي أن يؤدي هذا في النهاية إلى طريق مسدود ؟ »

توقف أمام الفكرة التي بدت صادمة ، لكنه بوغِتَ بانبثاق فكرة أخرى . فحاول صياغتها وهو ينظر إلى الباب المغلق ويقول لنفسه :

« ومع ذلك فليس هذا هو السؤال الجوهري ، بل هو : ماذا لو نفد رصيد الكيمياء لدى أحد الشريكين قبل الآخر ، فأغلق الباب في وجهه وهو لا يبالي ؟ »

تملكه الغضب من نفسه ثانية ؛ فها هو يلتمس لها الأعذار كأي ضحية تتلذذ بالعذاب !.. اندفع متجها نحو اللوحة. أنزلها من فوق الحائط . وقف يتلفت حوله بحثاً عن مكان يواريها فيه. ألصقها بالجدار مع لوحاته القديمة غير المكتملة أو الفاشلة خلف الكنبة بحجرة الجلوس، ومضى إلى الحمَّام ليغسل يديه من غبار اللوحة، فانزاح حجر عن صدره !

(٤)

- **١٩ اكتوبر ١٩٩٨**

في الصباح الخريفي الرطب يسير شوقي ، شارع المعز لدين الله ناعس لم يصحُ من نومه بعد وقد تجاوزت الساعة العاشرة . المحلات أغلبها مغلق حيث لا تبدأ يومها قبل الحادية عشرة . وكما يحدث على مر التاريخ تمضي جِسام الأحداث والنكبات سريعاً كنتيجة حائط تنزع منها كل يوم ورقة ويُلقي بها إلى حيث لا تراها الأعين، وتستمر مسيرة الزمن بغير مبالاة . شارع المعز – منذ أكثر من ألف سنة – شاهد على كبار الوقائع والحرائق والمعارك والمذابح ، على وقع السنابك الحديدية على أرض الطريق الحجرية بأرجل الخيول المطهمة يمتطيها الفرسان في مواكب السلاطين والأمراء ورجال الدولة ومتوليَّ الحسبة الذي يجمع المكوس ، والمنادي بأوامر السلطان بفرض ضريبة جديدة أو للتنبيه إلى شخص حق عليه العقاب ، ومواكب التجريس حيث يُحكم على المذنب بركوب الدواب في وضع معكوس فُيطاف به لتجريسه بين الخلق ، ومواكب التكريم للأسطى المبدع النابغ في حرفته ، فينادَي باسمه كبيرا لطائفته ، وتعزف له المزامير وتُدَق الطبول ، وبجواره يرفع النقرزان صولجانه شاهق العلُوّ فوق جبهته أو أرنبة أنفه فلا يهتز قيد أنملة ، فيما ترفرف رايته الخضراء عند ذُؤابته، ومواكب الدراويش وقارعي الطبول والصاجات والمتطوحين في فورة حلقات الذكر على إيقاع الدفوف. والسائرين فوق سنون المسماير وشفرات السيوف، وآكلي الثعابين أو شعلات النار ، وحاملي بيارق الطرق الصوفية بأسماء أولياء الله الصالحين بالألوان الخاصة بكل طريقة ، بين الأخضر

والأسود والأحمر والأصفر ، وصولاً إلى سوق العبيد والجواري ، لنرى النخاس يصعد فوق منصته معلناً عن بضاعته عبداً عبداً وجارية جارية ، متغنياً بمحاسن كل منهم وسط حلقة المزايدين والمتفرجين والتجار والمضاربين ، وكم امتلأ الشارع و روافده من الحارات الفرعية بما كانت تلقي به البيوت من ضحايا الأوبئة وصرعي الطواعين وعويل النائحات وأنَّات الألم والجوع خلال المجاعات عندما يغيب الفيضان ويجف النيل ويموت الزرع وكل كائن حي .

ومع ذلك تستمر المواكب بالأفراح واحتفالات الموالد ودقات الحدادين والنحاسين والنجارين ، وتتصاعد أدعية الشحاذين وصاجات باعة العرقسوس والخروب ومساومات نساء الجمالية والعطوف مع الباعة، بملاءاتهن السوداء المحبوكة على أجسامهن ، وهن يتأوَّدن رائحات غاديات ... والمواكب تَتْرَى والشوارع تزدحم ثم ينفض الزحام ويعود الشارع ملكاً خالصاً لتجار السجاد ونقَّاشي صواني النحاس وصاغة الفضة والذهب ، ولتفتح أبواب وكالات الحبوب والتفاح والخروب والأقمشة والجلود .. وهكذا تعود الحياة إلى مجراها الرتيب وكأن حدثا جللا لم يحدث منذ ساعات .. فقط يبقى الشهود الأبديون صامتين على جانبي الطريق ، شاخصين نحو المطلق على شكل عمائر شامخة مُغبرَّة بتراب الأزمان .. من مساجد وبيمارستانات وأسبلة ووكالات ، كلٌ باسم السلطان أو الأمير أو الكَتْخُدا الذي أمر ببنائها من حُرَّ مال المصريين وبقطرات عرفهم ودمائهم ، وبأحجار منزوعة من أعتاب بيوتهم وأحجار من أهرامات جدودهم ، وأعمدة من معابدهم وكنائسهم ، لكنها في شموخها اللامبالي بكل ما تشهده من أحداث ومواكب ومساخر ، تنظر في أبهة إلى الأبدية ، متعالية بمآذن الصلاة ، متسامية بالقباب المهولة وعرائس الأسطح الحجرية والبوابات العملاقة التي تتتابع حَنْياتها نحو داخل المبني حَنْية بعد حَنية ، مُزدانةً بالمقرنصات والمُدَلَّيات والكرانيش ونوافذ الزجاج الملون والمعشَّق بالجص ، محصَّنةً بشرائط الآيات البَيِّنات بالخط الكوفي الهندسي أو الثُّلُث المجسَّم وهو يدور حول المبنى كحزام محكم لحماية الأثر .

واصل شوقي المسير إلى ميدان بيت القاضي ، وقف شاخصاً إلى منصته العريضة ، إنها أعلى وأكبر من كل ما شهده من منصات القضاء في عصرنا ، واستحضر بخياله مجلس القضاء على المذاهب الأربعة لأحكام الشريعة ، وأمامهم المتقاضون أو المتهمون والشهود يسمعون مداولات القضاة ، أو يرفع إليهم المتقاضون شكاواهم ثم يمتثلون صاغرين لأحكامهم ، والناس في الميدان يتجمعون صامتين وكأن على رؤوسهم الطير ، وإلا ؛ فالحبس جزاء فوري لمن يخدش وقار المحكمة بصياح أو ضوضاء ، حيث ينتشر العسس والبصاصون في كل مكان ، والحكم نافذ بغير نقض أو استئناف . تخيل شوقي لو كان هذا المجلس قائماً اليوم . فبماذا كان سيحكم في حريق المسافرخانة ؟ .. هل كان سيكتفي بشهادة الشهود من أهل الحارة ومن الفنانين شاغلي القصر ، أم سيشترط تقديم الأدلة والبراهين ، أم سينحاز إلى جانب الحكومة ممثلة في مفتشي هيئة الآثار بأوراقهم وعقودهم المحررة مع المقاولين وهي تثبت أن كل شيء (صاغ سليم) ؟ .. أغلب الظن أن الحكم سيكون الخيار الأخير ، كشأن العدالة المنحازة دوماً إلى الحكام !

مضى في طريقه إلى المسافرخانة ، محاولاً قدر استطاعته تجنب بؤر المياه المتبقية بعد إطفاء الحريق ، على رأس الحارة يربض مقام سيدي مرزوق المدفون بداخله كما هو منذ جاء شوقي إلى القصر لأول مرة قبل تسعة وعشرين عاماً . المارة قليلون ، وربَّات البيوت تتبادلن الثرثرة أمام بيوتهن كالمعتاد ، تعرفت عليه إحداهن وحيَّته بتلقائية بنت البلد ، وبادرته بالمواساة في حريق القصر وهي حتى لا تذكر اسمه ، وقالت وكأنها تكمل حديثها مع جارتها :

- أنا فاكراك .. أنت من الفنانين اللي كنت باشوفهم دايما في السفرخانة وأنا عيَّلة صغيرة .. مش كده ؟ .. ربنا يعوض عليكم يا بيه .. ياما لعبنا قدَّامه واحنا عيال .. منهم لله اللي كانوا السبب.

لم يجد كلمات يرد بها عليها غير : العوض على الله !

استأنفت بنفس التلقائية :

- والنبي لسَّه ولادي كانوا بيلعبوا قُدام السراية قبل الحريقة بساعة .. بيقولوا إن كوم الزبالة قدام البوابة كان السبب .. كدابين في أصل وشُّهم .. النار ولَّعت من جَّوا السراية .. زبالة إيه اللي تحرقها من حارتين بُعاد عن بعض في وقت واحد؟! .. دي النار مسكت الأول في السقالات اللي ساندة الحيطان من الناحية الجوانية .. من عند الباب اللي فاتح على درب المسمط .

قالت زميلتها وهي تشد الملاءة حول كتفها مبتسمة على استيحاء :

- واحد من الفنانين اللي كانوا في السراية رسمني زمان .

تهللت صاحبتها وهي تسألها :

- لسه شايلة الرسمة دي يا بت ؟
- هو أنا أخذتها منه أصلاً ؟ .. هو نده لي وأنا بالعب الأولة في الحارة مع البنات .. وقاللي تعالي عشان ارسمك واديكي جنيه .. قلت له حاسأل أمي الأول .. سألتها قالت لي : أوعي يضحك عليكي .. خُدِي منه الفلوس قبل ما يرسمك .

قالت صاحبتها : هيه .. وأخذت الجنيه ؟

- أيوة .. وقعَّدني قدامه ما اتحركتش يجي ساعتين .. لحد ما نمت وأنا قاعدة .. في الآخر لقيت نفسي مرسومة في الصورة ناقص اتكلم !

قالت الجارة وهي تؤنبها ، وكأنما نسيت وجود شوقي الذي كان يتابع الحديث بشغف:

- وما أخدتيهاش ليه يا عبيطة ؟ .. كان زمانها دولقتي تساوي الشيء الفلاني !
- وإيش عرَّفني ؟ .. كنت عيَّلة ومش عارفة حاجة .. وفرحت بالجنية.

ثم انتبهت فجأة إلى وجوده وقالت بشهامة :

- لا مؤاخذة يا بيه .. وسيدي مرزوق احنا عيَّطنا على السراية امبارح لحد ما عنينا ورمت .. اتفضل اشرب الشاي عندنا .

اعتذر لهما مستأذنا للانصراف وهما تُلحَّان عليه لاستضافته ، انصرف شاكراً وأكمل طريقه إلى « سراية السفرخانة » كما يطلق أهل الحي عليها.

كان الحوار مع الشابتين قد امتص قدراً من وَجَله وهيَّأه للدخول بقدر من التماسك . لكن رائحة الدخان والرماد المبلل صدمت خياشيمه بحدة ، كما صدم عينيه اختفاء أجزاء من المبنى بأكملها ، فسَرَى في داخله اضطراب وجزع ، سرعان ما تحولا إلى الغضب . لكنه رأى نادر على بعد خطوات يتحدث مع الريَّس شعبان حارس القصر . الذي بدت على وجهه الأسمر الغامق تجاعيد الزمن مضاعفة عما رآه منذ أكثر من عشرين عاماً أمام البهو الذي كانت تطل عليه قاعة السلاملك .

حيّاه الريس شعبان بحرارة ، وتهدَّج صوته حتى بدا على وشك البكاء:

- شفت يا سعادة البيه ؟.. السفرخانة راحت خلاص !

ربَّت على يده الممسكة بالمسبحة الطويلة مواسياً . واصل شعبان :

- لو كنت سيادتك المدير دلوقتي زي زمان ما كانش ده حصل .

من بين دهشته قال :

- تقصد إيه ؟

حرَّك حبات المسبحة ذات الـ ٩٩ حبة بأصابع يديه الإثنتين قائلاً :

- ماكنتش حتسمح لأهل الحارة يكوّموا الزبالة على الأبواب هنا وهناك .

وأشار في اتجاهَيْ بابَيْ القصر في حارة الطبلاوي ودرب المسمط. قال نادر:

- أنت مصدَّق حكاية الزبالة دي ياعم شعبان ؟
- طبعاً يا بيه .. وهل فيه غيرها ؟
- طيب ازاي ولَّعت من الناحيتين في نفس الوقت ؟
- ومين اللي قال انهم ولَّعوا في نفس الوقت ؟ (وعلا صوته في غضب) حد من اللي قالوا كان هنا ؟ .. أنا اللي كنت هنا وربّنا شاهد .

ورفع يديه إلى أعلى والسبحة تتدلى من إحداهما ، ووجهه للسماء شاكياً بحرقة :

- حسبي الله ونعم الوكيل !

ربَّت شوقي على كتفه ليطيِّب خاطره ، ولاحظ وهو يقترب منه اشتعال رأسه شيباً من تحت العمامة ، إضافة إلى شاربه الكثيف ولحيته النابتة بلمعة الفضة.

- معلش يا ريس شعبان .. إحنا بس عاوزين نعرف إيه اللي حصل .

تنهد شعبان وازدادت سرعة تحريكه لحبات السبحة ، ونظر إلى الأرض وهو يهز رأسه في تأثر شديد ، وكاد يجهش بالبكاء وهو يقول :

- يا بيه أنت بالذات عارف انني أكثر واحد صابه الضرر من الحريقة .. السفرخانة كانت بيتي العمر كله .. ماليش مطرح تاني أعيش فيه أنا وأولادي اللي اتولدوا كلهم هنا .. ودلوقتي بقينا في الشارع .. حسبي الله ونعم الوكيل .

قال نادر متأثرا وهو يضغط على ذراع شعبان :

- خلاص يا عم شعبان حقَّك عليّ .. أنا ما اقصدش حاجة والله .. أنا باقول اللي ممكن يقوله أي حد يسمع موضوع الزبالة ده .. المهم قل لنا أنت إيه اللي شفته .

أخذ الرجل نفساً عميقاً وحوقل واستغفر طويلاً ثم قال :

- صلى على النبي .

رددا الصلاة معاً على النبي ، وبدأ شعبان حكاية طويلة ، بدءاً من تعيينه بمصلحة الآثار بعد مجيئه من بلده سوهاج ، وكيف تم نقله إلى « السفرخانة » سنة ١٩٦٩ وهي تحت الترميم ، والتفت إلى شوقي يذكره بزيارة الوزير ثروت عكاشة للقصر ومعه كل قيادات الآثار والثقافة .. واستطرد :

- وكنت سيادتك معاه ، وأمر بتعيينك مدير للقصر .. فاكر سيادتك؟.. كنت أنا موجود وللا ماكنتش ؟

هز شوقي رأسه مُؤمِّناً على كلامه ، وأخذ ينسحب تدريجياً ، تاركاً لنادر مهمة الاستماع لحكاياته التي يحفظها عن ظهر قلب ، متجها إلى الداخل ليشاهد

آثار الحريق ، وقد أدرك أن نادر لن يخرج بطائل ، لأنه يعرف جيداً أسلوب شعبان في المراوغة والنفاق كما عَهِدهما فيه .

يا إلهي ! .. اهذه قاعة السلاملك التي كان يعرفها ؟! .. لم يعد باقيا منها شيء .. لقد سقط السقف المُحلَّى بالزخارف المُذَهبة فوق عروقه الخشبية الممتدة متوازية بطول القاعة ، تتدلى منه ثلاث نجفات من الكريستال التركي بقناديل كالكؤوس ، وسقطت معها القاعة التي كانت فوقها وهي قاعة الحراملك التي كان مرسمه بها ، وكافة المشربيات ونوافذ الزجاج الملون المعشق بالجص فيهما ، واختفت تحت الأنقاض النافورة البديعة المشكَّلة بفسيفساء الخُردة الملونة ، وأرضيات « الدُرقاعة » الرخامية بمستوياتها المتعددة وأشكالها الهندسية من مربعات ومثلثات ودوائر ، كما اختفت دواليب الحوائط الخشبية المطعمة بزخارف العاج والأصداف على شكل الطبق النجمي ، وفي أعلاها « الخُورنقات » أو الطاقات ذات العقود المتتالية فوق أعمدة نحيلة مخروطة من الخشب وكل طاقة منها تضم فازة خزفية بالبريق المعدني ، أو قارورة زجاجية ملونة يدوية الصنع ، أو مشكاة محلَّاة بحروف عربية ، او إبريقاً نحاسياً مكفّتاً بعروق الفضة ، ومن فوق هذا كله شريط بخط الثُلُث يدور كالحزام حول الجدران الأربعة لقاعة استقبال الرجال ، بأبيات من قصيدة نهج البردة للإمام البوصيري.

خرج شوقي من القاعة التي صارت وهما أو ذكرى ، لم يجد نادر في البهو الرخامي أمام القاعة ، كان قد سبقه إلى الفناء المقابل « للتختبوش» – أو ما كان كذلك – وراح يلتقط الصور من كل الأماكن والزوايا ، وقال مبدياً حسرته :

- أذكر أنه كان يوجد هنا عمود رخامي هائل الارتفاع .
- إنه العمود الحامل للمقعد العلوي للحريم أو التختبوش ، كان في الأصل في معبد روماني أو كنيسة قديمة .
- وأين ذهب ؟
- لابد أنه سقط واختفى حُطامه تحت الأنقاض.

أشار نادر نحو الجهة الشمالية التي بها المدخل الثاني للقصر من درب المسمط.

- أذكر أن هذه الجهة هي التي كانت بها تصدعات في جدرانها واستدعت دعمها بدعامات خشبية ، من وقت أن كنت طالباً بكلية الفنون الجميلة كنت أراها وأنا أزور القصر . كان ذلك قبل عشر سنوات .
- بل سبقتها عشر سنوات أخرى ، أي أن هذا الجدار ظل مدعوماً عشرين عاماً.
- ألم تكن هذه السنين كافية لتقوية الجدار بالحَقْن أو بأية وسيلة ؟
- لو فعلوا لما استمر صرف الملايين للشركة الكبرى ولمقاولي الباطن . لقد قيل هذا وغيره من الأسئلة كان من واجب الهيئة الإجابة عنه أثناء تلك السنوات أو بعد الحريق ، لكنها لم تفعل .. وفي غياب الشفافية فلا تستبعد أيه استنتاجات !

قالها نادر مستبشعاً الأمر ، فيما كان شوقي يتنبَّه إلى وجود سيدة أوروبية الملامح تبدو كسائحة . اتجهت إليه مباشرة وهي تحييه باسمه . رد عليها بالإنجليزية :

- صباح الخبر يا سيدتي .. هل تقابلنا من قبل ؟
- نعم .. في معرض زوجي .
- من هو ؟
- فؤاد عرابي .
- نعم تذكرت .. على فكرة .. خالص الأسف لكم على لوحاته .. لقد علمت بأن كل لوحاته كانت بمرسمه العلوي وقت الحريق .. لماذا لم ينقلها منذ أبلغت هيئة الآثار جميع الفنانين قبل شهور طويلة بضرورة إخلاء مراسمهم لإتمام الترميم ؟ .. وعلمت من الفنان عامر البحراوي مدير القصر منذ مدة انهم نفذوا الإخلاء جميعاً .

انضم نادر إليهما فقام شوقي بتعريفهما ببعضهما البعض ، علق نادر على ما سمعه:

- لقد سمعت أيضاً أنه لم تَنجُ أي لوحة من لوحاته من الحريق .

سارعت السيدة بالنفي قائلة :

- لا .. لابد ان هناك خطأ ، فإننا قمنا بنقل جميع اللوحات من المرسم الكبير العلوي قبل فترة من الحادث .. لقد نقلتها بنفسي .

قال نادر مستغرباً :

- لكنني علمت أنه بنفسه الذي صرح في أتيليه القاهرة بأن كل لوحاته بالمرسم حُرقت تماماً.

قالت بحسم :

- هناك سوء تفاهم بالتأكيد ، ربما كان يُقصد الحجرة بالدور الأرضي التي كانت هنا (وأشارت إلى أطلال منهارة بالفناء) وكان يستخدمها في طباعة لوحات الجرافيك على آلة الطباعة الخاصة به ، وقد تركناها لأن نقلها كان صعباً في ذلك اليوم وقررنا أخذها في يوم آخر ، وتركنا أيضاً بعض التجارب الطباعية على الورق لم نجدها مهمة ، ربما كان فؤاد يقصدها .

قال نادر بإلحاح : هل أنت متأكدة ؟

- نعم متأكدة .

قال شوقي بالعربية لينهي الموقف : الحمدلله .. حصل خير .

ردت بالعربية وهي تقلده ، دون أن تتمكن من نطق الحاء :

- الهمد لله .. حصل خير !

استأذنت منهما لتتفقد آثار الحريق ، وما أن تركتهما حتى سارع نادر يقول في غيظ.

- سوف أجن ! .. لقد سمعته بنفسي يقول ذلك .
- لكنك أخبرتها بأنك « علمت » بما قاله ، فلماذا لم تخبرها بالحقيقة ؟
- كنت محرجاً ، وقد أتسبب في أزمة بينهما ، والخواجات لا يحبون الكذب كما تعرف .
- دعنا لا نضخم الأمر .. ربما أراد أن يستدر التعاطف فيبدو ضحية .. ولا ضرر من ذلك على أي حال .

- بل هناك ضرر كبير يا أستاذي .. لأنه بعد أن تقمَّص دور الضحية يريد أن يقام معرض في الأتيليه بأعمال الفنانين تخصص حصيلة البيع فيه لصالحه! وقد بدأ الترتيب لإقامته بالفعل بموافقته

اغتصب شوقي ابتسامة سخرية مريرة وهو يشير بيده إلى الأطلال المحترقة قائلاً :

- ماذا يفيد الشاة سلخها بعد ذبحها ؟!

وضاق صدره بصورة الدمار واختنق بروائحه ، ونظر إلى أعلى حيث كان مرسمه في الحرملك وقال بنفس السخرية :

- ألم يكفه أنه استخدم الحرملك كمرسم له .. في مكان مرسمي ؟!

وقبل أن يغادرا القصر لاحظ أن الجانب الذي يقيم فيه شعبان وأسرته لم تمسه النيران ، رغم أن من المفترض – حسب نظرية اندلاعها من شرارة أثناء حرق القمامة أمام البوابة – أن يكون مسكنه أول مكان يحترق . وخرجاً من البوابة التي كان بابها الخشبي سليماً .. وغير بعيد عن القصر التقيا في الطريق بأربعة من الأثريين تعرَّف شوقي على أثنين منهم كان يراهما وقت وجوده بالمكان . خمَّن أنهم لجنة فنية من مفتشي آثار المنطقة جاءت للمعاينة وكتابة تقرير لرفعه إلى الوزير . حياهم وعبر عن أسفه لما حدث . هزوا رؤوسهم في صمت يحمل معاني كثيرة ، فهم بلا شك لم ينسوا الصراع القديم بينه وبين قيادات الوزارة وحاشيتهم ممن تواطأوا مع المخبرين والبلطجية الذي انتهى بتحطيم مرسمه ولوحاته بالقصر .. وقبل أن يفترق عن نادر عند ناصية حارة الطبلاوي قال لنادر :

- أظنك قد استنتجت ماذا ستكون نتيجة التحقيقات مقدماً !!

(٥)

- **٢٣ أكتوبر ١٩٩٨م.**

كان الحريق هو الموضوع الرئيس للعاملين بوكالة الغوري ، وقد حضروا يقدمون إلى شوقي نعمان وكيل الوزارة أسفهم على حريق المسافرخانة وكأنه فقد

عزيزاً لديه ، كان أغلبهم يعرف الكثير عن علاقته بالقصر منذ ١٩٧٦، وأقلُّهم لا يعرفون عنه أكثر من أنه يتبع وكيل الوزارة كفرع من إدارة المراسم وبيوت الإبداع ، بعيداً عن الجانب الأثري الذي يتبع هيئة الآثار ، وإن كانت تضم الجانبين وزارة واحدة هي وزارة الثقافة.

كان الرأي الغالب بينهم يؤكد نظرية المؤامرة وما وراءها من عصابة المقاولين ومن يتواطأ معهم ، وترى قلة أن المسئول هو الإهمال ، فيما انفرد محمد عمران رئيس الأقسام الفنية بالرأي بأن جذر المشكلة سياسي ، بمعنى عدم اهتمام سياسة الدولة بالثقافة والفنون والتراث ، في غمار انشغال النظام بمشروعات الحزب الوطني الحاكم وبالتمهيد للتوريث وللمصالحة مع الإخوان المسلمين .. كان شوقي مُترعاً بالحزن والمرارة ، وعازفاً – من ثم– عن الدخول في أي نقاش، خاصة وأن حديث محمد عمران عن الحزب الوطني والمصالحة مع الإخوان والتمهيد للتوريث قد ضاعف من شعوره بغُصة في حلقه ، فقد أيقظ بداخله خيبة الأمل بضياع أي عائد لنضال السبعينيات بما فيها انتصار حرب ٧٣ المجيدة ، بآلاف البطولات من رجالها ومئات الآلاف من شهدائها ، حيث شعر الناس بأنهم يخرجون بعد كل هذه التضحيات بأيدٍ فارغة ، بعد أن حصد المنتفعون من كل نظام ثمار النصر ، ومعهم الإخوان وأباطرة الانفتاح الاستهلاكي ، ومن تشعلقوا بحبال الحزب الحاكم وحواريه في كل مكان ، فأكلوا فطيرة السلطة ودخلوا المجالس النيابية ممثلين للشعب، وتولَّوا القيادة في كافة المواقع ، ولا عزاء لمن قاتلوا ومن تظاهروا ومن سُجنوا ومن عُذِّبوا ومن شُرِّدوا دفاعاً عن حق الجماهير.

طلب من مرؤوسيه الاكتفاء بذلك القدر من جلسة الحوار المرتجلة التي يسمح بعقدها في مكتبه بين الحين والآخر ، للعودة إلى مكاتبهم واستئناف أعمالهم ، وراح يتصفح ملف البريد اليومي ويوجه التأشيرات اللازمة إلى المختص بالأمر في كل موضوع بكل إدارة خاصة بأقسام الحرف التقليدية لوكالة الغوري التي يوليها أكبر اهتمامه ، ثم قرر الانصراف مبكراً ، لا لشيء إلا ليسير على قدميه بغير هدف .. ساقته قدماه إلى شارع الغورية. لقد اعتاد السير والتدافع في زحامه كلما ضاقت به الأحوال وعز الرفيق . إنه في المعتاد لا يطيق الزحام في أي مكان إلا في هذا

الشارع حتى ولو تفشَّت بينه مؤخراً ظاهرة الحجاب مع المد السلفي الكاسح الذي كسا رؤوس أغلب الفتيات والنساء ، فهو هنا ليس زحاما، بل تيار نهر متدفق يسرى في موجات ناعمة ، ومع أن البشر فيه مُساقون بقوة الضرورة الخشنة ، سعياً وراء اللقمة والهدمة والسترة . فإن أرواحهم هنا تكتسي بغلالة رقيقة من التسامح جعلت الاحتكاك العنيف وسط المجموع يتم بنعومة وأريحية ، وهو نفس ما تجده في زحام الموالد الدينية على سبيل المثال.

خاض وسط كتل بشرية طالما تغنيَّ بها المثقفون وهم في الحقيقة لا يعرفونها ولا تعرفهم .. هل سمع هذا الزحف عن حريق المسافرخانة ؟ .. ربما .. فالكوارث هي مصدر الجاذبية الأقوى ، وفيها يستدعي الشعب مخزونه التاريخي من التآخي الإنساني ومن التراحم والمشاركة ولو بالقلب ، ومن الدعوات بالنجاة حيث لا يملك شيئاً للمكلومين مثله غير ذلك .. «طيب وماذا لو عرفوا بالحريق ؟ .. لا شيء غير مصمصة الشفاه . ولتسأل – إن شئت– أي شخص من هذا الطوفان البشري عن إسمي المغني الشيخ إمام عيسى والشاعر أحمد فؤاد نجم . وهما على بعد خطوات من هذا الزحام ، أراهن لو وجدْت من سمع عنهما ولو بنسبة واحد في المائة خارج حارة حوش قدم التي يقيمان فيها على يسارك وأنت تدخل شارع الغورية ، ناهيك عن أن يكونوا قد سمعوا بأنهما قضيا في السجون سنوات لا تحصى ولا تعد من أجلهم ، لكنني سأخسر الرهان قطعاً لو سألنا أهل الحارة عنهما ، فهما لسانهم وفخرهم ، وهما من جعل من الحارة مزاراً وعنواناً للوطنية وصوتاً للمظلومين !

حاول وسط الزحام رؤية المباني الأثرية على جانبي الشارع ، لكن السقائف والخيام كانت تغطي مساحات غير قليلة منه على امتداد الطريق ، وقد تبزغ من بينها جدران بعض المساجد المملوكية والعثمانية ، أو بعض الدرجات الحجرية الصاعدة إلى باب مسجد تتساند جدرانه من فرط الشيخوخة والإهمال وزحف الباعة ، حيث يخزَّنون بضائعهم قرب مدخله ، فينتهكون وقاره وحرمته ، ولعلهم مدركون أنه أصبح خارج الخدمة في انتظار الترميم الذي لا يتحقق كمئات مثله من الأثار ، وقد تطل من بين الخيام مئذنة هنا أو مشربية هناك . أو رقعة من السماء الصافية بين سقيفتين في وهج ضوئي.

من شارع الغورية انعطف شمالاً حيث يقيم صديقاه القديمان الشيخ إمام وأحمد نجم . منذ جمعته بهما الزنازين أكثر من مرة وبعد الافراج عنهم كان يتردد عليهما من آن لآخر ، كانا دائماً – عبر الأغاني والأشعار والتواصل الحميم الثري بالذكريات – ملاذ القلب الحزين والصدر المخنوق . وعند مدخل العطفة الضيقة قرب البيت العتيق المتهالك الذي يسكنه صديقاه، توهجت في قلبه البهجة على غير توقع. بمرأى « محمود اللبان » يفترش الأرض أمام حجرته أو جحره الصغير ، مرتدياً جلبابه الأبيض ، ومن حوله تنتشر تماثيله الجصية ، فتصنع عالماً طفولياً عجائبياً، مليئاً بحيوانات طيبة وأخرى شريرة ، وبأشخاص كالسحرة أو المسحورين ، يبدون لنا قادمين من أساطير المكسيك أو معابد الهند وتايلاند ، وبوجوه كأقنعة المسرح بين الضحك والبكاء ، وبأجسام عارية كعفاريت الجن لعمالقة وأقزام ، وهناك عربة كارو يحتشد فوقها بشر عراة وكأنهم مساقون للبيع في سوق العبيد ، وهناك سلاحف بوجوه بشرية صاغرة لمصيرها ، وحمير صغيرة كالأرانب ، جالسة تتهامس بالأسرار .. ياله من مسرح خرافي !

كان الرجل منهمكاً بكل جوارحه في نحت قطعة من الجبس بسكينه الحاد ، حتى أنه لم يشعر بوجود شوقي . جلس أمامه القرفصاء دون أن ينبس بكلمة .

أصبح وجهاهما متقاربين ، لاحظ أثر السنين منحوتة بضراوة على أديم وجهه الأسمر ولحيته البيضاء، كأن ملامحه حُفرت بسكين النحت في يده ، لكن روح الطفل لم تبرحه ، بل زادها وضوحاً هذا الاندماج مع القطعة التي ينحتها ، فيبدو وكأنه يفكك أجزاء لعبته ويعيد تركيبها . أنتبه الرجل فجأة إلى من يراقبه فأضاء وجهه بفرحة طفولية وهو يصيح :

- سي شوقي ؟! .. يا نهار أبيض .. أنا في حلم وللا في علم ؟

مال عليه شوقي وقبله على وجنتيه وجبينه

- إزيك يا عم محمود ؟ .. واحشني !
- أنت كنت في بالي من امبارح يا سي شوقي ما فارقتنيش .. من ساعة ما عرفت بالمصيبية دي .

- تقصد المسافرخانة ؟
- تصدَّق بالله ياسي شوقي ؟ .. أنا كنت عارف من زمان انهم حيعملوها .
- عندك معلومات ؟
- لأ .. لكن قلبي دليلي من زمان قوي .. ما نسيتش أبدا اللي عملوه فيك .
- وفيك أنت كمان ياعم محمود .
- سيبك مني .. ضربوني وأنا باحميك منهم .. أنت فاكر اللي ضربوك وكسَّروا لوحاتك ومرسمك موظفين عندهم بينفذوا أوامر سيدهم ؟.. لا .. دول بلطجية ومخبرين من الدرب الأحمر .. وأنا عارفهم بالإسم .
- مين اللي بعتهم ؟
- المباحث من جهة .. والمقاول اللي حاطط سقالاته في السفرخانة زي مسمار جحا من جهة ثانية .
- طيب أنا كنت عاديته في إيه ؟
- إزاي ما تعرفش ياسي شوقي ؟ .. مش انت اللي قلت أيامها عاوزين لجنه مهندسين من برة تيجي تعاين الحيطة اللي بيقولوا حتقع .. يعني حتوْقف السبوبة (ومثَّل بكف يده على فمه حركة شفط المال) .. لكن الأهم بقي هم المباحث .. لقوا السجن مش نافع معاك .. كان لازم يكسروك خالص .. يكسروك في إيه ؟ .. في لُوَحَك .. هم مش طردوني أنا كمان ؟ .. عارفين إنك اللي جايبني .. كانوا بيضربوك فيَّ.
- طيب إيه الجديد اللي يخليهم يحرقوه النهاردة ؟.. ما هي الدنيا كانت ماشية معاهم زي الفل .
- الريحة فاحت ياسي شوقي .. فيه ناس زيك كده كانوا بينكشوا وراهم .. حسَّوا إن رجلهم حتيجي وبيان المستخبي – قالوا نعمل إيه ؟ .. نتاوى القتيل ونمشي في جنازته .

بيديه الاثنين احتضن شوقي كتفي عم محمود ضاغطاً عليهما بمحبة ، ونهض قائلاً.

- الله عليك يا راجل يا عجوز ! .. عجوز إيه دا احنا اللي عجَّزنا وأنت الشباب.. حاسيبك دلوقت واطلع أسلم على نجم والشيخ إمام .
- هم مش فوق .. دول مسافرين .. عقبال أملتك مدعيين في فرنسا يعملوا حفلات هناك .. بدل ما هم قاعدين هنا مفيش حد بيسأل عليهم دلوقت.

ظل شوقي حائراً أين يذهب ، لكنه كان قد تخلص من بعض الهم الثقيل الذي دفعه للمجيء هنا ، غير أن وضع عم محمود ظل يقلقه بإحساس بالمسئولية تجاهه .. فقال :

- نفسي تلاقيلك مطرح تنحت فيه بدل قعدة الشارع دي ياعم محمود .
- مالها قعدة الشارع ؟.. دي هي اللي عملتني .. وهي دي اللي انت جيت أخدتني منها على مرسمي في السفرخانة .. صحيح هناك خليتني أحسّ يعني إيه أكون فنان .. لكن الدنيا على ده وده .. رجعت لأصلى .. لكن معايا فني .. الحارة والدنيا كلها النهاردة عرفت انني فنان .. دلوقت بيقولوا : الفنان جه .. الفنان راح .
- أهل الحارة أهم عندك من الفنانين والمثقفين في المسافرخانة ؟

صمت الرجل برهة يقلب في يده قطعة الجبس التي يشكلها .. وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته :

- شوف يا سي شوقي .. على قد ما قعدت في السفرخانة خمس سنين لقيت فيهم الاحترام والقيمة وفلوس الخواجات كمان .. لكن فضلت غريب .. هنا في الحارة أنا اتولدت .. وسرحت باللبن على أهاليها .. ولو احتجت لحاجة ألاقيهم جنبي .. لو وقعت يشيلوني .. لكن في السفرخانة لما وقعت مين وقف جنبي وطبطب علىَّ غيرك ؟.. مع إنك مضروب زيّي .. وما حدش وقف جنبك كمان زيّي .. الحمدلله .. كده حلو قوى .

وقبَّل يده وجها وظهراً .

- لكن عايش ازاي ياعم محمود ؟

- مستورة والحمدلله .. ربك ما بينساش حد .. هو أنا حاكل لقمة زيادة عن اللي بطني تساعه ؟ .. كفاية ألاقي زبون يشتري مني حتة وللا اثنين في الشهر .. أجيب أكل وسجاير وأدفع أجرة الأوضة واشتري شيكارة الجبس .. واشرب الشاي كمان ..

تنهد شوقي بعمق ودعا له بالصحة ، ودعاه لزيارته في وكالة الغوري .. فقال:

- إن شاء الله .. بس ما يكونش هناك كلاب الحكومة .
- إطمئن .. حا حبسهم يوم ما تيجي ! .. سلام يا صاحبي.

*****

- **٢٣ أكتوبر ١٩٩٨م.**

لمعالم الغورية حنين لا يستطيع الانفلات من أسره . أخذه الحنين في اتجاه سبيل الست نفيسة البيضا . روائح البخور والعطارة تختلط بروائح التوابل الحرِّيفة في أنفه ، إنه يعشقها لكنه لا يحتملها لحساسية مزمنة في جيوبه الأنفية . وجد نفسه أمام دكان مليء بأصنافها المجلوبة من شتى البلدان خاصة من السودان وعمان والهند وباكستان .

كان ضيوفه أيام المسافرخانة هم أكثر من يعذبونه في كل مرة يصطحبهم في جولة بالمنطقة خاصة السيدات منهن ؛ فأمام الدكان تتسمر الواحدة منهم منجذبة إلى الروائح الفاغمة للأنف وتلح في الدخول بُغية الشراء ، وقد تبقى بالداخل طويلاً حتى تصيبه نوبة عطس فيسرع بالخروج لانتظارها وقد نفد صبره ، آخرهن كانت « فريدة » التي كانت تصر على مشاغبته حين تكون معه ، فتشده ناحية الدكان حتى لو لم تكن بحاجة إلى الشراء ، فقط لتثير غيظه وتضحك عليه وهو مستغرق في نوبة العطس بغير توقف ، فكان يسبقها إلى سبيل نفيسة البيضا أو جامع المؤيَّد شيخ أو بوابة المتولي ، فتلحق به ضاحكة وقد تورَّد خداها وأشعَّت روحها بطاقة أنثوية طاغية. كانت في كل مرة تدعوه ليأخذها إلى مكان أو أثر جديد ، بدءاً من باب الفتوح عند سور القاهرة الشمالي .. إلى بوابة المتولي عند سورها الجنوبي قديماً ،

فيأخذان شارع المعز من أوله إلى آخره ، ويعبران شارع الأزهر ويواصلان في شارع الغورية .. كانت مجنونة بالعمارة الاسلامية ، تقرأ كل ما يصل إلى يدها من كتب عنها ، وتأتيه ليصحبها لمشاهدتها على الطبيعة ، وتصر على أن تُسمعه بعض ما قرأته، وقد يكون هو من أرشدها قبلاً لقراءته ، لكنه يتظاهر بأنه يتلقى منها هذه المعلومات لأول مرة ، وتسترسل في حماس وتقرصه من ذراعة مؤنبة إذا انشغل عنها بشيء ما ، ويضحكان ، وفي نهاية إحدى الجولات فاجأته بصمت كالخرس ، وغابت عنه حتى كادت ألا تسمعه وهو سائر بجوارها ، وغلَّفت ملامحَها غمامة غامضة وكأنها تذكرت أمرا بالغ الألم ، تكرر هذا غير مرة ، دون أن تجيب بشيء واضح لتفسير ما اعتراها فجأة ، كان يعرف أن هناك خلافاً دبَّ بينها وبين خطيبها الشاعر خالد الغندور ، وعندما سألها عما إذا كان لاكتئابها المفاجئ علاقة به ، نفت بشدة ، حريصة على أن تظل هذه منطقة ضبابية مبهمة فوقها علامة «ممنوع الدخول» !

إثنان وعشرون عاماً مضت على ذلك .. ولا يزال يراه ماثلاً كحقيقة !

(٦)

- **المسافرخانة – سبتمبر ١٩٧٦م .**

أمام لوحته الجديدة التي لم تكتمل وقفاً متقاربين . ظلت صامتة وهي تعقد ذراعيها على صدرها . لم يشأ أن يقطع استغراقها ، وهو لا يعرف ما إذا كان ذلك إعجاباً أم استغراباً أم عجزاً عن التفاعل.

– ما رأيك ؟

ظلت صامتة . رجح الاحتمال الأخير . أراد أن يختبرها :

– اقترحي عنواناً لها .

لمعت عيناها فجأة ببريق خاطف وكأنها على وشك الصياح : « وجدتها » ، قالت متهللة :

- في انتظار الفارس .

أدهشه العنوان . سألها :

- أي فارس ؟ .. لا أفهم .
- هذا الحصان الأخضر هناك بغرَّته الحمراء ، وهو يقف بعيداً بين أشجار الغابة .. إلى أين ينظر ؟
- إلى جهتنا نحن المشاهدين.

قالت :

- لا .. إنه ينظر إليها هي .. هذه المرأة العارية المنحنية على الأرض بشعرها الأحمر المنسدل إلى أسفل بنفس لون غُرَّة الحصان .. منتفخة البطن وكأنها على وشك الولادة..
- حسناً .. وماذا بعد ؟

قالت وكأنها وجدت حل اللغز :

- ألن تلد الفارس الذي ينتظره الحصان ؟

تملكته حالة من الفرحة باقتراحها حتى فكر في مكافأتها بقبلة على خدها .

- يا بنت الإيه !! .. لقد حللت لي المشكلة .
- أيه مشكلة ؟
- كنت أرسم حُلما .. فجعلتِ منه أسطورة !

ضربت كفه بكفها سعيدة بذكائها :

- تلميذتك يا أستاذ !
- التلميذة أصبحت ناقدة .. متى ظهرت عليك بوادر النقد ؟
- من زمان ولكنك لا تلقي بالاً.

شعر بأنها ترسل رسالة ما .. قال متخابثاً :

- لا ألقي بالا إلى النقد أم إلى شيء آخر ؟

لكمتـه فـي صـوره مداعِبـة وقـد تـوهج خـداها .. إن خـديها دائمـاً مرآتهـا الكاشـفة لمشاعرها.

جلست علـى أحد كراسـي القش الواطئـة أمـام الطبليـة الملونـة بزخـارف طبـق نجمـي . قال :

- تستحقين الآن مكافأة .
- سترسمني ؟ .. لقد وعدتني بذلك ولم تف بوعدك .
- لا .. سأصنع لك كوب شاي معتبر بالنعناع .

ضحكت قائلة:

- كسبنا صلاة النبي !

ذهب إلـى الحمـام ليملأ غلايـة الشـاي ويعد الأكواب الخزفيـة . وضـع القابس في مصدر الكهرباء وهو يفكر في أنها اليوم تشع حضوراً قوياً لم يترك فراغاً لشيء سواها. هذا ليس انجذاباً صافيا نحوها ، بل يختلط بمشاعر متناقضة تجاهها .. لا ينكر انجذابه إلى جمالها البسيط الذي لا يعرف تماماً أين يكمن ، إلا في اللحظات التي تلمع عيناها بالذكاء، خاصة وأنها شخصية لا تقنع بالمسلمات بل هي دائمة التساؤل عن كل شيء كطفل يكتشف العالم لأول مرة ، وقد تضع يدها ببساطة على حقيقة عبرناها بالاعتياد بدون اهتمام : فتكتشف هي فجأة أن لها وجهاً آخر .. وقد تعارضه أحياناً ، إلى حد اتهامه، بجرأة لم يعتدها من أحد قبلها ، بالجمود والتقليدية ، لم يكن ذلك يغضبه ، بل يراه تأكيداً لشخصيتها المستقلة ، والأهم هو أنها تترجم أفكارها إلى مواقف عملية في القضايا الثقافية والسياسية ، بغير ادعاء أو مزايدة او جبن أمام أي مواجهة . قال لنفسه إن هذه مساحة عريضة يمكنه أن يبني فوقها علاقة إنسانية أعمق من مجرد الصداقة العادية الراهنة ، فهناك بلا شك مشاعر خاصة من جانبها تجاهه ، ربما فضح مشاعرها اليوم احمرار وجهها وهي تلكمه في صدره بعد أن قالت إنه لا يلقي بلا إليها .. ولكن كيف يفهم ذلك وهي مرتبطة بإنسان آخر ؟ .. ربما كانت تفكر في فسخ الخطوبة ؟ .. ممكن جداً .. لكن من غير الممكن على الإطلاق بالنسبة لشخصية مثلها أن تقبل أصلاً بالارتباط بشخص

مثل خالد غندور ولو كان شاعراً مرموقاً . لقد سمع عنه أموراً لا تدفع أحداً لاحترامه أو الثقة فيه . قيل أنه زئر نساء وطاووس مصاب بجنون العظمة ، آكل على كل الموائد يميناً ويساراً ، متسلق على النوافذ الخلفية للسلطة ، بل تردد همساً في بعض جلسات أتيليه القاهرة وجود صلة بينه وبين المباحث وعن قيامه بالإبلاغ عن بعض الكتاب الشيوعيين .

أخذ يصب الماء المغلي في كوبي الشاي بالنعناع وذهنه يدور :

في يوم سابق سألها عن رأيها في خالد الغندور كإنسان لا كشاعر ، فغيرت الموضوع بلباقة ، ولم يعاود هو المحاولة . وضعه ذلك آنذاك في مأزق : ما الأسلوب المناسب للتعامل معها إذا كانت مقتنعة بارتباطها بخالد ؟ وجد الحل هو التباعد التدريجي ، فحرص على عدم الاتصال بها تليفونياً ، لكنها فعلت العكس ؛ بالمواظبة على الاتصال به والسؤال عن أخباره وعن المعارض المقامة حالياً ليذهباً معا لزيارتها ، بل رحبت بالسفر معه إلى الاسكندرية لمشاهدة البينالي حين علمت بأنه مدعو للمشاركة بلوحاته في هذه الدورة .. آلا يرجح ذلك كله رغبتها في إنهاء علاقتها بخالد والارتباط به هو ؟

حمل صينية الشاي بالكوبين إلى الجانب المقابل من قاعة الحرملك ، حيث أتخذ منها مرسمه . وضعها على الطبلية قائلاً :

- تفضلي يا مولاتي .
- كل هذا لأنني أبديت إعجابي باللوحة ؟
- لا بل لسببين : أولاً احتفالاً بمولد الناقدة الشابة ، وثانياً لأنك الآن في مجلس استقبال الحريم في سراي الحاج محمود محرم .
- يا سلام ! .. من هو سي الحاج محمود هذا ؟
- إنه شاهبندر تجار المحروسة الذي بنى هذا القصر في القرن الثامن عشر .
- كان تاجراً في الجواري إذن .. وإلا ما جعل هذا الجناح الكبير مخصوصاً لمجلس الحريم .
- هذا ظلم كبير للرجل .. أقول لك إنه " الحاج " محمود .. تقولين أنه نخاس ؟

- وماذا يمنع ؟ .. ألم تكن تجارة الجواري مشروعة ؟ .. ألم يكن لدى .. قاطعها متوقعاً ما ستقوله :
- خلاص خلاص ! .. أعرف .. لكن كل المصادر التاريخية تجمع على أنه صاحب مشاريع خيرية خصص لها الكثير من ثروته .
- تريد أن تقول أنه كان ينتهي من صلاة العشاء ويأتي إلى هنا للتمتع بملك يمينه؟
- ولم لا ؟ .. أليس حقه الشرعي ؟

نهض ومد يهده إليها قائلاً :

- تعالي أفرجك على شيء .
- أين ؟
- هنا .. في هذا الجناح .

سبقها إلى باب صغير في أقصى طرف القاعة ، وكان يبدو كجزء من الكسوة الخشبية للجدران ، المزخرفة بالحشوات الهندسية المتقاطعة المطعمة بالصدف والعاج حول الركن الذي يجلسان فيه ، ومن فوقها صف الخُوَرْنقات العقدية بحواف قوسية مفَّرغة في الخشب كالدنتللا ، ومن تحتها دواليب حائطية بنفس وحدات الخشب الهندسية المطعمة على شكل أطباق نجمية ، وهي صورة مطابقة لما يوجد بقاعة السلاملك بالدور الأرضي تحت هذه القاعة تماماً . انفتح الباب بصوت كبوابة كنز علي بابا . صدمها ظلام حالك من خلفه . أضاء كشافاً صغيراً ببطارية . تشبثت به متوقعة أن ترى بيت الرعب . أخذ يدها يطمئنها :

- لا تخافي .. سترين حالاً ما يسرك .

أكملا السير بضع خطوات ، ثم فتح باباً آخر في نهاية الممر ، محدثاً نفس صوت الباب الأول ، فإذا بوهج نور هائل يفرش قاعة مربعة شاهقة الارتفاع ، جداران منها مفرغان إلا من ستارين هائلين من خرط المشربية كحبَّات عقود تنساب من تحت السقف إلى مصاطب عريضة من الخشب تحت هذه الستائر الخشبية ، أما السقف فقد بقي القليل من زخارفه الملونة بفعل شدة ضوء الشمس في القاعة على

مر السنين ، متسللة من خلف ثقوب المشربية . إنه ليس ضوءاً ، بل هو حالة من النور المذاب ، خلقتها مساحة الدنتلا التي تصفّى أشعة الشمس القوية الآتية من الجهة الشرقية للمبنى ، وتمتص وهجها فتحيله من أشعة ساطعة إلى ضوء ، وتحيل الضوء إلى نور ، وتحيل النور إلى ضَيّ ، فيخلق في النهاية هذه الحالة النورانية الوضاءة التي تشرح الصدر قبل أن تبهر العين ، بالرغم من الخراب المخيَّم عليها لعشرات السنين .

- يا إلهي ! .. ما هذا البهاء ؟! .. أكاد أجن .. كيف يُحبَس هذا الجمال خلف طبقات التراب والظلام ؟!

أمسكت بيده بقوة وهي تكاد تنتفض من الانفعال :

- أهذه حقاً قاعة المعيشة للحريم ؟ .. إنها تليق بأميرات لا بجواري .. فكيف كانت في عزّها ؟!

حاولت أن تلمس بيدها الستار الخشبي الشاهق بوحدات الخرط الدقيقة للمشربية ، وكأنما تتلمس منابع النور ، فحذرها قائلاً :

- لا تلمسي شيئاً !
- لماذا ؟ .. ممنوع ؟
- لا .. أنظري إلى يدك لتعرفي السبب.

نظرت إلى كف يدها فوجدته قد تلطخ بتراب لزج . أعطاها منديلاً ورقياً لتمسحه بينما تقول بامتعاض :

- هذه جريمة ! .. كيف يتركون هذا الكنز يأكله الإهمال إلى هذه الدرجة !
- كان من المفروض أن يُستكمل ترميم القصر بتغطية هذه الواجهات من خرط المشربية بألواح زجاجية في براويز خشبية لمنع التراب كما كانت في الأصل ، لكن المقاول تجاهل هذا الجناح كله بما يعلوه بالدور الثالث من حجرات الحريم ، مدعياً أنه سيستكمل العمل عند استلام حصته المالية من هيئة

الآثار، وقد مضت حتى الآن خمس سنوات على الافتتاح الرسمي للقصر ولم يقم بالتزامه .

لاحظت عبر ثقوب المشربية عند آخر الفناء الخلفي من الناحية الشرقية ؛ حجرين دائريين شديدي الضخامة بحجم قواعد أعمدة معبد الكرنك ، مثبتين أحدهما فوق الآخر ، ويرتفع من مركزهما جزع شجرة ينتهي بفرعين على شكل ٧، ويمتد منه فرع شجرة طويل غليظ ومقوس . سألته عنه فقال :

- إنها طاحونة الغلال .
- طاحونة ؟ .. في السراي ؟
- كان ذلك من ضرورات أي سراي في ذلك الزمن ، فكل قصر وحدة اكتفاء ذاتي : بئر الماء .. طاحونة الغلال .. فرن الخبيز .. حديقة الخضروات والفاكهة .. حظيرة الخيل والدواب ..
- كيف كانت تدار هذه الطاحونة ؟
- بواسطة بغل أو حمار .. وربما أحد العبيد .
- وهل لا تزال الطاحونة صالحة للعمل ؟
- نعم .. فقط تلزمها الدابَّة .

ضحكت قائلة : أو العبد .

في وسط القاعة أخذت تقلب بصرها بحثاً عن شيء ما .. سألته :

- قلتَ إنه توجد هنا حجرات للحريم .
- نعم .. إنها للنوم .. وأخرى للمطابخ والحمامات .
- أين هي ؟

قادها إلى درجات سلم داخلي تصعد من داخل القاعة إلى أعلى . همت بالصعود بحماس ، فمنعها محذراً من أن حالة الجناح العلوي مزرية ، بسبب التصدعات والأتربة المتراكمة ، وأشار إلى بعض الشروخ البادية على الجدار الحامل للجناح.

- خسارة ! .. كيف تسكت على ذلك ؟

قالتها بغضب وهي واقفة في مواجهته كالمحقق.

- إنها معركة أخوضها وحدي بكل أسف .. ليس من أجل هذا الجناح فقط بل لحالة القصر كله .. تعالى لأريك الأسوأ..

عادا إلى المرسم بالحرملك ، حيث توجد قاعدة خشبية عريضة أسفل المشربية وعلى امتدادها بطول القاعة ، وهي بمثابة المصطبة التي كانت توجد في بيوت ذلك العصر ، ولكنها هنا كسحَّارة ذات فتحة خاصة لتخزين حاجات القاعة ، ويعلو المشربية صف من نوافذ الزجاج المعشق بالجص ، برسوم فردوسية ملونة تحاكي الجنة في خيال الفنان المسلم . صعدا فوق السحَّارة . فتح نافذة صغيرة تطل على فناء القصر وحديقته الصغيرة المحيطة بالنافورة . انحشر رأساهما في الإطار الضيق للنافذة . لم يشعر أحدهما بحرج من تلاصق وجهيهما وجسديهما . كان كل تركيزهما فيما ينظران نحوه ..

- أترين العروق الخشب والمواسير المشدودة على الجدار المقابل ؟
- نعم .. رأيتها من قبل وفهمت أنها بغرض الترميم .
- هذا هو المفروض .. لكنها على هذا الحال منذ خمس سنوات .. وضعتها شركة المقاولات كمسمار جحا .. يأتون للمعاينة من حين لآخر ثم يذهبون لصرف الأقساط ..
- أليس هناك من يحاسبهم ؟
- بالطبع هم حاضرون .. لكن في مكاتبهم .
- وأنت .. لماذا لا تتحرك ؟
- وماذا بيدي لأعمله غير إرسال المكاتبات .. والرد يأتي دائما من جانب هيئة الفنون ، بأنهم رفعوا الأمر إلى الجهات المختصة بالآثار .. وليس ذلك اختصاصنا .. هذا هو الوجه الظاهر .. أما في الباطن فالله أعلم !

انتبه إلى حرارة كتفها الملاصق لكتفه . شعر به فجأة كمسّ كهربائي ، وبأنفاسها الدفئة تلفح وجهه ، وشعر بنوع من التواطؤ بينهما على استمراء هذا الوضع واستمراره ، ويبدو أن الشعور نفسه انتابها في نفس اللحظة ، فانسحبت مبتعدة عن

النافذة ، وجلست على طرف السحَّارة المرتفعة عن الأرض أسفل المشربية .. وراحت تُطوّح قدميها الصغيرتين في الهواء كطفلة تلهو .. بدون تفكير جلس إلى جوارها تاركاً مسافة فيما بينهما فوق الحصيرة المفروشة . محاذراً عودة المس الكهربائي ومنجذباً إليها بمغناطيس في الوقت ذاته ، وعندما أخذ في الاقتراب منها .. توقفت حركة قدميها وأطرقت ، وران عليها صمت عميق ، قطعته فجأة:

- هيه ؟ .. وماذا بعد ؟
- ماذا بعد ماذا ؟

عادت للصمت وهي مطرقة إلى الأرض ، وقد غاض الوهج المشع من وجهها . لاحظ بروز التكشيرة على ملامحها .. لا يدري إذا كان قد هاجمها خاطر مزعج أم شعور عميق بالحزن طفا إلى السطح فجأة .

- فريدة .. ماذا بك ؟

انتبهت بحركة أقرب إلى الفزع :

- هه ؟ .. هل قلتَ شيئاً ؟
- أسألك ماذا بك .. هل ضايقتْك في شيء ؟

سارعت تقول وهي تغتصب ابتسامة :

- لا أبداً .. لا شيء .

أمسك بيدها فوجدها في برودة الثلج ، راح يدلّكها برقة ، فإذا بها تنخرط في بكاء تحول إلى نشيج ، وكلما ربَّت على كتفها ازداد نشيجها ، وعبثاً يحاول معرفة سبب هذا التحول المفاجئ ، لكنه شعر بأن البكاء يخفف عنها ، فأراح رأسها على كتفه فلم تمانع ، حتى هدأت .

- هل لديكِ مشكلة مع خالد ؟

نهضت فجأة وهي تقول : لازم أمشي.

- طيب .. ولكن ليس وأنت بهذه الحالة .

- أنا بخير .. لا تقلق .

واختطفت حقيبة يدها وأسرعت بالخروج . حاول اللحاق بها قائلاً :

- يا مجنونة ! .. طيب خليني أوصلك حتى الميدان على الأقل .

شكرته باقتضاب وهي تنزل درجات السلم الرخامي بسرعة وكأن شبحاً يطاردها.

(٧)

شيء مهول بلا شك ، ذلك الذي قلبها فجأة هذا الانقلاب الغريب . قد تكون مصابة باكتئاب البارانويا أو بازدواج الشخصية . إن هذا يشكل أكبر حاجز بينهما.. السؤال الذي عليه أن يحسمه هو : هل يريد حقاً اجتياز هذا الحاجز؟ .. وأصلا : هل هذا من حقه بينما هي بالفعل تضع في إصبع يدها اليمنى دبلة خطوبتها لشخص آخر؟ .. هذا بحد ذاته مانع أخلاقي لا ينبغي أن يتخطاه حتى لو كانت هي مستعدة لذلك ، بل ولو كانت تفكر في فسخ هذه الخطبة .. فلتفسخها إن أرادت، وعندئذ يكون حديث آخر.

عندما انحشرا في شباك المشربية منذ قليل كادت تصيبه رعدة، كان الموقف أكبر من أن يقاومه بضوابط أخلاقية ، إنها الفطرة التي جُبلنا عليها والأصل في الطبيعة البشرية ، لا.. لا ينبغي الاتكاء على هذه الذريعة ، الطبيعة البشرية للغرائز الخام شيء ، والطبيعة البشرية للتطور شيء آخر، والإنسان لم يصل الى التحضر إلا بترويض الطبيعة والامساك بقيادها.

أحس بالعطش و بالحاجة إلى كوب من الشاي بدلا من الكوب التي تركه يبرد بجوار كوب فريده . قام إلى الحمام ليغسل الأكواب وهو يحدث نفسه:

وهل هذه كل المشكلة؟ .. فحتى لو جاءت لتبلغه بأنها فسخت خطوبتها، فهل هو مستعد حقاً لارتباط جديد ؟ .. فليعترف بأنه تغير كثيراً منذ انفصاله عن نادية قبل عام ونصف وسفرها للخارج مع نسمة، وأن ثمة جداراً بات يقف بينه وبين أية امرأة .. ألا يزال يحبها؟ .. أغلب الظن لا .. دعك من هذه الميوعة .. الإجابة بنعم

أم لا .. أستطيع القول : بالتأكيد لا .. بل إنه يشك في قدرته على الحب مرة أخرى .. ليس لأنها الحب المفقود ولن تتكرر، بل أن المرأة بطبيعتها غادرة جاحدة متقلبة العواطف .. كانت نادية قطة مغمَّضة .. غريبة و وحيدة في مدينة لا تعرفها .. يترصدها الذئاب في الكلية وفي الشارع ، فتفتحت عيونها على يديه، واستمدت منه القوة لمواجهة رفض أهلها لاستكمال دراستها بعيداً عنهم ، رافضة العمل بالدبلوم الفني هناك لمساعدة والدها الموظف الصغير على تربية إخوتها وتعليمهم كما علمها، فعاقبها بمنع مصروفات الدراسة والإقامة عنها لإرغامها على العودة ، فتحمل شوقي المسئولية كاملة، صار هو الأب والأم والأخ والحبيب ، ولم يشأ أن يتزوجا بدون موافقة أهلها فسافر إليهم طالباً يدها ، وقد وثقوا فيه فباركوا زواجهما حتى قبل أن تتخرج من الجامعة، وبعد تخرجها ساعدها للحصول على وظيفة محترمة ... «هل بنينا إذاً بيتاً فوق الرمال .. لتقول بهذه البساطة : فليذهب كل منا لحاله ؟! وهل تبرر ذلك أية خلافات زوجية معتادة تحدث بين أي زوجين جديدين حتى ولو بلغت حد العاصفة أحياناً ؟ .. ولم يشفع لاستمرار العلاقة ميلاد نسمة ونموها بين أحضانهما حتى ترعرعت وملأت البيت الصغير بشقاوتها.. لكنها لم تحاول، كما لم تحاول من قبل احتواء غضب والدها عليها عند قرارها السفر إلى القاهرة والعيش فيها بمفردها ، مع أنه كان بإمكانها كسب موافقته بالتدريج، حفاظاً على رباط الأسرة ، بدلا من إعلان التحدي وفرض الأمر الواقع بالسفر إلى القاهرة من وراء ظهورهم ولو أدى ذلك إلى القطيعة والدمار .. ومع ذلك فإن والدها لم يتخل عنها حين تعرضت لأزمة مالية خاصة فترة اعتقاله ، لكنها لم تغفر له اعتراض طريقها يوماً ، وهو نفس موقفها من أهلك بعد ذلك أيضاً، فلم تنس لهم أنهم اعترضوا على هذا الزواج في البداية، حتى ولو حاولوا بعد إتمامه التقرب إليها ، وبذلك أغلقت باب بيتها في وجههم، وباب التواصل بينك وبينهم .. »

« لا ! »

قالها بيقين هذه المرة .. « لا ثقة في امرأة بعد الآن !.. لقد نجحت حقيقة في أن تجعلني محصناً بلقاح قوي ضد أي تفكير في الزواج ثانية . »

انبثق من أعماقه صوت ساخر : « أأنت قادر حقا على ذلك ؟ .. ألا تشعر باحتياج دائم إلى وجود المرأة في حياتك ؟ .. إنك في الحقيقة تكابر، فلو استطاع كل الناس احتمال الحياة بدون امرأة ، فإن الفنان تحديداً لا يستطيع، ليس لأنها ملهمته كما يقال ، بل لأنها ضلعه الذي لا يكتمل إلا به ، بم تفسر شعورك الدائم بالافتقاد المُلِحّ لشيء ينقصك؟ ، وكأن هناك تجويفاً عميقاً في صدرك اقتُلِع منه شيء ما فراح ينبح لاسترجاعه .. أهذا بيت الداء أم بيت الروح التي تظل تبحث عن وليف ؟ فإذا لم تجده ذَوَت وانكمشت في برودة الصقيع، أو هامت علي وجهها تتلمس الدفء بمن يملأ تجويفك الصدري!

أتكون فريدة هي ذلك الوليف؟ .. إنك لا تدري إلى أي عالم هي تنتمي .. إلى عالمك المليء بالأحلام لك ولبلدك والإنسانية .. أم إلى عالم خالد الغندور المليء بالانتهازية والأنانية والخيانة ؟ .. ألا تستطيع أن ترى أنها مريضة بهذا الانقسام المضنى بينكما؟ .. لكن كيف اختارت « الأول » وهو يحمل عكس صفاتها وهربت من « الثاني » حين أحست بضعفها أمامه ؟ .. أواثق أنت أنها اختارته؟ .. أم أنه الذي اختارها ونصب شباك الصياد حولها ، مستعينا بنجوميته ووعوده لها بتحقيق طموحها ككاتبة ، بالسعي لنشر إنتاجها كما ذكرت لك مرة ؟ .. ألا ينُم ذلك – لو صدق – عن أن داء الانتهازية مزروع فيها ؟ .. وماذا يمنع أن تبيعك عندما يلوح أمامها شخص أكثر قدرة على تحقيق ما تبتغيه ؟ .. لقد قلت حالاً « إذا صدق ذلك » .. فما أدراك أين الحقيقة ! .. إنك ستظل محكوماً بعقدة نادية ، ومن ثم ستظل أحكامك موتورة بجرحك الشخصي .. فمن عَلَّمك أن الإنسان مثل كل الكائنات الثديية يُعرف كل أفراده « بالنوع » ؟ ، فيما يُعرف الإنسان بالفرد ويوصف بالتفرد ، هل طباعك نسخة من طباع أختيك وقد جئتما من نفس البطن وتربيتما على يدي نفس الأبوين ؟ »

هز راسه مسلّما بعجزه عن الوصول إلى يقين ، راح يزرُع أرض القاعة ذهاباً وجيئة ، تماماً مثل الحوار الدائر برأسه .. شعر بحاجته إلى إنسان آخر يخرجه من ضيقه وحيرته بالحديث في أي موضوع آخر .. أكمل شرب ما تبقى في كوب الشاي وقام خارجاً من المرسم .

(٨)

في الممر الخارجي المطل على النافورة ، لمح زميله النحات الكهل مصطفى مسعود ، حيَّاه عن بعد قبل أن ينزل بقية درجات السلم في طريقه إلى مرسم محمود اللبان . ناداه النحات بصوت مرتفع :

– هل تستطيع أن تأتي قليلاً ؟ .. أريدك في أمر مهم .

أكمل السير في الممر باتجاهه، كان أكثر الزملاء انتظاما في الحضور وغزارة في الانتاج ، بعد حصوله على منحة التفرغ للفن ، وكان يعمل أصلا بوزارة الثقافة ، اعتاد سماع حكاياته عن قصص الفنانين ومقالبهم وطرائفهم من خلال علاقاته بهم منذ شبابه المبكر ، ولم يستشعر يوماً أية نوايا سيئة من جانبه تجاههم ، بل كان يبدو صافي القلب ، ولأنه بعيد عن أي شلة فقد بات عابراً للتصنيف مع أي تكتل ، لحرصه على رضاء الجميع عنه بقبولهم على علاَّتهم . يبدو التناقض جلياً بين شَعره المهوَّش ناصع البياض رغم أنه لم يبلغ الخامسة والخمسين أغلب الظن ، وبين وجهه الأسمر بملامح طفولية لم تعرف التجاعيد.

سلم عليه مصطفى بحرارة وهو يشد على يده بقبضة نحات قوي وهو يقول :

– كنت قادماً إليك في المرسم لولا أني علمت بأن عندك ضيوفاً ..

ثم مال عليه وقال مخفضاً من صوته إلى درجة الهمس رغم عدم وجود أحد غيرهما:

– أحببت أن أنبهك إلى أمور في الخفاء بشأن وجودك هنا .

– في الخفاء ؟ .. وعن وجودي هنا ؟! ٠٠ أفزعتني يا رجل !

توقع أن يحدثه بشأن تردد فريدة على مرسمه ، تحفز للرد عليه بما يُلزِمه حده ..

– لا أريدك أن تفزع ، بل أن تأخذ حذرك .

– من أي شيء ؟

– أنت تعرف أنني أحبك وأقدر حماسك لإدخال النشاط الثقافي بالقصر ، وسعيك لإصدار لائحة جديدة لتنظيم المراسم .. إنك تذكرني بشبابي .

– شكراً يا أستاذنا .. من أي شيء تحذرني إذن ؟

- فقط عِدني بألا يعلم أحد بأنني من أخبرتك به .
- إطمئن لذلك .. هذا وعد .
- شوف يا سيدي .. أنا كنت اليوم بهيئة الفنون لشأن خاص ، فسمعت عن شكوى مقدمة ضدك إلى رئيس الهيئة بأنك تعقد اجتماعات سرية في مرسمك يحضرها سياسيون وصحفيون وأدباء ، وتتحدثون في أمور تتعارض مع سياسة الدولة ، لكنني أذكِّرك بوعدك بعدم إدخال اسمى في الموضوع .
- مفهوم طبعاً .. لكن هل عرفت من هو مقدم الشكوى ؟
- ليس مهما أن تعرف من هو ، بل المهم أن تأخذ حذرك وتفوّت عليه الفرصة.
- عموماً أنا أعرفه ، حتى لو كانت الشكوى مقدمة باسم وهمي : أتحب أن أُخبرك به ؟
- من ؟
- مرسي الحسيني .

تجنب مصطفى النظر في عينيه وقال بلهجة غير قاطعة :

- مرسي أذكى من أن يرسلها باسمه .
- وكيف يحققون في شكوى باسم وهمي ؟ .. إنه بلاغ كيدي لا يُعتد به ولا تجوز إحالته للشئون القانونية .

ضحك مصطفى بمزيج من الإشفاق والسخرية :

- يا رجل يا طيب .. هل تظن أنهم سيفعلون ذلك ؟
- إذن ماذا سيفعلون ؟
- سيرسلونها بالطبع إلى أجهزة المباحث ، وستكون قضية أمن دولة .. وأنت لست ناقصاً هما جديداً ، فلك ملف سابق عندهم ، وزبون في سجونهم أيضاً !

علا صوته في غضب :

- مخبر حقير ! .. وليس هذا غريباً عليه .. تاريخه مليء بالمؤامرات والزُّنب ضد زملائه ، يحلم بالحصول على منصب مدير عام المعارض ، حتى يخلو

لـه الجـو فيضـم إدارة المراسـم إليـه ويلغـي مشـروع اللائحـة الجديـدة ، ويـأتي بمحاسِبِه ، بينما ترى الفنانين الجادين لا يجدون شبراً ينتجون فيه ، أليس هذا هو المخطط ؟

- لكن المذكرة أو الشكوى تشير إلى إنك تريد أن تجعل من القصر بؤرة للنشاط السياسي بحجة النشاط الثقافي . وقد وضع رئيس الهيئة خطاً أحمر تحت كلمة « بؤرة » .. ولك أن تكمل الباقي !
- ماذا يكون الباقي غير إقامة معارض وندوات وعروض أفلام عن الفنانين .. أيكون كل هذا نشاطاً سرياً ؟ .. وكل هذا مكتوب في مذكرتي إلى الهيئة عن المشروع .
- ربما كان يرمى إلى أن هذا النشاط العلني واجهة لاجتماعات سرية أخرى .
- حقارة ! .
- شوف يا شوقي .. أنا عملت واجبى وحذرتك وأنت حر .. اللهم قد بلغت .. !
- أشكرك طبعاً يا أستاذي .. لكنني أردت فقط أن تعرف الحقيقة من وراء بلاغه.
- يا إبني .. الذي يجب أن يعرف هذا ليس أنا .. بل هم في الأجهزة إياها .. ولكي يعرفوها لابد أولا أن يستضيفوك عندهم عدة شهور حتى تثبت أنك بريء .. ألا تتعلم الدرس ؟ !

خيم الصمت المكهرب فترة ، وخواطر شوقي تتزاحم في اضطراب محموم .. واصل مصطفى في حنان أخوي :

- أنت فنان ممتاز – والباب مفتوح أمامك لتأخذ وضعك في الحركة الفنية .. ووظيفتك هنا في حد ذاتها أقرب إلى منحة تفرغ للفن ، فليس هناك من يسألك متى جئت أو متى ذهبت .. أنت رئيس نفسك .. هذه فرصة لا يحلم بها أحد.

تنقل بصره بين التماثيل التي يزدحم بها المرسم .. إن بينه وبينها علاقة مودة .. كم تحدث عنها مع مبدعها ، لأنها مليئة بالتعاطف الإنساني مع شخصياته من الكادحين والبسطاء والباعة الجائلين وكنَّاسي الشوارع ، وحاملات صفائح الماء من

حنفية الحي ، وفتيات فقيرات بالملاية اللف ، وفران يسحب الخبز بخطافه الطويل من الفرن .. عالم من الرضا بالمقسوم حتى ولو كان ظالماً .. ومن التصالح مع الواقع ولو كان خالياً من العدل ؟ .. أهم وليدو شخصية مبدعهم النحات؟ .. إذن فما جدوى استمرار هذا الجدل معه ؟ .. يكفيك أنه شريف ومحترم وصادق معك ، حتى لو اكتفى بتقديم نصيحة إليك تقول « إبعد عن الشر وغني له ! »

شكره وقام للانصراف وهو لا يكاد يسمع كلمات جبر الخاطر على لسان هذا الرجل الطيب ، ومضى متجها إلى مرسم محمود اللبان .. كان بحاجة شديدة للفضفضة له ، فهو أكثر من يشعر بالارتياح إليه في هذا القصر حتى ولو بقى أغلب الوقت صامتا ، أو تاركا لتيار الحديث المضيَّ على عواهنه بغير حذلقة مثقفين ، فإذا تكلم خرجت الكلمات من قلبه إلى لسانه بتلقائية وكأنه يحادث نفسه ، دون أن يكف لحظة أثناء حديثه عن العمل وهو لا ينظر إلى محدثه ، وكأن يديه تعملان استجابة لتيار متصل مباشرة بوجدانه ولا رقابة للعقل عليه .. إنه روح البراءة المكتفية بذاتها وبما تعمل ، لا تنتظر من وراء عملها أي عائد ..

وجد مرسمه الصغير المطل على الفسقية مغلقاً فأصابه انقباض ضاعف همه، ومضى في طريقه إلى خارج القصر لا يلوي على شيء .

(٩)

حل المساء ، وليست لديه رغبة في الذهاب إلى البيت . وقف على رصيف محطة الأتوبيس في ميدان الحسين غير قادر على أن يقرر أين يذهب . هذا الحجر الرازح على صدره ألقاه فوقه مصطفى مسعود ، فجعل رأسه كطاحونة تدور بغير طحين .

السؤال يكبر وتتوالد منه أسئلة عديدة بغير إجابات : هل أحال رئيس الهيئة الشكوى المقدمة ضده إلى أجهزة الأمن ؟ .. لو تم ذلك فهل سيستدعونه في « لاظوغلي » للسؤال أمام أحد ضباط المباحث أم سيأخذونه مباشرة « بالبوكس »

الأزرق من البيت إلى ليمان طره ؟ .. أيتم ذلك الليلة أم عند الفجر كالمعتاد ؟ .. إذن ماذا عليه أن يفعل الآن ؟.. أينتظرهم كالدجاجة في العشة .. أم يغيب عن البيت خلال الأيام القادمة ؟ .. وإلى متى ؟ .. وأين يقيم ؟ .. طيب وعمله في المسافرخانة .. هل سينقطع عنه أيضا ؟ .. وماذا يجدى ذلك لو فعل ، فلن يعجزوا عن الوصول إليه في أي مكان لو أرادوا .. لكن لابد أولا من التأكد مما أبلغه به مصطفى مسعود، معناه أن يذهب في الصباح إلى الهيئة ، وهناك يذهب إلى الأستاذ خليل مدير الأرشيف ليسمح له بالاطلاع على الشكوى وتأشيرة الريَّس عليها ، فهل سيتيح له عم خليل الفرصة للاطلاع عليها ؟ .. أغلب الظن أنه سيرفض جُبناً . لمن يذهب إذن؟.. نعم .. إلى حسنى .. هو لا غيره .. كان السكرتير في المسافرخانة قبل أن ينقل إلى الشئون الإدارية بالهيئة ، ليس لديه تليفون بمنزله ليطلب منه ذلك حتى يبلغه بالنتيجة غداً .. أيذهب إليه في مقر عمله بالهيئة صباحاً ؟.. هذا ممكن .. ولكن حسنى شخص حريص للغاية على أن ينأي بنفسه عن أية مشاكل ، مما دفعه لطلب النقل من المسافرخانة إلى الهيئة عندما تم القبض على رئيسه آخر مرة . هل يطلب من السكرتير الحالي « محروس » القيام بهذه المهمة بصفته موظفاً بالقصر ؟ .. لا أظن.. كان هذا ممكناً في الظروف العادية ، أما اليوم فلن يمسحوا له بالاطلاع على شكوى من المؤكد أن عليها تأشيرة من رئيس الهيئة بكلمتَيْ (سري جدا).

لمعت في ذهنه فكرة .. لماذا لا يذهب بنفسه إلى مكتب الريّس ويطلب مقابلته ؟ .. إنه آخر مكان تتوقع المباحث أن يذهب إليه ، وربما وجد فرصة لتدارك الموقف بتوضيح الحقيقة له قبل إرسال الشكوى إلى الأجهزة الأمنية .. « لكن أتظن أنه سيوافق على مقابلتك ؟.. إن ذلك يتوقف على مدى حرصه على معرفة الحقيقة بالاستماع إلى دفاع المتهم قبل تقرير مصيره .. أتظن أن لديه مثل هذا الحرص ؟ .. لا أظن ».

توقف أمامه أتوبيس ٦٦ الذاهب إلى ميدان باب اللوق . وجد نفسه يقفز بداخله ويزاحم الواقفين عند الباب للدخول . خطر له أن يذهب إلى أتيليه القاهرة ،

رأي في ذلك فرصة للالتقاء بأحد أصدقائه الذين يثق فيهم فيستشيره فيما ينبغي أن يفعل في هذه الورطة .

تنبَّه إلى أن هاجس القبض عليه أصبح في ذهنه حقيقة مؤكدة ، أو احتمالا وحيداً ، ألا يمكن أن يكون الأمر أبسط من ذلك ؟.. نعم .. إنه لا يذكر أنه سبق القبض على أحد المثقفين يوماً كحالة فردية ، بل جرت العادة على أن تكون هناك حملة اعتقال جماعية صبيحة حدث سياسي معلوم ، مثل اندلاع مظاهرات الطلبة ، كما حدث معه في « الحبسة » السابقة منذ أقل من عامين ، أو ادعاء وجود تنظيم سري تُوجه إلى اصحابه تهمة القيام بمحاولة قلب النظام أو تكدير الأمن العام كما حدث مراراً ، فيما لا توجد في الفترة الحالية مثل هذه أو تلك من الأحداث .

أحس بارتياح إلى هذه الفكرة المنطقية ، فاستعاد بعض الاطمئنان ، ورجَّح أن الأمر سيقتصر على مجرد « قرصة أذن صغيرة » عند استدعائه لمقابلة أحد ضباط مباحث أمن الدولة في وزارة الداخلية بمبنى لاظوغلي.

ومع ذلك .. فحين نزل في آخر خط الأتوبيس في باب اللوق قرب وزارة الأوقاف ، تعمد البقاء حتى انصرف جميع من كانوا بداخله من الركاب ، وهو يتلفت حوله خشية أن يكون أحد المخبرين خلفه متتبعاً خطواته ، وعندما لم يجد أحداً اتخذ طريقه إلى شارع طلعت حرب ، ليعرِّج منه إلى مقر الأتيليه ، ومن حين لآخر يلتفت خلفه ليتأكد من عدم وجود أحدهم في إثره ولو من بعيد ، فوق هذا الرصيف أو ذاك، إنه يعرف هذا الصنف جيداً ، بحركاتهم المكشوفة مثل الانشغال بالفرجة على فتارين المحلات ، او تمثيل الانهماك في قراءة جريدة ، لكن يبدو أن الأمر لا يزال مبكراً قبل بدء هذه المطاردات .

لدى دخوله مبنى الأتيليه بشارع كريم الدولة ، تعمد اتخاذ مظهر على عكس حالته النفسية ، فراح يحيّي كل من يعرفه بحفاوة ، ورأى مجموعات الرواد المعتادة في الأركان خافتة الإضاءة أو في الحديقة والفناء الخلفي للندوات ؛ كل مجموعة تشتبك في حديث صاخب أو هادئ ، أو تستمع إلى قصيدة أحد الشعراء، ولم يجد

في نفسه رغبة للانضمام إلى إحداها ، وفجأة سمع من ينادي عليه .. كان صديقه القديم محمد جاد الرب ، الذي قام من مجلسه مسرعاً إليه بالأحضان قائلاً :

- أنت ابن حلال مصفيٍّ ! .. كنت سأجي إليك غداً في المسافرخانة.
- يا مرحب .. لكنني لن أكون هناك غداً .. لدي مشوار في الهيئة .
- طيب تعال معي .. أريدك في أمر خطير جداً (مشدداً على كلمة جداً)

كان كما عهده دائماً أيام شقة العجوزة أوائل الستينيات ، وكأن الزمن تخطاه فلم يغمره بظلاله ؛ نفس الوجه شديد السمرة منحوت التقاطيع بارز العينين ، بشعره الكثيف الخشن فوق جبهة ضيقة ، حتى أن وجهه أقرب إلى الملامح الأفريقية ، مع صوته الجهوري العريض من طبقة التينور ، وكأنه يؤدي دوراً في أوبرا عايدة لكن بدون غناء .

اتجه معه إلى مائدة منزوية في أقصى طرف الحديقة بعيداً عن المجموعات المتحلقة بالداخل ، وأشار بيده إلى كرسي القهاوي المصنوع من القش بأداء مسرحي قائلاً بلهجة خطابية :

- إجلس يا صديقي الدون الهادي .

كان هذا هو الاسم الذي اختار أن يناديه به منذ أن كان طالباً بكلية الفنون الجميلة ، ويقيم بالقرب من شقته الجماعية بالدور الأرضي في نفس الشارع بحي العجوزة ، وكان يطلق عليها « المستعمرة » لازدحامها بسكانها وبالمترددين عليها من الكتاب والشعراء والفنانين ، واختار له هذا الاسم من وحي رواية « نهر الدون الهادئ » الشهيرة للأديب شولوخوف. هو الوحيد من سكان « المستعمرة » الدائمين الذي لم يكن طالبًا بكلية الفنون، والوحيد أيضًا الذي يعمل في وظيفة إدارية صغيرة بوزارة التموين، وجمعه بهم شغفه الشديد بالفن والأدب والثقافة والسياسة، وكان أسبق أهل الأدب منهم لإصدار مجموعة قصصية من تأليفه، وأكثرهم طيبة وكرمًا ومزاحًا صافيًا، ما أهلّه ليكون « عمدة مستعمرة العجوزة » بلا منازع.

- شوف يا صديقي ..

وأخرج من حافظته مظروفًا كبيرًا أصفر منتفخًا بالأوراق، قائلاً بصوته الأوبرالي الفخم:

- هذه هي الوصايا السبع لمحمد جاد الرب، كنت سأحملها إليك غدًا، فما دمت لن تذهب فلتأخذها معك الآن، وأريد أن أذكّرك كذلك بالمشروع الذي اتفقنا عليه حول اصدار مجلة شهرية وإقامة ندوة في المسافرخانة عن شمبليون، وستجد بالمظروف رسالة حول ذلك.

تصفح شوقي بسرعة مواد الملف الضخم، إنها مكتوبة بنفس خطة المميز الذي يعرفه الجميع، بحروفه بالغة الضخامة والفخامة كصوته وأدائه .. إنه لا يكتب بِسنّ القلم، بل بِسنّ محراث، يغور في الأرض فيقلّب سافلها عاليها بخبرة الفلاح الأصيل، ويمكن ملاحظة تأثير ذلك عند تحسس الأوراق المكتوبة بالقلم الجاف من الخلف ، فسترى الحروف محفورة بعنف حتى تكاد الورقة تتمزق، لكنه يحاول التخفيف من هذه الحدة باستخدام أقلام الفلوماستر الملونة في كتابة العناوين وبعض الفقرات بتنويع جرافيكي: فالسطور باللون الأزرق، والعناوين كاليفط العريضة باللونين الأحمر والأخضر. خطفت بصره من بينها عدة عناوين مثل « أوراق رئيس الحياة » ، « صلوات الاستسقاء » ، « القِبلة الأولى » ، « الطريق نحو الوحدة الحقيقية » ، « البحث عن أبجدية غير عربية » ، « وصايا جاد الرب السبع » ، قال له بترحيب:

- حاضر .. سأقرأها هذا الأسبوع وأعيدها إليك.
- لا يا صديقي لن تعيدها .. إنك ستحتفظ بها سراً كأمانة تاريخية، بشرط ان تضعها في خزانة مرسمك بالمسافرخانة .. هذا مكانها الذي يليق بها .. وأنت هو الشخص الوحيد الذي تليق به هذه الأمانة.

كان شوقي على وشك الاعتذار؛ فالمسافرخانة اليوم هي آخر مكان في العالم – وكذلك هو شخصيًا– اللذان يمكنهما تحمّل تلك المسئولية. كاد أن يخبره بأنه مهدد بالاعتقال في أية لحظة، وأن قصر المسافرخانة مستهدف للتفتيش من قِبَل أجهزة الأمن، لكن لسانه عجز عن النطق .. « كيف أقولها لمن كنا نعتبره أخانا الأكبر أو أبانا الروحي في المستعمرة؟! .. ابن قاع المدينة الذي كان يعلن اعتزازه بأنه ابن

رجل معدم نجح في أن يجعل منه «أفندي متعلم»، لكن هذا الأبن أصبح الماسح على القلوب الحزينة بلمسات التسامح والمحبة، وكاتم أسرارنا وقصص حبنا ونقاط ضعفنا، وبات ضمير جيلنا وحامل المسئولية عنا في تكملة الأيام الأخيرة من الشهر بشراء أرغفة الخبز وأكياس السكر والشاي، ودفع إيجار الشقة أحيانًا من مرتبه الهزيل حين تفرغ جميع الجيوب، كان هو الضامن لتوفير الفرشة واللقمة والهدمة لكل من تحمله إلينا الأقاليم النائية – من النوبة وأقاصي الصعيد حتى الاسكندرية والمنزلة – من شعراء يبحثون – لمواهبهم الفائرة عن بيت يستضيفهم ويدٍ تحنو عليهم في المدينة المتوحشة، وكذلك للمناضلين المفرج عنهم بعد حبس طال أو قَصُر، فتكون شقة العجوزة أول محطة ينزلون فيها كمكان يأويهم حتى يجدوا مستقرا أو مصدر رزق، لكن أحدًا من كل هؤلاء لم يسأل عن أحواله بعد أن غادر القاهرة إلى بلده في المنوفية، وبعد أن أصبح أغلبهم نجومًا لامعة في الرسم والنقد والشعر والغناء والصحافة والتلفزيون، ومع ذلك ظل هو من يسأل عنهم ويتابع أخبارهم فخورًا بنجاحهم افتخار الأخ الأكبر .. دون شكوى منهم أو مَنٍّ عليهم.. »

– ماشي يا عم جاد .. أدع لي أن تجدني خارج السجن بعد أسبوع لأقول لك رأيي.

يبدو أنه أخذ الكلمة على محمل المزاح وقهقة قائلاً:

– ولا يهمك .. وراك رجالة!

جاراه في مزاحه قائلاً:

– أرجو أن تكون افتكرتني بنصيب من الميراث في وصاياك!

وارتفعت قهقهاتهما فطغت على ضجيج المثقفين في الأتيليه.

(١٠)

جفا النوم عينَيْ شوقي. أضاء النور وقام يبحث عن شيء يقرأه، جذب بصره المظروف الأصفر لمحمد جاد فوق المكتب. على الصفحة الأولى عنوان كبير بقلم

فلوماستر أحمر غليظ: أوراق رئيس الحياة، تحته عنوان فرعي بلون أخضر: استقالة رئيس الحزب الحاكم. تلقي صدمة جعلته يعتدل ويفيق تمامًا بكامل يقظته. الموضوع « خطير جدًا » كما قال له عندما التقيا هذا المساء. يبدو أننا مقبلون على كارثة !! .. وبالرغم من شعوره بالزهو لما كتبه على رأس الرسالة الموجهة إليه بخط أحمر: « إلى نهر الدون الهادئ » ، فقط أحس بالقلق من موضوع المقال، إذ يبدو كمنشور للمعارضة السياسية، تحمس لقراءة الرسالة الموجهة إليه قبل المقال الأول:

« عزيزي شوقي .. نهر الدون الهادئ » .

تحياتي:

يجب أن نتحرك فورًا لدعوة الدكتور عبد العزيز للتحدث كمحاضر عن (شمبليون) حسب اتفاقنا السابق. وفي نفس الوقت يجب البحث في الوسائل الكيفية بإصدار مجلة شهرية بأسلوب (الماستر) تحمل اسم (شمبيليون) وترأس أنت تحريرها، وهي مشروع لن يكلف بضع مئات من الجنيهات يمكن جمعها بسهولة، والمهم البدء بالإعداد للندوة أو المحاضرة والاتصال بالدكتور عبد العزيز أولًا، فإذا لم يتيسر نبحث عن غيره. وتقبل تحياتي وإلى اللقاء بعد أيام. « محمد جاد الرب »

قلب الصفحة إلى المقالة الأولى بعنوان: « استقالة رئيس الحزب الحاكم » . ابتسم متخيلًا ماذا لو وقعت هذه الرسالة وحدها في أيدي أجهزة المباحث. إنها قضية جاهزة أدخُل بها السجن من أوسع الأبواب وتُشرِّف سيادتك معي (يابو حميد) من أول يوم! .. فهي دليل مادي على الاتهام الموجه إليَّ في الشكوى التي أبلغني بها مصطفى مسعود .. إنها مبرر كافٍ لاعتبارنا تنظيمًا لقلب نظام الحكم، ونحن قادته وهذه منشوراته، وموضوعات الندوة والمجلة ما هي إلا رموز كوديّة لموضوعات سياسية!.

فلنقرأ المنشور الأول في القضية ..

« في الراية العربية الواحدة خَمس دوائر يجب على كل دولة أن تضع فيها خمسة رموز تؤكد حضارتها الخاصة الذاتية .. ولسوف تثار قضية رئيس الدولة هنا أو

هناك، وهل هو قادر أو كفء للزعامة التي تؤهله كي يصبح أحد الرموز الخمسة لدولته؟ ولنقترب أكثر من الموضوع فنثير السؤال التالي؛ بالنسبة للراية العربية المصرية .. هل تصلح شخصية رئيسنا الحالي لاحتلال أحد المواقع الخمسة في الراية إلى جوار أبو الهول أو السد العالي أو جمال عبد الناصر أو رفاعة الطهطاوي مثلًا إذا استقرت هذه الأسماء بعد حوار سياسي وحضاري رشيد؟ ..

أنا شخصيًا أنتخب رئيسنا للراية العربية المصرية، وأنتخب القذافي للراية العربية الليبية، كما أنتخب صدام حسين للراية العربية العراقية، وحافظ الأسد للراية العربية السورية. والملاحظ أن كل رئيس دولة لا يتحمس لأي مشروع إلا إذا وضعنا صورته أولًا فوق حجر الأساس واسمه أيضًا .. وذلك حقه الطبيعي .. وأعتقد أن فكرة الراية العربية الواحدة سوف تتحول إلى نوع من الثورة على الفن التشكيلي.

ولكي يصور المصريون وجه رئيسهم فوق رايتهم بحب شديد يمنح الصورة الحياة فلا تتحول إلى مجرد بقعة لون .. يجب عليه أن يقفز بالديمقراطية القفزة الناجحة التي تحمي اسمه وصورته في الشارع السياسي العربي – كيف؟

أولًا: بالاستقالة من الحزب الحاكم .. فوجوده على رأس هذا الحزب يمنح الشرطة الضوء الأخضر لتزوير الانتخابات، فتكون النتيجة أن حزب الموظفين هذا يكتسح الملعب كله، برغم أن الواقع – وفي حالة نزاهة الانتخابات – يشير إلى أن أصوات هذا الحزب في مصر تقل عن ٢٠% من الاصوات الصحيحة، لقد خلق النظام المصري إطاراً عظيمًا للرجل السياسي، وجاء الرئيس الحالي فارتدى ثوب من سبقه، وعليه أن يتحمل عاقبة ارتدائه، فإذا كان يترأس حزب الانفتاح والصفقات كي يضمن من خلاله تجديد مدة الرئاسة فهو مخطئ، فالشعب المصري يكره الحزب الحاكم، ولو استقال الرئيس من رئاسته فسوف تنضم الجماهير إليه بشكل فعال يحوله من رئيس إلى زعيم حقيقي لا يهتم بالمقعد ولكن يتواضع للاعتراف بالواقع .. إن هناك درجة خطيرة من التعادل في توجهات الرئيس وسلوكه السياسي، قد تؤدي في المستقبل إلى خراب الدولة وانهيار النظام المصري .. ذلك النظام الذي كان أبويًا في عهد عبد الناصر، فصار قَبليا في عصر السادات .. وخطورة ذلك أنه لا يلهم

الجماهير روح المشاركة الوثابة، فتكون النتيجة ضياع قمة الهرم السياسي، وفشل كلوي يقذف بالشعب إلى الشتات.. فالفوضى العارمة.

إن عبقرية عبد الناصر لا تتكرر .. على مستوى الفكر : فتح عبدالناصر جبهة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي حاول إغلاقها أنور السادات .

إنني أقترح اعتماد صورة الرئيس كأحد رموز المصريين الخمسة في الراية العربية الواحدة ، وفي نفس الوقت أقترح عليه أن يتحرك نحو الغد حركة رشيقة ، وتلك الحركة تتلخص في انحيازه للفقراء وليس ضد الأغنياء ، وذلك بخروجه من قيادة الحزب الحاكم ، فإذا أصر سيادته على عضوية تلك العصابة الحمقاء التي تجمع قطاع الطريق السياسي وتجار الانفتاح ، فيجب علينا حرمانه من التمتع بمركز الرمز الحضاري المصري في الراية العربية المصرية .

وبنفس الأسلوب أطالب المثقف العراقي والمثقف الليبي .. إذ يجب على صدام حسين أن يتنازل عن عضوية اللجان الشعبية ، ويجب على حافظ الأسد ما يجب على الجميع .. حتى تتضح الصورة ويبني العرب الديمقراطية الحقيقية في مواجهة الغول الاسرائيلي والغربي .

إننا في عالم شديد البلادة .. عالم الحرب الميكروبية والنووية ، ومالم نتحرك نحن العرب نحو احتلال مقعد الأستاذ في قاعة الدراسة التي تسيطر عليها اسرائيل في غوغائية شديدة ، فسوف تفقد مصر سيناء مرة ثانية ، بل قد تفقد حتى طنطا والاسكندرية وأسوان أيضاً ، لأن اليهود لن يرحموا ضعفنا وقصورنا الاستراتيجي .. ورغم إعجابي بسيادة الرئيس ، فإنني أكرر النداء إلى قائد لم يحتل بعد مقعد الزعيم في نفوسنا ، أكرر أنه يجب عليه الاستقالة من حزب يجمع كل الأفاقين وقطاع الطريق الديمقراطي ، وإلا فلننشئ الراية العربية المصرية بدون رئيس مصر ، الذي سوف يأفل ويضيع في الزحام بمجرد التحرك .

إنني كأديب أرفض العمل موظفاً في الدولة ، لأنني أمتلك عقلي ولا أبيعه لأي دولة مهما كانت ، لأنني مسئول عن شعبي وأمتي . وحينما أنصح الرئيس بالاستقالة من الحزب فإنني في الواقع أمنحه نتيجة استفتاء شعبي كبير نهضتُ به

ونهضَتْ به صحف المعارضة ، فإذا بدا للرئيس أنني أكذب عليه فليفتح الطريق نحو استفتاء شعبي حرّ وكريم حول القضية ، أي فليسأل الجمهور المصري ، ولسوف تكشف له النتيجة عن صدق ما أقول ، لأن « مافيا» الحزب تقذف بالشعب في أتون الغلاء والإرهاب والفساد ، وفي نفس الوقت تستخدم ختم الرئيس .. فلماذا ؟

القضية واضحة لا تحتاج إلى ثرثرة أو فهلوة ، وإنني لأدعو كل الصحف العربية في مصر وخارجها إلى فتح أبواب الاستفتاء حول الحزب الحاكم وأهمية وجود الرئيس على قمته .. » محمد جاد الرب

(١١)

- **أواخر سبتمبر ١٩٧٦:**

في الصباح اتخذ قراره – وهو لم يبرح فراشه بعد– بتغيير اتجاهه، ليذهب إلى المسافرخانة بدلاً من هيئة الفنون. كانت اوراق محمد جاد الرب التي قرأ بعضها ليلة أمس قد قلبت كل حساباته؛ إن بقاءها في البيت قد يهدد بكارثة، فإذا حدث ما يخشاه بمجيئهم للقبض عليه فسيكون مطلبهم الأول هو العثور على أية أدلة لإثبات الاتهام الموجه ضده، وها هي أوراق جاهزة لحَبْك القضية، بدءا من عقد اجتماعات لم تحصل على تصريح بإقامتها، حتى أسماء الأشخاص الذين سيشاركون فيها، وصولًا إلى خطة تنفيذها عبر برنامج للندوات ومجلة تطبع بالماستر، وإسمُك بتصدّر أوراق جاد الرب الموجهة إليك تحديدًا. ومقاله عبارة عن منشور تحريضي مباشر لإسقاط الرئيس عبر الدعوة إلى تخليه عن رئاسة الحزب الحاكم، مهما زعم فيه أنه لو استقال منه ستزيد شعبيته ويصبح زعيمًا في نظر الجماهير. لقد أعياه البحث عن مكان يُخفي فيه هذه الأوراق في الشقة، حتى أنه فكر في فتح حجرة نادية عن طريق فَنّي كوالين الأبواب ليدسها في أي درج أو دولاب، ثم استبعد الفكرة في الحال، لأنها ستجعل المصيبة الواحدة اثنتين بالزج بنادية في قضية أمن دولة هي بريئة منها، ومع ذلك استمر قلقه بالنسبة للحجرة، فسوف لا يصدقون لو أخبرهم بالسبب الحقيقي لإغلاقها، بل سيزيد ذلك شكَّهم في أنها مخبأ للمستندات التي يبحثون عنها،

فيقومون بكسر الباب وانتهاك محتويات الحجرة رأسًا على عقب، وهو سلوك معتاد يعرفه عنهم جيدًا من تجربتيه السابقتين، لكن تراجعه عن الفكرة لن يضمن عدم إقدامهم على تنفيذها .. فماذا يفعل؟

لكنه رأى أن الأمر الأساسي الآن هو البحث عن مكان آمن للأوراق، واهتدى في النهاية إلى أن أأمن مكان هو قصر المسافرخانة ذاته، في مكان خَفِي لا يخطر لهم على بال لو قاموا بتفتيش مرسمه، فهو جناح مهجور مخصص للحريم بالدور العلوي الذي اعترض على صعود فريدة إليه، وحتى لو صعدوا فإن الظلام الدامس والتراب الكثيف الذي يغطي الحجرات الخربة يبعد عنه العيون كونه مهجوراً منذ زمن بعيد. كان قد فكر في إعادة الأوراق إلى صديقه محمد جاد، ثم استبعد الفكرة لعدم معرفة عنوانه بالمنوفية، والأهم .. لحرصه على الاحتفاظ بها مهما كان الثمن.

أسرع بالخروج دون أن يتناول إفطاره كسبا للوقت، فهو في سباق معه، كان حريصًا على إنهاء الأمر قبل العاشرة صباحًا، حتى يذهب بعدها إلى هيئة الفنون حسب خطته بالأمس لمحاولة الاطلاع على الشكوى المقدمة ضده وعلى تأشيرة « الريّس » عليها، وقد يستجيب لطلب مقابلته ليوضح له حقيقة الأمر فيبطل مفعول الوشاية المسمومة.

هلَّل الحارس شعبان بمجرد دخوله من البوابة بالجهة التي يقيم فيها مع أسرته، ولمعت في حبات سبحته السوداء نقاط الفضة الدقيقة، واتسعت ابتسامته اللزجة كاشفة عن أسنانه الكبيرة المصفرّة من تحت شاربه الكث:

- مرحب يا سعادة البيه .

هي تحية الصباح اليومية التي كلما زادت زاد عدم ثقته فيما وراءها، إنه متأكد من قيامه بنقل أخبار كل من يأتي لزياراته إلى الفنان مرسي الحسيني، مع ما يصل إلى أذنه من معلومات، ويتكفل هذا بنقلها بدوره إلى الجهات المعنية، بدءًا من رئيس الهيئة حتى مباحث أمن الدولة، وكلاهما – شعبان ومرسي– يعرفان أن « الريّس » على صلة مباشرة بقصر الرئاسة لعلاقة قديمة بين مرسي والرئيس السادات، ما يجعل مرسي يتفانى في إرضائه أملًا في الحصول على الدرجة المالية التي يحلم

بالفوز بها والتعيين في منصب مدير عام المعارض والمتاحف، بالتجاوز للتدرج الوظيفي الذي يَحُول دون منحها له حاليًا، لكنه يبني طموحه على أن قدري بيه عثمان رئيس الهيئة نفسه قد تم تعيينه بدرجة نائب وزير بناء على قرار استثنائي من الرئيس السادات متخطيًا تدرجه الوظيفي بعدة درجات، وفاءً لصداقة قديمة كانت تربطه بشقيقه الأكبر في الأربعينات ، وزيّن ذلك لمرسي أن يكون هو عين قدري التي تكشف له ما يدور في إدارات الهيئة بل في دهاليز الوسط الفني كلها، فيوافيه بأخبار من يتناوله بسوء أو باعتراض – من الفنانين – على وجوده في هذا المنصب، حيث يراه كثيرون واسعًا عليه لعدم خبرته في الإدارة، واصطفائه شلة من المنتفعين يزداد نفوذهم مع الأيام، في الوقت الذي يترك شئون المتاحف والمعارض والخدمات الأخرى الضرورية للبيروقراطية وصغار الموظفين، وأصبح مرسي بالطبع أبرز هذه الشلة، رغم أنه منتدب للعمل بالهيئة من وزارة أخرى لا علاقة لها بالفنون، وسرعان ما حصل على منحه للتفرغ للفن من وزارة الثقافة، وأصبح على رأس الأسماء المرشحة دائمًا لاقتناء أعمالهم لمتحف الفن الحديث أو للاختيار قومسييرا للمعارض التي تمثل الفن المصري بالخارج، وكانت وسيلته للحصول على تحركات شوقي وغيره من الفنانين بالمسافرخانة هو الحارس شعبان، فينتقي منها ما يراه ذا أهمية للنقل إلى الريّس.

وفي الأسابيع الأخيرة تعرضت الهيئة لحملة هجوم شرسة استمرت لعدة أعداد بمجلة روز اليوسف، شارك فيها الناقد الفني مختار العطار، تناولت مختلف أوضاع الفساد في لجان المقتنيات وصيانة المتاحف الفنية، والشللية التي يعتمد عليها رئيس الهيئة، بل تعرضت لوقائع اختفاء بعض اللوحات من المتاحف أو إعارتها إلى جهات لم تردَّها منذ سنوات بعيدة. كما تعرضت لانتقائية إقامة المعارض لبعض الفنانين، ولعدم الشفافية في اختيار المرشحين للمعارض الدولية وخضوعها لأهواء اللجان التي تنفذ رغبات الريِّس .. وغير ذلك مما يتردد في جلسات الأتيليه والمقاهي، وقامت المجلة بإجراء التحقيقات الصحفية حول ذلك كله فشجعت الكثيرين على الإدلاء بانتقاداتهم.

ما أن دخل شوقي حجرة مكتبه بالدور الأرضي حتى بادره السكرتيرة محروس بقوله:

- صباح الخير يا أستاذ شوقي .. جاءت إشارة تليفونية منذ قليل من مكتب رئيس الهيئة لإبلاغك بأن سيادته يريدك أن تذهب لمقابلته فورًا.

وقف مذهولًا أمام المكتب، لا يستطيع الجلوس أو الوقوف. كان ذلك آخر ما يتوقع حدوثه. إذن بدأت المعركة ! سأل محروس :

- ألم تخبرك السكرتيرة فيم يريدني؟
- لا .. قالت فقط أن تذهب إلى هناك فور وصولك إلى القصر.

قال لنفسه: لا بأس .. لقد اختصر الطريق أمامي.

- طيب يا محروس .. سأصعد إلى المرسم لدقائق ثم أنزل للذهاب إلى الهيئة.

لحق به محروس عند الباب قائلًا بصوت هامس:

- عم شعبان كلمني لأتوسط عندك في ضمه إلى كشف الحوافز .. بماذا أرد عليه؟

تركه على عجل للصعود إلى المرسم قائلًا:

- سأخبرك حين أنزل.

وفيما كان يخطف درجات السلم، فكر في أن يلبي طلب الحارس شعبان، ليكون ذلك طرف خيط لاستقطابه بعيدًا عن مرسي ولو قليلًا. اتجه مباشرة من باب المرسم إلى جناح الحريم، حاملًا مظروف محمد جاد بعد أن وضعه في كيس بلاستيك وطواه حوله بإحكام، وبيده الأخرى كشاف الإضاءة الصغير. صعد إلى الحجرات العلوية بالداخل وهو يخوض وسط الأتربة المتراكمة وفضلات القطط والخفافيش.

اختار أحد دواليب الحائط في آخر حجرة ووضع المظروف بداخله ونثر فوقه بعض التربة الناعمة التي جمعها من الأرض، نفض يديه وعاد إلى المرسم ومنه إلى الحمام حيث غسل يديه. أحس أن عبئًا ثقيلاً انزاح عن صدره. خرج عائدًا إلى

المكتب بأسفل القصر. كان محروس واقفًا أمام الباب. أخبره أنه سيعود قبل الساعة الثانية بعد الظهر، فإذا تأخر عن ذلك فيمكنه الانصراف .. قال محروس هامسًا:

- طيب ماذا أقول لشعبان؟
- قل له ربنا يسهل .. وسوف أرى اليوم في الهيئة إذا كان البند يسمح .. وقبل أن يخرج استدرك قائلًا:
- لا تنس أن تطلب من عم يحيي أن ينظف المرسم .. ومعه المفتاح.

(١٢)

على عكس ما كان يتوقع استقبله قدري بيه بمكتبه الفاخر المطل على النيل بمودة. صافحه وأشار له بالجلوس. كان يتوقع أن يتركه بمكتب السكرتيرة ساعة على الأقل قبل أن يأذن له بالدخول كما يفعل مع العاملين في الهيئة، لكنه لم يمكث غير دقائق ريثما انتهى مدير مكتبه من عرض البريد الصباحي عليه، ثم أبلغ السكرتيرة نوال بدعوته للدخول .

ظل صامتًا وَجِلًا في مقعده، يتأمل زخارف الحفر الخشبي على المكتب هائل الحجم الذي يفصل بينهما. اختلس نظرة خاطفة إلى قدري بيه. كان مُنكبًا على صفحات مجلة أمامه، وصلعته العريضة تلتمع من جانبها الأيمن بأضواء الصباح القوية من جهة النيل، حيث تطل عليه حجرة المكتب من أعلى برج سراي النصر بأرض الجزيرة. قطع الصمت فجأة بصوته الغليظ بفخامة متكبرة مشيرًا إلى المجلة في يده:

- هل قرأت العدد الأخير من مجلة « روز اليوسف » ؟
- أفندم؟
- ألم تسمع؟
- سمعت سيادتك طبعًا .. لكنني فوجئت.
- فوجئت بماذا؟

- قصدي يعني.. أن سيادتك تهتم برأيي في المجلة.
- أنا لا أسألك عن رأيك فيها .. بل أسألك عن رأيك في مقال مختار العطار المنشور فيها.
- الحقيقة يا فندم أنا لم أقرأه.
- وما رأيك فيما يكتبه عمومًا؟
- أعتقد أنه ناقد محترم .. له تحليلات نقدية عميقة .. أظن أنه أهم ناقد الآن.
- ألم تقرأ شيئًا من سلسلة مقالاته التي يهاجم فيها الهيئة؟
- قرأت بعضها.
- وما رأيك فيما قرأته؟

شعر بالمطب الذي أوقع نفسه فيه باعترافه بقراءة الهجوم على سياسة الريّس. قال لنفسه: هذا وقت الامتحان .. حيث يكرم المرء أو يهان! .. طال صمته، فقطعه الريّس قائلًا:

- أهو سؤال صعب لهذه الدرجة؟ .. عمومًا فلستَ بحاجة للإجابة .. فقد أجبت بصمتك.

وتشاغل لحظات بتقليب صفحات المجلة ثم استأنف.

- ومع ذلك سأعطيك فرصة العمر.

انتبه إليه كالوتر المشدود، مُقلِّبا في رأسه بسرعة البرق كل التوقعات، ناظرًا إليه في ترقب. استمر قدري بيه وعيناه على المجلة بلا تركيز:

- ستكتب ردًا على مختار العطار تفند فيه ادعاءاته.

قال ذلك وكأنه يصدد قرارًا نافذا لا مجال لمناقشته. تفصد العرق من جبين شوقي رغم الجو المنعش القادم من صفحة النيل، مسح العرق بيده وحاول أن يتكلم..

- الحقيقة يا فندم ....

- أعرف ما ستقوله .. لا تستطيع أن تكتب شيئًا لست مقتنعًا به .. وهذا حقك.. لكنك لن تكتب رأيك الخاص .. احتفظ برأيك لنفسك .. لكنك ستكتب ما أقوله لك .. ولن تكون متناقضًا مع رأيك الخاص!
- كيف يا فندم؟ .... لست أفهم.
- ستُجري معي حوارا .. تلقي الأسئلة وأنا أجيب .. وما عليك إلا تسجيل الإجابات .. واسمك يوضع في النهاية: أجري الحوار شوقي نعمان.. ولو شئتَ فسأرسل إليك بالموضوع كاملًا بالأسئلة والأجوبة لتوقع عليه .. ماذا قلت؟ « قُلها .. وإلا فلن تسامح نفسك أبدًا إن لم تفعل».
- آسف يا فندم .. لا أستطيع.
- هكذا! .. إنما تستطيع فقط أن تدير خلية شيوعية في المسافرخانة .. أنا كنت رحيمًا بك فلم ألجأ لإجراءات أخرى بشأنك .. أنت تعرفها .. وتعرف أيضًا أنني أعرف تاريخك وسوابقك .. كما أعرف أنك لن تحتمل ضربة جديدة لو وصلتْ إلى أجهزة أمن الدولة أخبار نشاطك السري .. ففي هذه المرة سيكون ضياع مستقبلك كله.

كان إعلانه منذ لحظة رفض العرض قد أمده بقوة فكت عقدة لسانه وحررته من خوفه، وقال لنفسه: «لا تراجع .. فلتكمل»:

- سيادتك على أي أساس توجه إليَّ هذه الاتهامات؟
- ألا تعرف أن لديّ تقارير عنك حتى سجنك الأخير في العام الماضي؟
- ولو نفذتُ ما تعرضه عليَّ ألن تصبح لهذه التقارير قيمة؟ .. يعني أن سيادتك لن يعنيك ساعتها أن أدير ما تسميه خلية شيوعية؟

دقَّ زجاج المكتب بيده وقد احمر وجهه وعلا صوته غاضبًا لأول مرة:

- أنا لا أجري صفقة معك .. ولولا ثقتي بأنك شاب متحمس لقضايا الوطن ما كنت سمحت لك أن تجلس أمامي الآن .. لكني واثق من أنك مضلل من فئة لا تعرف معنى الوطن .. توجهها قوى شريرة من الخارج .. تريد أن تلطخ الشرفاء وتثير الفتن مثلما يفعل استاذك الناقد الكبير .. الذي أعرف جيدًا

تاريخه القديم في العمل الحزبي تحت الأرض .. تريدون هدم كل انجاز لا يخدم أهدافكم الخبيثة!.

أطرق شوقي وهو يجاهد لكبح غضبه ورغبته في مواجهة الرجل بحقيقته، فهي ستكون مواجهة صفرية فيها نهايته، فقال بكل ما يملك من قدرة على ضبط النفس:

- عمومًا يا فندم أشكرك على أنك منحتني شرف الوطنية .. وأنك لم تصدق ما جاء بالشكوى التي وصلتك .. وقمت سيادتك الآن بكشف مضمونها .. هل تأذن لي بالانصراف؟

ضرب قدري بيه المكتب بيده مرة ثانية وهو يصيح بصوت لابد أن منطقة الجزيرة كلها قد سمعته:

- لست أنت الذي يقرر انهاء الحديث .. أنا الذي أقرر ..
- أنا تحت أمر سيادتك!
- ثم من أدراك أن لديّ شكوى ضدك .. هل قلت أنا ذلك؟
- سوف أكون سعيدًا لو لم تكن هناك شكوى ضدي .. لكن سيادتك قلت أن لديك تقارير .. فما الفرق؟
- فرق كبير .. الشكوى تأتي من شخص قد يكون على حق أو لا يكون، أما التقرير فهو من جهات رسمية حريصة على أمن البلد وليس على حسابات خاصة .

واتته نوبة من الشجاعة وأخذ نفسًا عميقًا، واعتدل في وضع المواجهة لأول مرة:

- قدري بيه .. هذه الجهات التي تقصدها لا تجلس لعقد صفقات خاصة، وهي تعرف شغلها جيدًا، ولو كان عندها ذرة شك فيما تتهمني به فليست بحاجة إلى تقارير الأستاذ مرسي الحسيني وشكواه التي لديك.. وأؤكد لسيادتك أنك لو كنت تملك دليلًا واحدًا على ما اتهمتني به لما كنت أنا جالسًا معك الآن، بل ربما كنت جالسًا في إحدى الزنازين .. عن اذنك.

وانتفض واقفًا والذهول يعقد لسان قدري بيه. وتهيأ للخروج، لكنه التفت إليه قبل انصرافه قائلًا:

- وعلى فكرة .. كل ما كتبه الأستاذ العطَّار حقيقي وأنا شاهد عليه، وكل ما كتبه الأستاذ مرسي الحسيني من تقارير .. تبلُّوها وتشربوا ميتها!

واندفع نحو الباب، فيما يفتح الريِّس قدري فاه وتتسع عيناه في ذهول.

(١٣)

- ١٩٧٦.

الثانية عشرة ظهرًا، وشمس أوائل اكتوبر عمودية فوق رأسه، ورغم انكسار أشعة شهور الصيف القائظة وهو سائر فوق كوبري قصر النيل، فإن الغيظ بداخله كان سعيرا، فهبَّت نسمات النهر على نفسه بردا وسلاما. استند على سور الكوبري وترك للنسمات دغدغة وجهه ومشاعره، عساها تهدئ الغليان في صدره. ضرب السور الحديدي بقبضته عدة مرات ليكبح فوران الغضب. تابع ببصره صيادا في قاربه يحرك مجدافيه حركة بطيئة منتظمة. ينساب القارب بنعومة، شريط بُنِّي اللون تتوسطه بقعة بيضاء لجلباب الصياد وبقعة سوداء لرأسه الملفوفة بعمامة بيضاء، تبدو جميعا كلمسات تجريدية من منظور عين الطائر.

خفَّت حدة الغضب قليلًا، وهدأت خواطره وانتظمت كانتظام حركة المجدافين في يدي الصياد.

« لماذا أنت غاضب وقد قمت بالثأر لكرامتك كما لم يفعلها أحد قبلك؟ .. لقد لقَّنته درساً لم يتلق مثله في حياته، كان يظن أنه عملاق أمام قزم .. الآن كيف حال العملاق؟ .. كان يغوص في مقعده فاغر الفم والعينين عاجزًا عن النطق وأنت تكوِّمه بالضربة القاضية، جدير بك أن تكون سعيدًا مزهوا بهزيمته .. لا لا .. الوغد كان يساومني على شرفي ويذل كبريائي وهو يخيِّرني بين خيانةَ نفسي وبين السجن!.

قفز إلى ذاكرته ما فعله وكيل النيابة معه في مكتب المأمور بسجن الاستئناف في فبراير ١٩٧٢ وهو في اليوم الثاني عشر من إضرابه عن الطعام، يتحرك كورقة شجرة تطير وقد تحررت من الجاذبية الأرضية. طلب منه وكيل النيابة فض الإضراب وإلا أمر المأمور بمنع الماء عن المضربين العشرة الذين اختاروه قائدًا للإضراب، ليكون حلقة الاتصال بينهم وبين الادارة. لم يكن في إعيائه الشديد قادرًا حتى على الغضب، لكن الذي غضب كان الشاعر أحمد نجم، لأن الزملاء المضربين أجبروه بعد يوم من الإضراب على الإفطار لوجود قرحة في معدته قد تنزف حتى الموت لو ظل صائمًا، فصاح في وجه المحقق وهو يهب واقفًا:

- أنت قاتل! .. لأنك تعرف جيدًا أنهم سيموتون من العطش بعد عدة ساعات من منع الماء عنهم بعد ١٢ يومًا من الإضراب عن الطعام، فانهال عليه وكيل النيابة سبًا بأقذع الألفاظ، وختم وصلة السب بقوله:
- أردت أن أعرِّفكم أنكم لستم رجالًا يمكن أن يلووا ذراع النظام، بل ما أنتم إلا « شوية عيال صايعين » .

تهور نجم وكاد أن ينقض عليه لولا أن شوقي غمزه بيده، ثم تحامل على نفسه ونهض قائلاً:

- خلاص يا سعادة المأمور .. طلَّعنا الزنزانة ونَفِّذ كلام البيه وكيل النيابة.

قال المحقق: وقع على المحضر أولًا.

- على أي شيء سأوقع؟

قال لكاتب الجلسة: اقرأ له يابني: وقد بصَّرناه بمغَبَّة تمرده المخالف لقوانين السجن، وأسدينا إليه النصح بفض الإضراب عن الطعام فلم يستجب، فحمَّلناه المسئولية عما تتعرض له حياته من جرَّاء ذلك .. تعال امض على اقوالك.

صاح نجم: لا يا شوقي .. اياك أن تمضي.

قال شوقي بصوت واهن:

- بل سأمضي .. لكن بعد استكمال المحضر.

قال المحقق: ماذا تقصد؟

كانت الفكرة قد انبثقت في ذهنه كشعاع نور في الظلام، وقد استعاد كامل صفائه الذهني، وهو يسير فوق السلك الرفيع الفاصل بين الحياة والموت، وقال لنفسه: لقد خرجت الطلقة من مسدس العدو بالحكم بإعدامكم وانتهى الأمر .. نعم .. الآن أصبح هذا الرجل هو العدو لا أكثر ولا أقل .. وقال أيضًا: إن للموت معنى رائعًا عندما يأتي بشرف ويصبح ثمنًا لابد من دفعه .. أليس هذا ما يسمى استشهادًا؟.. وهل يقبل بعد ما جرى موتاً رخيصاً أو مجانيا؟

قال لوكيل كلامه النيابة:

- هناك سؤال لم توجهه لي حتى يتم تقفيل المحضر وهو: هل لديك أقوال أخرى؟

وجه الوكيل إلى كاتب الجلسة:

- اكتب يا بني .. س: هل لديك أقوال أخرى؟
- نعم.. أتهم السيد وكيل أول النيابة بإصدار اوامره إلى السيد مأمور السجن بإعدام عشرة سجناء سياسيين بمنع الماء عنهم في اليوم الثاني عشر من إضرابهم عن الطعام بعد أن سب وأهان زميلي الشاعر أحمد فؤاد نجم وبقية الزملاء المسجونين وهم تحت رحمته بلا حول ولا قوة وعلى وشك الموت جوعًا وعطشا.

احتقن وجه المحقق بالدماء، ثم أخذ يشحب ثم يَزْرَقّ، وراح يرغي ويزبد كالمجنون، ومأمور السجن يحاول تهدئته ثم يهمس لشوقي معاتبًا:

- هذا لا يصح.. إنه يمثل النائب العام.. اعقل حتى لا نذهب جميعا في شربة ماء.

نظر إلى المحقق فرآه يغطس في كرسيه خلف المكتب مبهوتًا تحت الحصار، وظل في انتظار إعلانه الاستسلام، بالموافقة على فتح محضر جديد يسجل فيه أقواله التي كان قد رفض تسجيلها عند استدعائه مع « نجم » إلى مكتب المأمور، حول اتهامه لمباحث أمن الدولة بتلفيق التهم التي أدت إلى القبض عليه وإيداعه السجن. أخيرًا تم له ما أراد، مقابل التنازل عن اتهامه له بإصدار الأمر بمنع الماء

عنهم، وعندما حلت لحظة التوقيع على المحضر، أصرَّ شوقي على ألا يوقع إلا بعد اعتذار المحقق للشاعر نجم عن الشتائم والإهانات التي وجهها إليه وإلى زملائه. تأمله وهو لا يزال صامتًا وغائصا في كرسي المأمور شاحب الوجه، حتى ارتضى اعتذار المأمور نيابة عنه، وتأكيدا للاعتذار قام المأمور بتقبيل رأس كل من شوقي ونجم، حفظا لماء وجه وكيل النيابة، الذي لم تعد تسري الدماء فيه، ولم يمض غير يومين حتى عُقدت جلسة بالمحكمة، وحكمت بالإفراج الفوري عن الجميع بضمان محال إقامتهم.

(١٤)

- **أواخر سبتمبر ١٩٧٦:**

اتسعت ابتسامة الحارس شعبان وهو يستقبله بعد الظهر بحفاوة أكبر من حفاوته في الصباح، وتضاعف دعاؤه له، لم يكن بحاجة إلى ذكاء ليعرف أن مرجع ذلك هو الخبر الذي نقله إليه السكرتير محروس بإضافته إلى كشف الحوافز. توقع أن يسأله للإطمئنان على سماح البند، لكنه اقترب منه هامسا:

- الآنسة فريدة منتظرة سيادتك في المرسم.

انشرح قلبه بفرحة أنسته معركة الصباح، لكنه حرص على إبداء اللامبالاة، وأدهشه أن شعبان يعرف اسمها، وقبل أن يتجه إلى الداخل قال شعبان وقد ازدادت ابتسامته لزوجة:

- متشكرين يا سعادة البيه على الحوافز .. ربنا يبارك فيك.
- ده شيء بسيط .. وربنا يسهل والمسألة تمشي.

وجد المكتب خاليًا من محروس، من الواضح أنه انتهزها فرصة وانصرف مبكرا عن موعده لتوقعه أن رئيسه سيتأخر في العودة، ابتسم في تسامح وهو يقفز درجات السلم نحو المرسم، نقر على الباب المفتوح وهو يطل نحو الركن الذي تجلس فيه فريدة، قال مازحا:

- ممكن ادخل.

ردت بنفس المزاح:

- حضرتك عاوز مين.

أسرع نحوها وصافحها بحرارة وهو يقاوم الرغبة في عناقها. عجب من أمره، فمنذ ساعة كانت الدنيا مظلمة في وجهه، إلى درجة أنه كان على وشك العودة إلى البيت والاعتكاف به كي لا يلتقي أحدا، مقتنعا بعدم جدوى أي عمل، وبأن عليه أن يعيد النظر في كل شيء، لكنه – ربما بحكم العادة– وجد نفسه تلقائيا يركب الأتوبيس المتجه إلى الحسين، وقد يكون مدفوعا بتلك السطوة النفسية عليه من جانب المسافرخانة، فقد أصبح هذا القصر سبب شَقائه وشِفائه في ذات الوقت، إلا أنه لم يكن يقدّر أن لفريدة سطوة عليه لا تقل عن المسافرخانة، فها هي – في لحظات – تُخْرجه من حالة الاكتئاب والقنوط بعد لقائه العاصف بقدري هذا الصباح، لدرجة أنه لا يرغب الآن أن يفسد سعادته بمجيئها، بسرد ما جرى اليوم.

قال معاتبا:

- لقد شغلتيني عليك .. دون حتى مكالمة تليفونية.
- قلت أفاجئك بحضوري.

جلس بجانبها على الكنبة قائلاً:

- منورة! .. من يراك الآن لا يصدق أنك نفس الشخص ساعة خروجك آخر مرة من هنا .. كان على أهلك أن يسموك « أشرقَتْ » بدلا من فريدة!
- لماذا؟
- حتى لا تغرُبي أبدا .. وتظلِّي مشرقة دائمًا كما أنت الآن.

احمر خداها كما يحدث لها كلما استمعت إلى إطراء منه، واكتشف أنها شديدة الحياء على عكس ما تبدو عليه في الوهلة الأولى. فجأة غيرت الموضوع بسؤاله:

- لماذا سَمَّي الحاج محمود محرم قصره بالمسافرخانة؟ .. أليس اسما غريبا لقصر شاهبندر التجار؟ .. طوال الأيام الماضية كنت أبحث عن اجابة.

- أولًا ليس هو من سماه بهذا الاسم.. يقال أن صاحبه من بعده إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا اتخذه سكنا لفترة، وهو ما يفسر مولد اسماعيل باشا – أو الخديوي اسماعيل – فيه، وعندما انتقل بعد ذلك إلى القلعة اتخذه دارا للضيافة لاستقبال الزائرين للدولة.
- وثانيًا؟
- ثانيًا هل هذا ما كان يشغلك طوال أيام اختفائك وأنا أكاد أجن من القلق عليك؟

احمر وجهها من جديد وقالت وسط حيائها؟

- يا سلام! .. ماذا حدث لتصاب بالجنون؟ .. أنت من اتهمتني وأنا خارجة من هنا بأنني مجنونة .. والآن أصبحنا في الجنون سواء.
- وما زلت أقول أنك ساعتها كنت مجنونة .. ألا تذكرين كيف انقلبتِ فجأة إلى شخص آخر؟
- وها أنذا أمامك .. هل أنا جنِّية؟
- لا .. الله يخليكِ! .. مجنونة أهون من جِنِّية .. حقيقة ماذا دهاكِ؟
- قلت لك لا شيء.. حالات بسيطة تأتي وتذهب سريعا.
- أحيانًا لا أفهمك.. هل تفضلين أن تكوني غامضة؟
- اطلاقا .. أنا إنسانة بسيطة جدًا .. ربما هناك بعض الأشياء سوف أحكيها في الوقت المناسب .. إحكِ لي أنت .. ما أخبارك؟

قام يعد الشاي، وقال من الركن الذي به السخان بصوت أعلى:

- كنت أخوض معركة وجودية: أكون أو لا أكون.
- ضد من؟

قال مشاكسًا:

- سوف أحكيها لك في الوقت المناسب؟
- يعني أنت تردها لي واحدة بواحدة! .. طيب .. سأريك!

وقامت متجهة إليه في تحدٍ وكأنها ستعاقبه. ابتعد عنها ضاحكا نحو باب الحمام. لحقت به ولكمته في كتفه، لكنها تسمّرت فجأة وهي تشهق في انبهار:

- يا إلهي! .. ما هذا الجمال؟!

خطت كالمسحورة إلى داخل قاعة الاسترخاء بعد الحمام وعيناها معلقتان بالسقف البللوري المُشكَّل من قطع زجاج كبيرة في أشكال بيضاوية غير منتظمة ذات ألوان مختلفة بين الأزرق والأصفر والأخضر والأحمر.

- أهذا هو الحمام؟
- هذه احدى غرفتين .. الداخلية للاستحمام والخارجية للاسترخاء بعده.. والحجرتان لا تستخدمان الآن لهذا الغرض بعد أن نزعت توصيلات المياه والصرف، وكذلك أنابيب التدفئة الفخارية التي كانت تحت بلاطات الرخام هذه.

سرحت مستغرقة في الحالة النورانية الناجمة عن انعكاسات الضوء الملون فوق الجدران الملساء ناصعة البياض المتصلة بالبلاطات البيضاء على الأرض، فترن نبرات الكلام بصدى غامض يكمل الجو النوراني وينقل الروح إلى خارج المكان والزمان.

- ماذا يوجد فوق هذا السقف؟
- لا شيء غير السماء.
- لقد حوَّل المصمم السماء إلى سماوات، تختلف باختلاف الوان هذه البللورات السحرية في السقف، إنه سقف موجود وغير موجود، لذلك أشعر بأنني في حالة انعدام الوزن بين طبقات السماء!
- بالأمس كنتٍ ناقدة تشكيلية .. واليوم أصبحت شاعرة !!
- يا بختك بالإقامة هنا .. كأنك السلطان!
- لكن بدون حريم! .. لقد كُنَّ يأخذن حمامهن هنا بالغرفة الداخلية، ثم ينتقلن إلى الاسترخاء والتدليك في الغرفة الخارجية .. هل تحبين أن تعيشي في ذلك الزمان؟

- يا ريت! .. لكن ليس كجارية بالطبع!
- بل كأميرة .. قلت لك ذلك مرة .. أتذكرين؟
- نعم .. كنا في جناح الحريم في الجهة الأخرى.

أخذا أدوات الشاي بعد فصل التيار من غلاّية الماء حين وصل إلى درجة الغليان. حملت هي الأكواب الفارغة فيما حمل هو الغلاية ولوازم الشاي إلى مجلسهما السابق.

- لم تكمل قصة المسافرخانة .. هل استمر يؤدي غرض قصر الضيافة؟
- لا أظن.. على الأقل حتى أواخر القرن التاسع عشر، فقد استُكمل بناؤه على مراحل كما تشير المعلومات المتاحة وهي قليلة جدًا، ويبدو ذلك من اختلاف الطرز المعمارية من جناح إلى آخر في جهاته الأربع. وقد ظل مهجورا ومهملا سنوات طويلة في قاع هذه الحارة الشعبية. وللعلم فإن صديقي الكاتب جمال الغيطاني عاش طفولته وصباه في هذه الحارة – حارة الطبلاوي– وكثيرا ما كان يزورني هنا ونقضي أوقاتا طويلة وهو يحكي لي حكايات وأساطير يرددها أهل الحارة، ما جعل منه « تابو » سحري ملئ بالأسرار والهواجس والمخاوف.
- ألا تساورك مثل هذه المخاوف أحيانا؟
- كثيرا .. وقد تأتيني في الأحلام، أو حتى في أحلام اليقظة .. لكنني استأنست المكان، فصرت جزءا منه وصار جزءا مني، لأنني أقضي فيه أوقاتًا أطول مما أقضي في أي مكان آخر.

انتهيا من شرب الشاي، وخيم الصمت، مما سمح لأحداث اللقاء العاصف في الصباح أن تتسلل إلى نفسه وتعكر مزاجه .. وكأنها كانت معه على نفس الموجة .. فسألته:

- لم تحكِ لي عن معركتك الوجودية التي خضتها كما قلت.

كان بحاجة حقيقية أن يحكي عن ذلك لأي انسان، وخاصة لفريدة. ليس عن معركة اليوم وحدها بل منذ التقى بمحمد جاد الرب في الأتيليه، حكى بكل التفاصيل. تابعته

بمنتهى التركيز واستوضحت عن بعض التفاصيل، فيستطرد إلى مواقف جانبية مثل وقوفه على كوبري قصر النيل وهو يسترجع أحداث سجن الاستئناف حتى بلغت بها الإثارة منتهاها، وفوجئ بيدها تمسك بيده بقوة ودموعها تنساب في غزارة وتهمس بانفعال:

- أنت إنسان عظيم! .. لماذا ظهرت في حياتي متأخرا؟
- لا يزال أمامنا الوقت.

أطرقت برهة ثم قالت وكأنها تحدّث نفسها:

- أتظن!
- لماذا تقولين ذلك؟ .. لماذا أجدك كلما وصلنا إلى لحظة حلوة تسرعين بإطفائها؟ .. متلازمة عجيبة!

ظلت صامتة فترة حسبها طويلة للغاية، ثم غيرت الموضوع فجأة:

- ألست جوعان؟ .. أنا جعت.

نهض بحماس قائلا:

- وأنا أيضًا لم أتناول إفطاري حتى الآن.. هيا ننزل.. سأعزمك على وليمة كشري في الحسين.

وأردف معتذرًا وهو يضحك في خجل:

- معلهش! .. نحن في آخر الشهر.. أعدك بأن أعوضك عنها بعزومة كباب أول الشهر.
- أنا أعشق الكشري .. هيا.
- وعند باب المرسم احتوى يدها بين راحتيه وقال بانفعال:
- أشكرك.
- على أي شيء؟

- على أنكِ جئتِ اليوم.. كنت احتاج إليكِ بشدة أكثر من أي يوم آخر. غاصت عيناها في عمق عينيه، ولم تغمضهما كما يحدث كلما نظر فيهما طويلًا، وترقرقتا بدفقة من الحنان.

(١٥)

جلسا في محل كشري الجمهورية قرب جامع الأزهر . كوكتيل حرِّيف من النشويات والبقوليات والبصل والثوم والشطة ، وكوكتيل آخر حولهما من البشر المختلفين . مصريين وسياح ، فقراء وأغنياء ، رجال وسيدات ، أكتاف عارية وملايات لف ، الكل منهمك في الأكل ، مع إضافة الصلصة والورد (شرائح البصل المحمرة) ومحلول الشطة اللاهبة للأفواه ، على خلفية من الضحكات والتعليقات ونداءات عمال المطعم للإبلاغ عن طلبات الزبائن ، ومن ضجيج أصوات قرع المغارف الطويلة في يدي العامل على « النصبة » وهو يغرف بها الأصناف المختلفة كلٌ على حدة في الأطباق المعدنية اللامعة .. الجميع يمارسون طقساً عميق النفاذ في الوجدان الشعبي ، لا يوجد مثله في أي مستوى آخر من المطاعم .. فهو يرتبط فقط بمحلات الكشري.

كانت فريدة تجلس أمامه وقد استوعبها هذا الطقس بالكامل ، رغم أنها جرَّبته مراراً في أماكن مختلفة ، لكنها تحسه هنا بمذاق مغاير ، ربما لأنه جزء من العبق التاريخي لحي الأزهر والغورية ، وربما لأنها تمارسه هذه المرة بصحبة شوقي ، فكان له طعم خاص ، جعلها تترك نفسها مع إيقاعه الصاخب وهي تمضغ في بطء لتبقى في هذا الجو أطول وقت ممكن .

خرجا من المطعم بعد أن شكرته بحرارة . وقفاً بالقرب من المحل وسألته :

- والآن إلى أين ؟
- هل تفضلين الذهاب إلى قهوة الفيشاوي أم إلى وكالة الغوري ؟ .. إنها على بعد خطوتين .

- دعنا نذهب إليها .. زرتها من زمان وحضرت بها حفلة للفنون الشعبية ليلاً ، وأحب أن أراها في ضوء النهار .
- وأيضاً سترين مراسم بعض الفنانين ، مثلما عندنا في المسافرخانة ، وسأعرِّفك هناك على صديقي وزميل الدراسة الفنان عامر البحراوي .
- حسناً .. (وبأداء مسرحي) إلى وكالة الغوري.

عند البوابة التاريخية هائلة العرض والارتفاع نزلا عدة درجات حجرية . صافح شوقي كبير السعاة العجوز عم إسماعيل ، وتبادلاً التمنيات الطيبة التي تكشف عن علاقة قديمة بالمكان وفنانيه وحرفيّيه . سأله عن الفنان عامر البحراوي فأخبره بأنه موجود بمرسمه ، فيما سرحت هي في تأمل المبنى بمشربياته الشاهقة ، وهي تجلس على حافة النافورة المثمَّنة الأضلاع المرصَّعة بقطع الفسيفساء التي تتوسطه . ولاحظت أنها بالرغم من فخامتها وضخامة حجمها ليست في جمال نافورة المسافرخانة الصغيرة بمستوياتها المتعددة وأقواسها الرخامية المتجاورة في أنصاف دوائر تحيط بها كأوراق الزهر الرخامية ، لكن ما استولى على لبِّها وأطلق خيالها هو المشربيات العلوية عند أقصى ارتفاع المبنى المربع بمهابة فائقة تحكي تاريخ القرون ، ومن تحتها طابق لحجرات ذات نوافذ مستطيلة بمظلات تُرفع لأعلى ، تشكل إطاراً ذا خطوط متوازية يحيط بأضلاع المبنى كحزام محكم ، ويقوم هذا الطابق فوق طابقين تحملهما أعمدة بعقود واسعة وممرين يطل عليهما صفان من الحجرات ذات الأقبية الحجرية المتجاورة ، ويتشكل الطابق الأرضي من سلسلة من البواكي بأعمدة مضلَّعة راسخة البنيان .. انضم إليها شوقي وأخذ يحكي لها تاريخ المبنى الذي بناه السلطان قنصوه الغوري ، وهو السلطان قبل الأخير في دولة المماليك ، وكيف كانت الوكالة مركزاً تجارياً يستقبل التجار من كافة بلاد الشرق ، وكيف كان يستضيفهم مع عائلاتهم بالدورين الأخيرين ، فيطلون من هذا الارتفاع إلى السوق المقام في صحن الوكالة من خلال هذه المشربيات موحية بالأبهة والعظمة ، على شكل فيلات داخلية متجاورة سبقت هذا الطراز المعماري في العصر الحديث بمئات السنين ، وقد أصبحت اليوم مراسم للفنانين وورشا للحرفيين لإحياء الفنون التقليدية من التراث ، فيما كانت حجرات الدور الأرضي ذات الأقبية المتجاورة تحت البواكي

مخصصة قديماً لعرض البضائع القادمة من كل مكان ، لكنها مخصصة الآن لعرض نماذج من أعمال الحرف اليدوية من إنتاج الحرفيين بالدور الأعلى ، إلى جانب الأنماط التراثية لمختلف الحرف الممثلة لأغلب المحافظات على مر التاريخ .

صعداً سُلّماً ذا درابزين عتيق إلى الطابق الثاني ، وسارا في ممر طويل ضيق، وعلى يسارهما صف من النوافذ العالية بامتداد المبنى وبارتفاع يطاول السقف، محمية بقوائم مخروطية متقاطعة ، فتلقى كل نافذة بأضوائها وظلالها على وجوه السائرين .. نقر شوقي على أحد الأبواب المتراصة بانتظام هندسي صارم ، ثُبتت فوقه لافتة صغيرة كتب عليها « مرسم الفنان عامر البحراوي » . فُتح الباب وأطل عامر وتهلل وجهه الأسمر اللامع بالإشراق لدى مرآه لشوقي ، الذي عرَّفه بفريدة فرحب بها ودعاهما للدخول.

لم يكن عامر وحده ، كانت معه الفنانة أحلام الحائزة على مرسم خاص بالوكالة صافحها كأصدقاء قدامي ، لكن عينيها لم تفارقا فريدة منذ دخولها .

سألته بفضول أنثوي :

- ألا تعرفنا بالأستاذة ؟
- هذه صديقتي فريدة .. (ثم إلى فريدة مشيرا إلى أحلام) وهذه هي الفنانة أحلام فوزي .. صديقتي أيضاً .

راحت أحلام تقيسها بنظراتها من أعلى إلى أسفل في برود ثم قالت :

- حضرتها فنانة ؟
- متذوقة للفن ، خرّيجة معهد الفنون المسرحية وتعمل بأكاديمية الفنون.

لم يكفَّ عامر عن الترحيب بهما ، فيما يعاتب شوقي على انقطاعه عن زيارته منذ فترة طويلة ، ثم استطرد بنبرة ذات مغزى وهو ينظر إلى فريده :

- أم أنه من لقى أحبابه نسي أصحابه ؟
- كلكم أحبابي والله .. لكن أنت تعرف الظروف .

سلطت أحلام نحوه نظرة تضمر غضباً مكتوماً ، وأتبعتها بنظرة أخرى إلى فريده .

أحسَّ عامر بتوتر الجلسة فنهض قائلاً :

- ما رأيكم في (دور شاي) ؟

قال شوقي :

- أنت ابن حلال .. كنا سنذهب لتناوله في مقهى الفيشاوي .. لكن فريده فضلت أن نشربه عندك .
- إحنا زارنا النبي !

قالها عامر مبتسماً في خبث وعينه على أحلام التي التزمت الصمت ووجهها ينذر بعاصفة ، وفجأة انتفضت واقفة وهي تقول :

- طيب عن إذنكم سأطلع إلى مرسمي .. لديَّ لوحة سأكملها .

عاد عامر من الحمام وحاول أن يستبقيها لتناول الشاي ، لكنها لم تلتفت إليه، بل التفتت إلى شوقي قائلة في نبرة تهكم :

- إبق أسأل علينا يا استاذ شوقي !

ثم أسرعت بالخروج وعامر يمط شفتيه تعبيراً عن استغرابه وقلة حيلته . كانت فريدة توزع النظرات بين الثلاثة وكأنها تريد أن تسأل : ما الذي يحدث ؟

استطاع عامر بروح الدعابة أن يمتص التوتر الذي تركته أحلام ، وسأل فريده :

- ألا تخافين على نفسك من صاحب سوابق مثله ؟

ضحكوا جميعاً ، وراح عامر يسألها عن رأيها في شوقي ، ويتدارك فيضيف .

- أقصد كفنان .

قالت بغير تحفظ :

- وكإنسان أيضاً .. رائع !

ضربه على كتفه مداعباً :

- ماشي ياعم !

سارعت قائلة لتداري إحراجها :

- لا تذهب بعيداً .. نحن أصدقاء .. وهذا يكفي .

قال شوقي موضحاً :

- على فكره : فريدة مخطوبة (وأشار إلى الخاتم في يدها اليمنى)

قال عامر : يا عم هل قلت حاجة غلط ؟ .. بل أرى الصداقة أعمق وأصدق .. وبالمناسبة .. هل رسمك أم لا ؟

- لا .. ربما لم يجد في ملامحي ما يشجعه .
- إذن هو لا يقّدر الجمال .. اسمحي لي أن أرسمك .
- في فرصة أخرى إن شاء الله .

قال شوقي : ألن تفرِّجها على أعمالك ؟

- هاهي أمامكما على الجدران .. شوقي طبعاً يحفظها عن ظهر قلب .. فبيننا عمر من الصداقة والفن والجدل .. يراني واقعياً فات زمنه !

رد شوقي مصححاً : الجزء الاول من الرأي صح . وهو أنك واقعي ، والجزء الثاني لم أقله أصلاً ولا أرى ذلك . بل أرى العكس .. فالفن ليس كالموضة ترسم مساره بيوت الأزياء . إنما معيار الفن هو الصدق أياً كانت المدرسة الفنية .

تدخلت فريده في الحوار :

- أنا مع هذا الرأي .. المدارس الفنية بدأت جميعاً في الغرب .. وهي بنت ظروفها هناك .. وأرى أن لوحاتك بنت واقعنا وتحمل أيضا الصدق الذي يعنيه شوقي .
- الله عليك ! .. الآن أستطيع القول أنكما تستحقان هذه الصداقة .

قال شوقي وهو يتهيأ للانصراف مع فريده :

- كنت أريد أن آخذ رأيك في موضوع مهم .. ربما أمر عليك غداً.
- تشّرف .

ودِّعاه في مودة صادقة ، وخرجا من المرسم ثم من الوكالة إلى شارع الأزهر، ليركبا الأتوبيس إلى ميدان العتبة ، وهناك يفترقان كل إلى طريقه . لاحظ أنها بقيت صامتة منذ مغادرتهما مبنى الوكالة وكان وحده من يتكلم ، لكنها قالت فجأة :

- ألا ترغب في أن تخبرني بشيء عن مدام أحلام ؟
- من أية ناحية ؟
- تصرفها معي .. ومعك أيضا !

تظاهر بخلوّ الذهن عما ترمى إليه وقال :

- تقصدين خروجها من المرسم فجأة ؟ .. عادي .. هي ليست ضيفة .. ولا نحن ضيوف عليها بل على عامر .. وقد تصرفت بتلقائية لتعود إلى مرسمها وتكمل عملها .
- ألم تلاحظ نظراتها إليَّ ثم إليك ؟ .. هل هذا عادي أيضاً ؟

أنقذه وصول الأتوبيس الذي سيركبانه من الرد ، وتكفَّل الزحام بقطع الحديث .. ولكنه بقدر ما أنتابه من ارتباك لوجود أحلام ولسلوكها الفج ، فإنه يشعر الآن بالسعادة لرد الفعل لديها من سلوك أحلام ، فليس له إلا تفسير واحد : هو الغيرة عليه، وهو ما يحسم بداخله سؤالاً حول مدى تمسكها به حينما يحين وقت الاختيار بينه وبين خالد الغندور ، وقد يدعوه ذلك أيضاً إلى القلق ولأنها قد تفسر الأمر بأنه يخدعها في علاقة موازية .

وعندما نزلا من الحافلة وحاول توصيلها إلى محطتها التي ستركب منها حافلة أخرى أصرت على الذهاب وحدها. حتى بعد أن أكد لها عدم صحة ما يجول بخاطرها بشأن علاقته بأحلام، وأنهما ليسا إلا صديقين، لكنها ظلت تلتزم الصمت غير مصدّقة. وانبثق من أعماقه فجأة سؤال يُخرج له لسانه سافرا: إذا كنتَ صادقًا فيما تقوله لها، فبماذا تسمى ما حدث في قاعة المحكمة صباح ذلك اليوم من فبراير ١٩٧٢؟. ودعها واتخذ طريقه إلى موقف الأتوبيس العمومي خلف المسرح القومي، مشتَّت الذهن والمشاعر.

(١٦)

- **فبراير ١٩٧٢**

قاعة محكمة الاستئناف بباب الخلق تدوَّي فيها خطب المحامين، عشرات منهم جاءوا متطوعين للدفاع عن الشباب الوطنيين، الذين اكتظ بهم قفص الاتهام. رئيس المحكمة يدق المنصة بمطرقته من حين لأخر لإسكات الضجيج الذي يسبِّبه الزحام وتعليقات الاستحسان للدفاع الحماسي للمحامين، من جانب أهل المتهمين وشباب الجامعة المتعاطفين مع زملائهم في القفص وقضيتهم التي يحاكمون من اجلها، وهي التظاهر بمطالبة النظام بإعلان الحرب على اسرائيل وتحرير أرض سيناء، إلى جانب الدفاع عن القضية الفلسطينية وأرض الجولان السورية.

من وسط زحام القفص يشرئب شوقي بعنقه ويشحذ قوة ابصاره بحثًا عن أحد من أهله ومحبيه، وهو نفس ما يفعله في ذات الوقت كل زملائه في القفص، حتى يأتي وجه زوجته نادية وهي تلوّح له بيدها والضحكة تفرش وجهها، لوّح لها بالمثل، قبل أن ينتبه فجأة إلى وجه أحلام بين الجالسين في الصفوف الخلفية، كانت الأقرب إلى مجال رؤيته، نظرًا لأن مكان القفص في مؤخرة القاعة، ما يجعلها على مسافة بعيدة عن الصف الذي تجلس فيه نادية في المقدمة واقرب إلى ناحيته، عندما التقت عيونهما لوّحت له ثم رفعت إصبعيها بعلامة النصر..

تنقَّل ببصره بينها وبين نادية، تناقضت مشاعره بين الدهشة والفرحة والارتباك، ودب بداخله التوتر والاضطراب. كان آخر ما يتوقعه أن تحضر أحلام جلسة محاكمته، ليس لما في ذلك من مخاطرة، بل لأنها ليست متعاطفة أصلًا مع القضية التي سجن من اجلها، فخلال المناقشات الطويلة بينهما في مرسمها بوكالة الغوري كانت شديدة المعارضة لآرائه السياسية، وحتى لمواقفه الصدامية ضد الأوضاع المختلفة في الحياة الثقافية، من منطلق أنه يبدد طاقته كفنان فيما لا جدوى منه، قائلة أن ما شارك فيه وناضل من اجله طوال السنين الماضية لم يمنع وقوع هزيمة ٦٧ وزيادة البلد احتلالا والمقهورين قهرا، وسواء من يحكمه هو عبد الناصر أو السادات أو أي رئيس آخر، وسواء دخلنا الحرب أم لم ندخلها، فستظل نفس

الأوضاع قائمة، لأنه ميراث تاريخي للشعب المصري.. النصر الوحيد الذي يمكن لشوقي تحقيقه – في رأيها– هو إبداعه كفنان، إنه الذي يعيش طول الزمان ولا يتعرض للهزيمة لو كان فنا حقيقيا، بعيدًا عن الشعارات والأفكار المسبقة، لذلك اختارت لنفسها في الفن الأسلوب التجريدي، ومنهج التجريب المستمر بالخامات والأشكال دون تحميل لوحاتها بأية مضامين، قائلة إن الجمال ليس بحاجة إلى ذرائع من الأفكار يتكئ عليها، وأن مضمون اللوحة هو شكلها وما فيه من طاقة شعورية ومن قيم جمالية من ذاتها ولذاتها.

كان يعترض ويثور أحيانًا، متهما إياها بالسلبية والانانية والشكلانية والبرجوازية، وقد يقاطعها لفترة طويلة ، لكنها تأتي إليه في مرسمه ، مقبلة ومتلهفة ومشعَّة بحرارة لا يحس بها مع نادية ، التي كانت لا تكف عن خلق أسباب للنكد ، وكم من مرة طلبت الانفصال وغادرت المنزل وباتت ليالي عند بعض صديقاتها ، لأسباب تافهة كان يمكن أن تمر ببساطة كما في أي حياة زوجية ، وفي كل مرة كان يتدخل الأصدقاء للصلح بينهما ، وما هي إلا أسابيع حتى تدب الخلافات من جديد .. حدثان وحيدان استطاعا إرجاء المصير الحتمي للعلاقة وهو الانفصال : الأول هو ميلاد طفلتهما نسمة ، بما أدى إليه من بزوغ مشاعر جديدة ربطت بينهما بمصير مشترك ، وإن لم تمنع نشوب الخلافات والصراعات من حين لآخر ، والثاني هو القبض عليه وعمر نسمة لا يتعدى ثلاثة أشهر ، واحتضان أهله وأُسر أصدقائه لها واعتبارها كأخت أو إبنة لهم ، ما هوَّن عليها الشعور بالوحدة والغربة بعيداً عن أهلها بالإسكندرية ، والأهم أنهم ضموها إلى لجنة الدفاع عن المعتقلين ، وأغلب أعضائها من أسرهم ، وقد نجحت اللجنة في صنع حالة واسعة من التعاطف بينهم حول قضيتهم ، خاصة بعد تسريب أنباء الإضراب عن الطعام في سجن الاستئناف، واستطاعت تحريك الجماعات الحقوقية وبعض هيئات التدريس بكليات الطب بالجامعات للمطالبة بالإشراف الطبي على المضربين حفاظاً على أرواحهم .. هكذا اندمجت نادية في القضية وأحست بأهمية الدور الذي تقوم به من أجلها .

وحين أعلن القاضي في نهاية الجلسة الحكم بالبراءة وبالإفراج الفوري بضمان محل الإقامة فقط عن جميع السجناء داخل القفص ، دوت حالة جنونية من الصخب والفرحة داخل القاعة ، واندفع الأهل والأصدقاء إلى القفص يتسابقون لتهنئة المفرج عنهم قبل ترحيلهم لاتخاذ إجراءات الإفراج، وشقت نادية طريقها بصعوبة بين الزحام حتى وصلت إليه وطالت أصابعها يده ، فاشتبكت أصابعهما بقوة . حاول الاقتراب منها أكثر فلم يستطع من شدة الزحام ، فصاح : أين نسمة ؟ .. لكن أذنه لم تلتقط إلا كلمتها التي سكنت ذاكرته وفؤاده : أنا فخورة بك ! .. ومن بعيد لمح وجه أحلام الأبيض يشع بهجة ، وهي ترفع إصبعها بعلامة النصر ، قبل أن تغادر قاعة المحكمة في هدوء ، وحيدة في بلوزتها البيضاء وسط قتامة ضوء القاعة ، دون أن يشعر بها أحد غيره ، وشعر بقلبه منشطراً إلى نصفين !

(١٧)

من تليفونه بالبيت اتصل بفريدة ، بعد أن قدَّر الوقت الكافي لوصولها إلى شقتها الصغيرة التي تشارك فيها صديقة لها . تنفس الصعداء حين ردت عليه . كانت لهجتها تبدو محايدة إن لم تكن باردة . قال :

- لابد أن نتقابل .. هناك الكثير يجب أن تعرفيه عنى وأعرفه عنك .

صمتت طويلاً حتى ألحّ عليها للرد .. قالت :

- لست بحاجة إلى سماع المزيد من الأكاذيب .. لدي الكثير منها حتى من أقرب الناس .. كنت أنت الاستثناء الوحيد .. فبدأت أستعيد الثقة في الحياة والناس . وفجأة اكتشفت أنك لا تختلف عنهم .
- على أي أساس بنيت هذا الاتهام ؟
- أنت تعرف جيداً .
- أقسم بالله ...
- من فضلك لا تقسم ! .. لا تدخل الله في الموضوع فتزيد الكذب سوءاً !

- كل هذا بناء على شك أو وهم بأن هناك شيئاً بيني وبين أحلام ؟
- لا ليس شكاً أو وهماً .. هذه أمور لا تفهمها أنت .. بل تفهمها أي امرأة .
- طيب .. وإذا قلت لك أن ما رأيته منها كانت مشاعر مِن طرف واحد .
- آه ! .. بدأنا الاعتراف التدريجي .. إذن لا دخان بغير نار !
- كان ذلك منذ أربع سنوات ونصف .. وانتهى الأمر .
- هناك أشياء لا تنتهي في القلب أبداً.
- تحاكمينني على شيء لست مسئولاً عنه وحدث قبل أن نلتقي أنا وأنت بسنوات ؟
- أنا لا أحاكمك .. أنا فقط أضع حداً لعملية خداع قد تمتد ثم تنتهي بجرح جديد .. لقد كذبت عليَّ وأنت تؤكد عدم وجود شيء إطلاقاً .. ثم عدت فقلت كان هناك شيء من طرف واحد .. ثم أكملت فقلت إن ذلك حدث وانتهى قبل أن تعرفني .. وما خفي كان أعظم .. فما دمت تجيد الكذب فأنت معتاد عليه .. وستظل تمارسه حتى النهاية .

بقدر إحساسه بحصارها له ، شعر بالغضب لتقمصها دور القديسة ..

- مهلاً مهلاً ! .. لو أني أخذت نفس منطقك .. ألا يعطيني الحق في سؤالك الذي تتهربين دائماً من الإجابة عليه حول ارتباطك بخالد الغندور ؟ .. وألا يسمح لي بسؤالك : كيف تستمرين في الجمع بيني وبينه ؟ .. لقد احترمت خصوصيتك يا فريدة .. واحترمت لحظات ضعفك أيضاً .. ولم أحاول أن أجلدك كما تفعلين معي الآن .. !

امتد الصمت فترة حتى شك في أن الاتصال قد انقطع :

- آلو .. هل تسمعينني ؟
- نعم أسمعك

ولكنه شعر أن صوتها قد تغير .. أصبح واهنا .. مع رنة حزن تأتي من بئر عميق.

- قد تكون محقاً .. بل أنت محق فعلاً .. أنا إنسانة سيئة ولست جديرة بك !

قلت لك أنت إنسان عظيم وأنا أعنيها .. وليتك ظهرت في حياتي قبل ذلك .. قبل أن أغرق .. أنا أغرق يا شوقي (وارتجف صوتها وبدت وكأنها ستجهش بالبكاء) .. لكنني لم أكذب عليك .. ولم أخدعك .. قلت لك منذ البداية أن هناك مشكلة بيني وبينه .. لم أفصح لأنني أشعر بالعار .. ولا أحب لأحد أن يحمل تبعة وزري .. لكنني .. لكنني أحببتك .. اليوم فقط تأكدت .. وأنا أرى امرأة أخرى تتربص لاستعادتك .. قل لي يا شوقي بحق .. هل تحبني ؟

- طبعاً أحبك .. أحبك جداً .. ألا يخبرك قلبك ؟ .. ولكنني لا أفهمك .. تتحدثين عن الغرق .. والعار .. كلام كبير جداً يجعلني أتوه .. وأنت مصممة على الكتمان .. ومن الآن لن أسمح لك بالكتمان أو بجلد ذاتك أو الغرق .. لابد أن نتقابل في أسرع وقت .. ليكن غداً .. ما رأيك ؟
- موافقة .

قالتها بحماس وبلا تردد ، وبصوت ذهبت عنه رنة الحزن ، ثم ضحكت كطفلة وكأنها شخص آخر غير التي كانت تبكي قبل لحظات .

- لماذا تضحكين ؟ .. حيَّرتيني يا بنت الإيه !
- ألم تقل إنك تحبني جداً ؟
- وما المضحك في ذلك ؟
- إنها أول مرة تقولها .. وأول مرة أراك تعلن الوصاية الأبوية عليَّ وتقول لن أسمح لك !
- وهل يضحكك ذلك أم يغضبك ؟
- بل يسعدني .. لأنك ستكون مسئولاً عني .. إنني احتاج الآن إلى ذلك .. أحتاج إلى أحد يحميني من نفسي .
- من نفسك كيف ؟
- غداً نتحدث في كل شيء .. بشرط أن تحقق ما وعدتني به من قبل .. بزيارة جامع المؤيد شيخ وأن تحكي لي حكايته مع إبنه .. أكاد أجن لأعرف كيف استطاع أن يقتل ابنه الذي سيرثه!

بدا مطلبها شديد الغرابة في هذا التوقيت ، كانقلاب ١٨٠ درجة على حالتها النفسية منذ ثوان .. لكن ما وجه الغرابة ؟ .. أليست هي الطفلة فريده ؟

- ماشي ! .. سنذهب بعد ان ننهي حديثنا في قهوة الفيشاوي .. إذن فموعدنا الساعة الرابعة بعد أن ترجعي من شغلك .. والآن عليك بالنوم مبكراً لتقومي في الصباح منتعشة .. أوكي ؟ .. تصبحين على خير .

(١٨)

- **١ أكتوبر ٧٦.**

صباح اليوم التالي طلب من السكرتير محروس أن يبلغ كل من يأتي من الفنانين بأن لدينا اجتماعاً في الساعة ١٢ ظهراً بمرسم الفنان مصطفى مسعود . كان شوقي قد اتصل به تليفونياً بمنزله ليلة أمس . وأحاطه بما جرى في المقابلة مع قدري بيه بمكتبه ، واتفقا بعد مناقشة طويلة على عقد اجتماع لفناني المسافرخانة اليوم بمرسمه للتشاور في الأمر . كان يعرف أنهم سيختلفون ، لهذا حرص على أن يلتقي بكل من يتاح له مقابلته على حدة . بدأ بأحمد خليل صاحب المرسم المقابل لمرسمه ، وهما أصدقاء وزملاء دراسة وإن كان يسبقه في الكلية بعامين . وجد عنده الفنان عباس مرتضى . وكلاهما مدرسان بالكلية ، عبَّرا عن احتقارهما لفعل مرسي الحسيني الذي استنتج أنه كاتب الشكوى ، وتباريا في إظهار مواقفة السيئة في مناسبات مختلفة تخص عمله كمدير للمعارض والمتاحف أو خارج الوظيفة ، واتفقا على أن شوقي كان يمكنه مسايرة رئيس الهيئة بذكاء يجنبه هذا الصدام ولا يعطيه فرصة مجانية لإبعاده عن المسافرخانة ، وفي نفس الوقت أيَّدا رأيه في قدري بيه كرجل غشوم وغبي و « وِدَني » يفتح أذنه لكل وشاية ، وسلطوي أحمق يتباهى بأنه محسوب الرئيس السادات ، وكاره لكل من يختلف معه وأسير لشلة الفساد التي يسهر مع أفرادها بمنزله يرسمون له الخطط والمؤامرات . وقال مرتضى :

- ولو طال أن يزج بك في السجن كما يفعل السادات فلن يتردد .

وقال خليل :

- لا لن يفعل .. بعد أن كشفه شوقي في موضوع الريبورتاج الصحفي ، فهو يعرف علاقته القوية بالمجلة ، وكيف يمكن أن تواصل الحملة ضده ، لهذا قد يرتب لشيء آخر لعقابه .

قال مرتضى :

- وهل سنسكت لو فعل ضدك شيئاً من ذلك ؟

قال خليل :

- لا طبعاً .. ساعتها لابد من عمل شيء ما .
- مثل ماذا ؟
- نصدر بياناً مثلاً باسم فناني المسافرخانة نعلن فيه تمسكنا لشوقي مديراً للقصر .
- أتظن أنه سيستجيب ؟ .. ربما يزداد عناداً ، بل ربما ينقلب ضدنا أيضاً.
- وهل نحن موظفون عنده حتى يعاقبنا ؟
- سيجد أي ذريعة لسحب المراسم منا .. والبركة فيك ياسي شوقي .. فأنت الذي فتحت الباب لوضع لائحة جديدة لحيازة المراسم ، ويمكن أن يكون هذا مدخل قدري لوضع شروط لا تنطبق علينا ، ليأتي بالمُوالين له .

قال شوقي :

- بالعكس .. مشروع اللائحة الذي قدمته يحمي الفنانين من مثل هذه الممارسات الاستبدادية ، بضوابط قانونية ملزمة ، مثله مثل أي مؤجر لمكان .. له حقوق وضمانات وعليه التزامات .. والمستفيد هو الفنان الجاد .

وقام للانصراف وقال قبل خروجه :

- على كلٍ فكِّرا في رأي نتفق عليه في اجتماع الساعة ١٢ .. وليت الأستاذ حامد ندا يحضر معنا ، فسيكون لرأيه وزن يُعمل له ألف حساب .

قال خليل : ليس مؤكداً حضوره اليوم .. لكن يمكننا إشراكه معنا فيما بعد .

خرج شوقي وهو يشعر بعدم الارتياح لما يمكن حدوثه في الاجتماع . وقبل أن يدخل مرسمه رأى الفنان سمير تادرس قادماً .. اطمأن إلى مجيئه ، فهو أقرب الفنانين بالقصر إلى موقفه ، وأكثرهم كرها للنفاق والتزلف .. قال سمير :

- أبلغوني أن عندنا اجتماعاً .. ما الموضوع ؟

وبعد أن استمع إلى موجز لما جرى حتى الآن أبدى غضبه الشديد من كل العصابة كما سمَّاهم ، وأكد أن الحل لا يبدأ من هنا بل من أتيليه القاهرة ، فواجبنا فضحهم وتجريسهم وقطع الطريق عليهم قبل أن يُقْدموا على فعل شيء .. وقال لشوقي :

- لو أبعدوك عن القصر فساغادره فوراً .. لن أقبل البقاء تحت عيون الناضورجية ووصاية السلطة .

وبقيا بمرسمه حتى أزف موعد الاجتماع . ومرا على خليل فوجدا مرتضى لا يزال عنده ، فاصطحباهما إلى مرسم الفنان مصطفى مسعود ، وهناك وجدا في انتظارهم مفاجأة ، جعلتهم – بعد تبادل التحية والمجاملات – يجلسون صامتين ، ثم يتشاغلون بالكلام في فوارغ الأمور دون الاقتراب من الموضوع الذي جاءوا من أجله ..

كان مرسى الحسيني جالساً بجوار مصطفى مسعود ، وقد حرص على الحضور قبل الجميع ، واضطجع على الكنبة بكل ارتياح كصاحب بيت . وأخيرا انطلق مصطفى متقمصاً دور شيخ القبيلة بحكمته و وقاره ، فتحدث عن ضرورة تمسكنا بالوحدة والترابط بيننا ، وأن نرتفع فوق المشكلات أيا كانت ، حفاظاً على هذا الكيان العظيم وهو المسافرخانة ، الذي يحسدنا عليه الجميع ، وقد تؤدي الخلافات والصراعات بيننا إلى أن يُنتزع من أيدينا ، لأن هيئة الآثار لا يسعدها بالطبع أن يخرج القصر من يدها ، لذلك فهي تتصيد لنا أية أخطاء للمطالبة بإخلائه .. وأننا هنا جميعاً أخوة ولابد أن نكون واجهة مشرِّفة لهيئة الفنون بل لمصر أمام العالم . لأن هذه التجربة، أي رعاية الدولة للفنانين ، بتزويدهم بالمراسم وإعطائهم منح التفرغ للفن ، تعد صورة حضارية لم يتحقق مثلها في كثير من الدول المتحضرة .

وطوال هذه الخطبة كان الجميع صامتين في انتظار أن يفتح مصطفى الذي استضافهم في مرسمه موضوع النقاش ، أو على الأقل يدعو الحاضرين لإبداء آرائهم، لكنه كان بين جملة وأخرى يرمي بنظره إلى مرسى ، وكأنما ليطمئن على أنه يتبع الطريق المستقيم ، فيقابلها مرسي بهز رأسه مؤَمِّناً على كلامه وهو يرسم ابتسامة الرضا والمسالمة .

انتفض سمير وهو جالس بجوار شوقي متحفزا للكلام بعد أن ضاق صدره بما سمعه ، فغمزه شوقي في ركبته حتى لا يفجر صداماً ينتظره مرسي ليوظفه لمآربه ، خاصة بعد أن كشف مصطفى بوضوح عن موقفه الحقيقي المساند لرئيس الهيئة وبقاء الأوضاع على حالها . فقام سمير مغادراً المجلس ومتذرعاً بأن لديه ما يعمله بمرسمه ، وبعد قليل فعل مثله خليل ومرتضى ، واخيراً وقف شوقي شاكراً لمصطفى كرم الضيافة وحسن الإدارة للاجتماع ، فتجاهل مصطفى ما يقصده أو يسخر منه ، ودعاه للجلوس وتصفية ما بينه وبين مرسى لتعود المياه لمجاريها .. فرد قائلاً :

- لم تكن هناك مياه أصلاً يا أستاذنا حتى تعود !
- طيب اقعد نشرب الشاي على الأقل .
- خيرك سابق يا باشا ... سلام !

(١٩)

كان عليه أن يلتقي بعامر في مرسمه بوكالة الغوري ، علم من عم إسماعيل أنه لم يحضر بعد ، ولسبب ما أخبره أن مدام أحلام في مرسمها . قرر الصعود إليها لحسم ما أثارته في حضور فريدة بالأمس . استقبلته بمودة وكأن شيئاً لم يكن وهي تقول :

- ما هذا النور ؟ .. أخيراً تنازلت وجئت تزورني !

حكى لها بسرعة ما حدث مع قدري عثمان في الهيئة ، وكما كان يتوقع لامته على تحديه له . آثر عدم الدخول معها في جدل عقيم ، وقرر فتح الموضوع مباشرة.

صارحها بأن ما بينهما قد انتهى منذ أكثر من سنة ولن يعود . وأنه لم يخنها بأي معنى من المعاني ، بل هي التي كانت تخون زوجها قبل وفاته ، وأن ضميره لم يتقبل فكرة أن تخدعه بقولها أنها في المرسم تستعد لمعرض خاص يستدعي بقاءها لوقت متأخر ، بينما هي معه في مرسمه .. قاطعته بحدة :

- لم نكن نفعل شيئاً معيباً .. وكان وجودي معك برغبتك ومزاجك .. كنت تعاني من الوحدة والاحتياج بعد أن هجرتك زوجتك وسافرت ، وكنت أنا أعاني من نفس الوضع .. وكنت تعرف جيداً أنني وحازم منفصلان نفسياً وجسدياً لسنوات ، وأنه بلغ من الضعف والهوان إلى حد أنه كان يعرف بعلاقتي بك لكنه قَبِل بقائي معه في مذلة .. كان عاجزاً ومريضاً يخشى أن يموت لو تركته .. وقد صارحتُك بذلك في حينه ولم تعترض .. حتى أنني سمحت لنفسي بأن أذكر لك تفاصيل بالغة الخصوصية ، منها أن فراش الزوجية أصبح مرتفعاً من وسطه ، لطول فترة انفصالنا الجسدي ، وعدم اقترابنا من بعضنا البعض حتى هبط حشو القطن من الجانبين ، وقد أبديت تفهمك لذلك .. فما الذي جعلك فجأة تتقمص دور القديس وتهرب من الخطيئة ؟ علماً بأنك بمجرد خروجك من السجن جئتني في هذا المكان بمنتهى الشوق، وكانت زوجتك لا تزال في عصمتك ؟
- كان حضورك دون سائر الفنانين إلى المحكمة يوم محاكمتي طوقاً أسرتني به، ولم يكن دافعي عندما جئتك أن تكون بيننا علاقة جسدية ، بل كنت أعبر عن أمتناني لهذه اللفتة الإنسانية الشجاعة منك ، مع علمي بعدم اقتناعك بنشاطي السياسي الذي قادني إلى السجن .
- إذن ما الذي حوَّلك فجأة بعيداً عني ؟
- تذكرين أن العلاقة بيننا ظلت شبه مجمدة منذ اليوم الذي تشيرين إليه وبين تاريخ انفصالي عن زوجتي وهي أكثر من ثلاث سنوات ، رغم أننا – أنا وهي – كنا قد وصلنا إلى نقطة تشبه ما كان بينك وبين زوجك ، لم أكن بالفعل قادراً على خيانتها حتى بعد أتفاقنا على الطلاق ، وظلت العلاقة بيني وبينك

مجرد صداقة ، ولا يتعدى اللقاء بيننا الجلوس على كرسيين متقابلين ، ولم أقل لك ولو مرة واحدة أني أحبك .

- ماذا تسمى إذن جلوسك معي بالساعات عندك أو عندي ؟ .. ودَعْكَ من حكاية الصداقة تلك !
- أسميه كما سميتيه أنتِ الآن : شعور بالوحدة والاحتجاج.. وكان ذلك شعوراً متبادلاً كما قلتِ أنتِ . طوال حياتي كنت أرفض ما ليس من حقي مهما احتياجي إليه ، وأنتِ لم تكوني في ذلك الوقت من حقي مهما كانت مبرراتك، فآثرتُ كبح احتياجي ، ولما عجزتُ عن ذلك ابتعدت واكتفيت بالصداقة البريئة .
- أتُعيَّرني بأنني التي كنت غير بريئة ؟
- لم أقل ذلك .. بل قلت إن احتياجنا لبعضنا البعض كان متبادلاً ، لكنني استطعت كبح هذا الاحتياج .. ومع ذلك فإن ابتعادي النهائي عنك بعد خروجي من السجن في الحبسة الأخيرة ربيع العام الماضي كان بسبب آخر تماماً .. أنسيتيه ؟
- فكَّرني .
- عندما طلب منك حازم السفر معه إلى فرنسا كي يجري عملية خطيرة في القلب ورفضتِ طلبه ، فتوسل إليكِ أن تبقي إلى جواره في أيامه الأخيرة ، لأنه يشعر بأنه لن يخرج من العملية الجراحية حياً ، فتخلَّيتِ عنه ، وحدث بالفعل ما توقّعه ، إذ عاد من هناك جثة في صندوق ، وأتيتِ إليَّ بعدها تودين استئناف العلاقة ، خاصة وقد تم انفصالي عن زوجتي ... وجدتني في مواجهة مريرة مع نفسي .. فاحتقرتها .. كيف أصل إلى هذه الخسة ؟!

انتقضت قائلة في تنمر :

- ماشي ! .. أنا خسيسة يا سيدي .. ماذا تريد مني اليوم ؟ .. أليست معك اليوم « مُزَّة » جديدة ؟ .. إشبع بها !
- هذا أمر لا يخصك .. وليس من حقك التصرف معها مثلما فعلت بالأمس .

- ما الذي فعلته بالأمس ؟ .. هل كنت تريدني أن آخذها بالأحضان والقبلات ؟
- كل ما أريده منك أن تخرجيني من دماغك وأن تتركيني أعيش في سلام .
- سوف تعيش يا شوقي ولكن بدون سلام ، ليس بسببي بل بسبب غرورك الذي يصور لك أنك مناضل بطل سيُصلح الكون .. وأؤكد لك أنك لن تُصلح أي شيء .. ولا حتى ستصبح فنانا له قيمة .. وتلقَّ وعدك من قدري الذي حاولت بالأمس أن تمارس معه دور البطل .

ثبَّت عليها نظره مذهولا لفترة طويلة وقد خرس الكلام . نهض متجهاً إلى الباب بلا أي كلمة .

(٢٠)

- **أكتوبر ٧٦** .

لا يزال باقياً أكثر من ساعة على موعد فريدة . ذهب للقاء عامر آملاً أن يكون قد حضر فهو على موعد معه . كان بحاجة إلى الفضفضة إليه عما يجثم على صدره واستشارته فيما يفعل ، لكنه تراجع في منتصف الممر المؤدي إلى مرسمه ، واستدار إلى الشارع واتخذ طريقه إلى مقهى الفيشاوي ، فضل أن ينفرد بنفسه في هدوء كي يلملم أجزاءه المبعثرة تحت ريح ترابية هوجاء.

امتص الجو التراثي في المقهى ومشاهد السائحين بأزيائهم المتنوعة قدراً من توتره ، وقد اتخذ مكانه في الممر المتبقي أمام المقصورات الأثرية المتجاورة ، والمكان كله عبق بالدخان المعطر بروائح مختلفة . طلب لنفسه شيشة بطعم التفاح مع أنه ليس مدخناً ، ومع نفثات الدخان والسعال المتقطع كان ينفس عن بعض ضيقه ، أوحت إليه كركرة الماء المثلج في فقاعات كبيرة بزجاجة الشيشة بفكرة الغليان البارد ، وهي فكرة مستحيلة بالطبع ، لكنها قد تلائم حالته النفسية ، فبالرغم من أنه أصبح داخل منطقة الغليان في كل المواقف التي مرّ بها بالأمس واليوم .. من فريدة إلى أحلام .. من قدري بيه إلى فناني المسافرخانة ، فإن عليه أن يصبح

قادراً على البقاء خارج الغلَّاية والنظر إليها من أعلى ، وكأن الغليان يحدث لشخص آخر ، وبذلك يمكنه التفكير في الموضوع من زوايا مختلفة وبقدر من الحيادية كلما استطاع.

انتهى إلى أن فريدة هي عنصر الأمان الوحيد وسط هذه الدوامات ، فما كان له أن يكون بمثل هذا الحسم مع أحلام لو لم تكن فريدة ماثلة أمامه كخط الدفاع، وما كان ليتحمل الخذلان المرير من زملاء المسافرخانة لولا اطمئنانه إلى أنه سيلقاها اليوم ويتقوَّى بتأييدها لموقفة تجاههم وتجاه «قدري» من قبلهم ومن بعدهم ، تبقى فقط مشكلة خطيبها عالقة بينهما ، ولديه إحساس بأنها منتهية موضوعياً بالنسبة لها ، قد تحتاج إلى بعض الحسم والمواجهة سوف يتفقان عليهما بعد قليل .

وكأنما استدعاها بتيار الوعي ، إذ وجدها واقفة أمامه كأنها تستمع إلى خواطره الدائرة حولها . قالت تؤنبه في مداعبة ساخرة :

- ما شاء الله ! .. أصبحنا ندخن أيضاً !!

ركن الشيشة جانباً وقام يرحب بها في لهفة ..

- إجلسي .. هل أطلب لك « معسل » ؟
- كأن هذا ما ينقصني ! .. سأموت من الحر ومن الجوع .. جئت من الشغل إلى هنا رأساً .
- حالاً.. الهانم تحب كشري أو سندوتشات طعمية ؟ .. المطعم بجوارنا مباشرة.
- دعني أعزمك هذه المرة على طعمية .. لقد قبضت مرتبي منذ يومين .
- لا يصح .. أنا الذي عزمتك .

استأذنها للذهاب إلى محل الطعمية ، فيما راحت تدور ببصرها تستكشف المكان المزدحم بالأجانب أكثر من المصريين ، وتتأمل صورة الفيشاوي الكبير مؤسس المقهى بالأبيض والأسود بطربوشه الطويل ، معلقة بالقرب منها تطل من الماضي السحيق ، لكن صاحبها يبدو حاضراً يراقب كل ما يجري على مر السنين . راحت تتابع الحركة الدائبة للجرسونات حاملين صواني فضية وفوقها برادات الشاي المكوَّرة

من الصاج الأبيض والأزرق والمبرقش ، بجانب الأكواب الصغيرة عربية الطراز رشيقة الخصر بحوافها المذهبة . تعودت سريعاً على المكان وعلى رائحة الشيشة التي تحبها لكنها لا تدخنها .

عاد شوقي بنشاط حاملاً كيساً كبيراً ، وأخرج كماً معتبراً من السندوتشات ، خفَّ إليهما الجرسون بزجاجة مياه معدنية وكوبين فارغين .

- هل تفضلين الشاي أم الكوكاكولا مع الأكل ؟
- الفيشاوي يعني الشاي .. أليس كذلك ؟

أبلغ الجرسون بالطلب ، وبدآ معاً تناول السندوتشات بنهم ، وفي أثناء ذلك قال :

- فكرت أن ندخل إحدى المقصورات الصغيرة لنجلس على راحتنا ، لكن الجو حار بالداخل .

أيَّدته في الجلوس بالخارج قائلة :

- أحب رؤية الناس وأعيش روح المكان بالخارج .

سألها بعد الانتهاء من طعامها :

- هل نمتِ جيداً ليلة أمس ؟
- جداً .. لأول مرة أنام بهذا العمق منذ فترة طويلة .
- والسبب ؟
- ألا تعرف ؟ .. بسببك أنت .. لقد أعطيتني التعليمات بالنوم مبكراً ، ونفَّذت فوراً . (وأكملت وقد تضرَّج خدَّها) .. وكنت سعيدة !
- هكذا تكون الطاعة !
- لا تغتر بنفسك هكذا .. إنما امتثلت لسبب آخر ..
- وهو ؟
- أنسيت ؟ .. لأنك قلت لي .. لأول مرة .. أحبك !
- سأقولها كل يوم لتنامي مبكرة .
- فقط لهذا السبب ؟

- لألف سبب .. آخرها هذا .
- أتعرف ؟ .. لقد حكيت عنك لسارَّة لأول مرة .
- من هي سارة ؟
- زميلتي في الشقة .. الإنسانة الوحيدة التي تحتويني ، وتحتملني أيضاً .. الدنيا لم تسعها من السعادة .. قالت لي أن هذا علاجي الوحيد .. شجعتني بقوة على حسم ترددي في موضوع خالد .
- طيب .. وماذا قررت ؟
- سنتكلم في ذلك بعد أن تحكي لي ما فعلته اليوم .

حكى لها ملخصاً بما دار في اجتماعات المسافرخانة ، وتجنب الإشارة إلى مقابلته مع أحلام . كان على وشك الحديث عنها ، لكنه أمسك لسانه ، مقدراً أن المرأة هي المرأة .. فلن تتفهم جوهر الموضوع بل ستتشبث بالتفاصيل ، وقد ينتهي الامر بأزمة جديدة . المهم أنه حسم المسألة مع أحلام بغير رجعة .. وهو المطلوب . أقلقها موقف الفنانين وخاصة مصطفى مسعود .. قال :

- كانت صدمتي كبيرة فيه .. إن دعوته لمرسي للحضور ليست بريئة ، صحيح أنني نسيت أثناء المكالمة التليفونية معه أن أحذره من دعوته ، لكنه يعرف بلا شك خطورة وجوده في الاجتماع وهو المتهم بإثارة هذه الفتنة .. يعني أنه دعاه متعمداً إحراجي وإحراج الجميع .. أراد إفشال أي عمل مشترك لتحجيم وجوده .
- وماذا ستفعل ؟
- ليس أمي إلا انتظار رد الفعل من رئيس الهيئة ، وأتوقع قرارا بنقلي إلى مكان آخر .. إن لم يكن العقاب أشد !

أطرقت في حالة من الإحباط ، وهو بدوره لم يجد ما يقوله ، فخيم الصمت فترة ، قطعها أخيراً محاولاً التخفيف عنها :

- لا تقلقي .. هي جولة صعبة لكنها ليست نهاية المعركة .. هناك ملفات كثيرة لم تفتح .. سأضطر إلى فتحها في الصحافة .. لست الذي يستسلم بهذه السهولة !

استمرت في صمتها وهي تقطب حاجبيها .. هذا التغيير البادي عليها يعرفه جيدا ، إنه بداية الغوص في البئر كلما داهمها شيء مقبض.

- أنا آسف إذا كنت سببت لك هذا الضيق .

سمعها تهمهم في صوت إلتقطه بالكاد ، وكأنها تناجي نفسها :

- لماذا ؟ .. لماذا يا رب كلما بدأت الدنيا تنفك في وجهي وتبتسم لي بأمل جديد أجدها تنقلب فجأة لتأخذني إلى الغرق في القاع ؟!
- ها أنت تعودين ثانية إلى حديث الغرق .. أقول لك إنها مجرد جولة في معركة طويلة .. إنها ليست المرة الأولى بالنسبة إلى .. رأيت الأسوأ منها وعبرت .
- لا أتحدث عنك .. أنا واثقة من أنك ستعبُر لأنك قوي .. لكنني لست كذلك .. أنا ضعيفة جداً ومهددة بالوقوع في أي لحظة .
- ما معنى هذه الكلام ؟

عادت إلى الإطراق والصمت فترة أطول ، ثم رفعت رأسها قائلة بحزم :

- اسمع يا شوقي .. أنا مريضة .
- سلامتك .. ممن تشْكين ؟
- ليس مرضاً عضوياً .. أنا أتردد على طبيب نفسي .. قال إن عندي بوادر اكتئاب .. وهو من النوع الخطير الذي قد يصل إلى إيذاء النفس .

انقبض صدره حتى عجز عن النطق . أصبح للصمت سطوة تهيمن على جلستهما . استطاع الفكاك من سطوته ليقول :

- ألذلك علاقة بارتباطك بخالد الغندور ؟

بعد تردد قالت :

- المشكلة أنه لم يعد مجرد ارتباط .. بل أصبح عقدة لا تنفك .
- لا أفهم .. أرجوك أوضحي أكثر .

غيرت مسار الحديث قائلة :

- ألن نذهب إلى جامع المؤيد شيخ ؟
- طبعاً .. ولكننا لم نكمل حديثنا .
- يمكن أن نكمله في الطريق .. هيا بنا .

فكر أنه نفس أسلوبها في الهرب ، ثم يليها الدخول في حالة العزلة عما حولها ، قدَّر أنه السبب هذه المرة بما حكاه لها وتوقُّعُه للعقاب وأقله النقل من المسافرخانة . وهو أمر خطير فعلاً ، ولم يحاول مناقشته حتى مع نفسه بعد ، لكنه وجد في تغيير الموضوع والجو المحيط أفضل وسيلة لإخراجها من تلك الحالة . نهض ليدفع الحساب وسبقته هي إلى الطريق المؤدي إلى شارع الأزهر .

(٢١)

أمام سبيل نفيسة البيضا المقابل لجامع المؤيد شيخ وفقاً يتأملان واجهته شبه الدائرية بزخارفها النباتية والهندسية البديعة ، التي استُخدمت في تشكيلها خامات الحديد والنحاس والخشب والزجاج . شرح لها شوقي كيف كان السبيل بمثابة كُتَّاب لتحفيظ القرآن الكريم ومدرسة لتعليم القراءة والكتابة وتدريس الدين ، ودار للضيافة ومطعم للفقراء ، ومؤسسة للتكافل الاجتماعي ورعاية المحتاجين، يُنفق عليه من ريع وقف خيري لأحد الأمراء أو الأميرات أو الأثرياء من سيدات هذه الطبقة مثل نفيسة البيضا .. ويضم بئراً رائق الماء شديد النظافة ويتم تطهيره يومياً وفق نظام صارم للصيانة ، وبداخله عدة مبانٍ لسكني العائلات الفقيرة بإيجار رمزي ينفق عائده على خدمات السبيل . إنه تطبيق لرافد عميق الدلالة في الدين الإسلامي لم يعد قائماً إلا نادراً . كانت فريدة صامتة تماماً منذ خرجا من المقهى . وقد ركزت كل طاقتها في الاستماع لما يقوله ، لذلك فقد شعر بارتياح شديد حين أبدت اهتماما لأول مرة

بالتعليق على ما تراه ، ما يدل على بدء تغيير مزاجها وانشراح صدرها ، وهو مؤشر على انزياح الغُمة .. قالت :

- ما يدهشني أن المبنى لا يتخذ شكل بناء عادي لتأدية وظيفة نفعية فقط ، بل يحرص مصمِّمه على إضفاء فخامة بالغة بمستوى لا يقل عن مستوى أي مسجد أو قصر ، بل قد يكون أكثر فخامة وجمالاً . ألديك تفسير لذلك ؟
- يخيل إلى أن الأعمال الخيرية في الإسلام لا تعرف الطبقية ولا تقتصر على المنفعة .. ولا تفرق بين إشباع الضرورة المادية وإشباع الحاجة الروحية والجمالية ، كما أنها تسمو على فكرة المن بالمساعدات على المحتاجين ، بما يجعل المبنى المخصص لهم فقيراً على قدر حالهم ، بل كان هناك حرص على إيفاء حقهم في الجمال مثل الأثرياء ، حتى ينافس مبناهم بجماله أروع العمائر .

قالت : ومن هي نفيسة البيضا التي بنت هذا السبيل العظيم ؟

- كان اسمها نفيسة قادن في أواخر عصر الدولة المملوكية ، وكانت في الأصل جارية شركسية ، ثم نالت حريتها وتزوجت تباعاً من أثنين من أمراء المماليك هما مراد بك وعلى بك الكبير ، وعُرفت بجمالها المبهر حتى أن كبار الفنانين المستشرقين خلدوها في لوحاتهم ، ولُقِّبت بأم المماليك لبِرِّها بمن بقى من دولتهم .. لكني أتصور أن المصرين هم من لقبوها بهذه الصفة ، لأياديها البيضاء على المحتاجين.

انتقلا إلى الجهة المقابلة حيث جامع المؤيد شيخ ، وأشار إلى مئذنته التي تعلو فوق بوابة المتولي الشامخة ، وكأنها علامة تشير إلى المدخل الجنوبي للقاهرة الفاطمية والمملوكية .

- ولماذا سميت ببوابة المتولي ؟
- نسبة إلى متولى الحسبة أو جابي رسوم التجارة في السوق ، وكان يتخذ مكانه عند البوابة بعد أن يجوب السوق بحصانه وسوطه ومساعديه من العسس لفرض سطوته وجمع أمواله .

صعدا الدرجات الحجرية المرتفعة أمام بوابة الجامع بالغة الارتفاع والأبهة . طافا بين إيوانات الجامع الرحبة ، حيث تقابلك فوق جدرانها الشاهقة زخارف تمتد حتى السقف بكل نفائس الوحدات الهندسية والنباتية في العصر المملوكي ، وتخطف بصرك المحاريب المزدانة بقطع الفسيفساء الدقيقة ، والأعتاب الرخامية تُتوِّجها فوق الحَنْيات الغائرة في الجدران ، في لوحات تحاكي صورة الجنة أمام المصلين ، فلا ينفصل خشوع الإيمان عن حب الجمال .

لمح حارس الأثر قادماً ، فمال به جانباً ونفحه بقشيشاً اعتاد أن يمنحه إياه كلما جاء بضيوف ، واستأذنه أن يصعدا إلى السطح والمئذنة ليطلاً على القاهرة من أعلى ، فوافق بشرط أن ينزلا قبل صلاة المغرب التي ستحل بعد نصف ساعة . حكي لها على عجل حكاية السلطان مؤيد شيخ كما رواها له صديقه جمال الغيطاني حين صحبه في إحدى جولاتهما بالمنطقة ، وإن لم يستطع أن يتوصل إلى مرجع تاريخي يوثقها ولم تتح له الفرصة للرجوع إلى جمال بشأنها ، مما يجعله غير متأكد مما إذا كانت قصة حقيقية أم أسطورة خيالية .. كان مؤيد شيخ مملوكاً سجيناً في سجن « المقشرة » الرهيب – مكان الجامع الآن– بمؤامرة من أمراء المماليك حتى يحُولوا بينه وبين السلطنة التي كانت من حقه ، وكيف عانى بداخله أهوالا وحشية ، جعلته يقسم بأنه لو كُتبت له النجاة ونُصِّب سلطاناً فسيهدم هذا السجن ويبني مكانه أعظم جامع في المحروسة ، وحدثت المعجزة بهروبه من السجن بمساعدة بعض أمرائه ، واسترد السلطنة وقرر الوفاء بنذره ، حتى ولو بجباية الأموال وخلع الاعمدة من كل مكان ، بل وخلع أعتاب الأبواب من بيوت الناس ، مستخدماً كل أنواع المظالم ، وأستطاع الانفراد بالحكم حتى بلغ من الكبر عتياً ، وكان ابنه الأمير إبراهيم فارساً مغواراً قاد الجيوش في معارك منتصرة ، وأحبه الشعب وطالب بأن يتولى السلطنة بدلاً من أبيه الذي بات أقرب إلى الخَرَف ، ما جعل الخوف يدب في قلب السلطان من انتزاع ابنه الحكم من يده ، فأرسله في تجريدة عسكرية إلى الشام للقضاء على المتمردين هناك ، وكان يتوقع ألا يعود ، لكنه عاد منتصراً ، وقبل وصوله استأجر من يدس له سماً بطيئاً لا تظهر منه أعراض التسمم على جسمه ، وحال وصوله إلى القاهرة – وقد سبقته أنباء انتصاره – خرج المصريون في مهرجان

شعبي عظيم وهتفوا باسمه سلطاناً ، لكنه اعتكف في قصره عليلاً ، وحار الأطباء في تشخيص علته أسابيع طويلة ، ودعاء الشعب يتعالى بالشفاء له ، إلى أن مات وأبوه بجواره يبكيه بحرقة ، وبني له مقبرة بداخل الجامع إلى جوار مقبرته التي سيدفن فيها حين يجيء أجله ، وقيل إنه بعد ذلك نزل إلى بحر النيل وظل سابحاً من شط بولاق حتى بر إمبابة وهو يلوَّح للجماهير على امتداد الشاطئ.

بدت مظاهر الاكتئاب على ملامح فريدة ، ولم تعد راغبة في الصعود إلى سطح الجامع ثم إلى المئذنة ، لكن شوقي أثار فضولها بأن منظر القاهرة من أعلى لا يعوض ، وكان على حق ، إذ كان بوسعها أن تشاهد القاهرة كبانوراما ضبابية مذهلة في نور ذهبي يخالط لون الشفق . والشمس تتأهب للمغيب ، ورغم ذلك كان يمكنها أن ترى إلى مدى أبعد حتى اهرامات الجيزة . قال لها وقد لمس استجابتها :

- تعالى نكمل الجولة بصعود المئذنة .. ستكون الرؤية أروع .

امتثلت بدون اقتناع كامل ، فيما لا تزال تحتل مخيلتها صورة السلطان القاتل لولده من أجل الحكم . كان الظلام داخل المئذنة حالكاً ، وصعود الدرجات الحجرية بداخلها بالغ المشقة لضيقها ودورانها الحلزوني وهي تتصاعد فتصاب فريدة بالدوار . وعندما بلغت الدرجة الأخيرة انفجر في مواجهتها فيضان من النور الذهبي المبهر ، فشهقت وهي تتدارك انفاسها اللاهثة ، ولولا مساعدتها بإمساكه ليدها لفقدت توازنها .

في شرفة المئذنة الضيقة وقفت كالمسحورة ، والمباني من اسفلها كعلب الكبريت ، أو قطع الفسيفساء . السماء أكثر نصوعاً رغم امتزاج لون الشفق باللازورد، والضباب يشف عن نورانية سرمدية تتماهى في لون البنفسج فوق أفق لا أول له ولا آخر ، وهي في قلب السماء كطائر انطلق من قفصه محلقاً في حرية بحجم الكون . تمثلت نفسها هذا الطائر حتى مالت بجسدها كله لا تبالي بمخاطر السقوط ، بل كانت بالفعل تتمناه وتحلم به وقد بلغت ذروة الصفاء الروحي ، اشتاقت لأن يكون هذا المشهد آخر ما تراه في الدنيا قبل الصعود .. إنها لحظة الخلاص من جحيم يطاردها إلى ملاذ كسدرة المنتهى . مالت بكل نصفها الأعلى شاعرة بنفسها في خفة الريشة . كانت منفصلة عن شوقي وعن المئذنة وعن الجامع والدنيا جميعاً ،

بل عن بشريتها .. إذ تحولت إلى طائر تتملكه رغبة طاغية في أن يحلق بعيداً بعيداً إلى عالم بغير قهر أو خداع أو موت .. إلى أبدية بلا نهاية .

تشبث شوقي بجذعها بكل ما يملك من قوة وهو يصرخ في هلع .

- يا مجنونة !

وهاله اكتشافه المفاجئ أنها كانت جادة في اندفاعها الجنوني نحو القفز من شرفة المئذنة . احتضنها في رعب حقيقي . كانت كل خلية فيها تنتفض . أحس بدفء جسدها وقد تلاشى عنده أي إحساس بأنوثتها . لم تكن في حضنه امرأة بل كان يحس الموت مجسداً ، أو يراه جسداً ينتزعه من قبضة الموت .

استكانت على صدره ، وأخذت أنفاسها تنتظم شيئاً فشيئاً وهي تعود إلى بشريتها وإلى الشعور الواقعي بمكانها وزمانها وبما حولها ، ثم انخرطت في بكاء ذي شهيق مرتفع ، بينما يدوي صوت أذان المغرب من الميكروفون المثبت على شرفة المئذنة ، بديلاً عن المؤذن الإنسان ، الذي انقرض مع انتشار مكبرات الصوت .

(٢٢)

- **أكتوبر ١٩٩٨.**

أسرع الصحفي نادر عماد الدين إلى أتيليه القاهرة ، ليلحق بالمؤتمر الصحفي الذي دعا إليه الفنان فؤاد عرابي ، قبل افتتاح المعرض التضامني معه بأعمال الفنانين ، بعد إعلانه احتراق كل لوحاته بمرسمه في المسافرخانة ضمن الحريق الذي التهم القصر ، ليرد على ما نشر في بعض الصحف – وأولها التحقيق الصحفي الذي نشره نادر وأعلن فيه أن حرق اللوحات في المرسم إدعاء غير صحيح، مستنداً إلى حديث بينه وبين زوجته الأجنبية ذكرت فيه أنها نقلت كل أعماله من القصر قبل وقوع الحريق .. وصل نادر إلى المؤتمر الصحفي في اللحظة التي كان الفنان عرابي يشير إلى سوء الفهم لحديث الزوجة الانجليزية غير المتخصصة في الفن ، ولعدم إلمام نادر الكافي باللغة الانجليزية ، مما جعله يفهم حديثها فهما خاطئاً ،

وقال إنه كان قد بدأ بالفعل نقل جزء من أعماله من المرسم قبل الحريق ، وربما كان هذا الجزء هو ما أشارت إليه زوجته ، ولم يسعفه الوقت لنقل الجانب الأكبر منها قبل اندلاع الحريق .. وتساءل قائلاً :

- إذا كنت أدعي ذلك من أجل استدرار الشفقة والحصول على المال من عائد المعرض التضامني معي ، فهل أنا من الحماقة بحيث لا أستنتج أن أي شخص أو صديق سيزورني في بيتي أو أحد مراسمي سوف يجد به اللوحات التي أدعى ضياعها في الحريق ؟ .. وإلا فأين سأخفيها وإلى متى؟ ولو أخفيتها نهائياً فكأنني حكمت عليها بالإعدام .. ولا يفعل ذلك بالطبع إلا مجنون .. إنني لم أطلب إقامة هذا المعرض التضامني ، ولا أبتغي من ورائه مالاً أو شهرة .. لان مال الدنيا كلها لا يعوض الفنان عن حرق أعماله وهي قطعة منه ، كما أنني لا تنقصني الشهرة حتى أختلق قصة حرق المرسم واللوحات من أجلها .. بل كل ما أبتغيه مشاركة وجدانية من الناس ، فإنه لشيء رائع أن تجد هذه المشاركة الوجدانية في زمن عزَّت فيه هذه المشاركة .. إننا نزور المرضى وفي أيدينا باقات الورد التي لن يأكلها المرضى .. لكنها ترفع روحهم المعنوية وتشعرهم بأنهم ليسوا وحدهم .. وهذا ما يفعله زملائي وأصدقائي من الفنانين الأعزاء المحترمين حين يهدون لوحاتهم إلىَّ تعبيراً عن تضامنهم معي بديلاً عن باقات الورد .. فلماذا نسحقها بأقدامنا ونلطخ بالأحقاد معناها النبيل ؟! .. كل الشكر لجميع من واسوني وقدموا لي لمسة إنسانية في شكل لوحة أو وردة او حتى كلمة طيبة .

طلب نادر الكلمة ليقدم سؤالاً إلى الفنان قائلاً :

- سيادة الفنان فؤاد عرابي .. لنفترض أنني اختلقت ما كتبته في مقالي وأنا كاذب .. ولنفترض أيضاً أن السيدة المحترمة حرمكم لم تقصد ما نشرتُه على لسانها ، أو أنني لم أفهم ما قالته لعدم إلمامي باللغة الإنجليزية كما تقول . فما قولكم فيما ذكره الفنان عامر البحراوي مدير المسافرخانة من أنه متأكد

من أنكم وجميع الفنانين بالقصر قمتهم بإخلاء مراسمكم بالكامل قبل الحريق بشهور ؟

رد الفنان فؤاد عرابي :

- الأستاذ عامر البحراوي صديق وفنان قبل أن يكون مدير المسافرخانة ، ولا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام ، وحتى لو افترضنا جدلاً أنه قاله ، فإنه يتحدث عن فناني القصر بوجه عام وليس عني بوجه خاص . وكيف له أن يعرف وهو لم يكن يحضر إلى القصر في الفترة الأخيرة ؟.. فمن أين له أن يتأكد من أنني أخليت مرسمي قبل الحريق ؟ .. وأتحداه أن يذكر أنه رآني أو رأي زوجتي ونحن نخلي المرسم .

عاود نادر بسؤال آخر :

- وهل تشكك أيضاً في شهادة الأستاذ شوقي نعمان وكيل وزارة الثقافة ومدير المسافرخانة السابق التي نشرتها في التحقيق الصحفي ، وكنتُ معه في القصر في اليوم التالي للحريق . وتحدث بنفسه مع السيدة حرمكم وسمع ما قالته عن إخلاء مرسمكم قبل الحريق .. هل هو أيضاً لم يفهم كلامها لعدم معرفته بالإنجليزية ؟
- إسمح لي أقل لك إنك تحاول بشتى الطرق الوقيعة بين وبيني أصدقائي من كبار الفنانين .. ولو أرادوا إعلان رأيهم الذي تدعيه لكتبوه بأنفسهم بكل صراحة دون حاجة إلى وسيط .. إلى جانب أن الأستاذ شوقي ليس محايداً بالنسبة للمسافرخانة منذ كان مديراً له قبل عشرين عاماً .. وله موقف معروف بتحيزه ضد أسماء بعينها قد أكون أنا منهم .. وبالتالي فأنا أتحفظ على شهادته .. مع احترامي لدوره المهم في الحفاظ على الحرف التقليدية .. فيا ليته ينسى الماضي ويتفرغ لوظيفته .. فالماضي لا يعود ..

وعندما حاول نادر مواصلة طرح الأسئلة رفض الفنان قائلاً :

- فلنعط الفرصة لأحد آخر ..

وتعالت بين الحاضرين اعتراضات على نادر لانفراده بطرح الأسئلة ، وثارت ضجة في القاعة اعتراضاً على تحيزه ضد الفنان فؤاد عرابي .. فاضطر ناصر لالتزام الصمت .. ومع ذلك فلم يتقدم أحد بطرح أي سؤال لعدم وجود أي صحفي غيره .. وهنا أسرع الفنان بتوجيه الشكر للحاضرين وأعلن انتهاء المؤتمر الصحفي، في انتظار الالتقاء بالزوار في افتتاح المعرض غداً .

وانزوى نادر وحده أمام إحدى الموائد ، وبعد قليل أخذ بعض الحاضرين للمؤتمر ينضمون إليه فرادى حتى كونوا حلقة صغيرة ، وراح يحكي لهم ما رآه ونشره حول الموضوع بكل التفاصيل .. قال أحد الشباب :

- أغلبنا متأكدون مما حدث كما كتبته ، ومع ذلك شارك كثيرون منهم في المعرض ، لمجرد تسجيل موقف تضامني ورمزي ، وهم على ثقة من عدم بيع أية أعمال في المعرض .. وبذلك سترد إليهم الأعمال بعد انتهائه .. في الوقت الذي سجلوا أنهم أصحاب جمايل على الفنان .

قال نادر :

- أليس ذلك نفاقاً وتكريساً للأكذوبة ؟
- سمِّه ما شئت .. لكنه واقع بكل أسف .. بدليل صمت الجميع فيما عداك .. فماذا كسبت إلا عداوته ؟!
- لكن الحقيقة لا تسقط بالتقادم يا عزيزي .. وسيكشفها التاريخ مهما طال الزمن.

ضحك الفنان الشاب قائلاً بسخرية :

- سلم لي على التاريخ لما تشوفه .. إنك تذكرني بتصريحات وزير الثقافة وهو يعلق على ضياع المسافرخانة بأن الوزارة ستعيد بناءه كما كان .. وكأنه يمكنه استعادة زمن القصر أيضاً وما دار فيه من أحداث .. وعلى رأي فؤاد عرابي منذ قليل أن الماضي لا يعود .. ومن قبله قالت أم كلثوم : قول للزمان إرجع يا زمان !

علق أحد الجالسين :

- ولكن الوزير يقول أن لدى الوزارة جميع التصميمات الهندسية والصور والأفلام وكل ما يساعده على إعادة بنائه نسخة طبقة الأصل .
- إبق قابلني لو نفذ وعده .. وحتى لو حدث .. فكيف يسمي أثراً تاريخياً بينما هو مستنسخ ؟ .. يظننا بلهاء مثلما يظننا فؤاد عرابي !

قام الشاب لينصرف مستاءً وهو يقول :

- عن إذنكم سأذهب إلى قهوة أخرى .. لعلي أجد دُنيا أقل كذباً !

(٢٣)

- **أكتوبر ١٩٧٦م.**

في الصباح توجه شوقي إلى وكالة الغوري يلتمس مشورة صديقة عامر البحراوي، وكان قد اتصل به في منزله ليلة أمس للاتفاق على لقاء عاجل ، اعتذر له عامر لأنه تأخر عن موعده السابق معه ، بسبب انشغاله باستكمال إجراءات الأجازة بدون مرتب للسفر إلى السعودية لمدة عام بعد حصوله على عقد عمل هناك، وقال إنه علم بحضوره ولقائه بأحلام . تألم بشدة لموضوع السفر . سوف يفتقد أقرب زميل وصديق إلى قلبه ، وأكثر إنسان يرتاح إليه منذ أيام الدراسة ، بل أكثرهم استيعاباً للحظات الضعف عند الجميع وصدقاً في إسداء النصيحة إليهم دون أي غرض ، فيما يجد فيه عامر نقيضه الصلب الذي يملك مشروعاً واضحاً يؤمن به ويناضل من أجله ولا يقبل التراجع عنه ، ولا يستمع لصوت يعارضه ، لثقته المفرطة في نفسه أو لعناده الأحمق أحياناً . هكذا كان يراه ، ويذكِّره برأيه فيه جاداً حيناً وساخراً أحياناً ، على عكس حاله ؛ فهو لم يجد لنفسه هدفاً أو مشروعاً حتى الآن . قال شوقي لنفسه إن عامر لا يدرك أنني في كثير من الأوقات أشعر بالضعف حتى العجز أمام أزمة أو طعنة نافذة كما هو حالي الآن .. فإلى من ألجأ بعد اليوم لأجد العقل الذكي والقلب الطيب والرأي المخلص ؟ .. لكنه يلتمس له الأعذار في ضرورة

السفر ؛ فأبناؤه الثلاثة يكبرون وتتزايد مطالبهم ، وديونه تتفاقم ، والأسرة تنحشر في شقة صغيرة من الصعب أن تستوعب أفرادها الخمسة – وبينهم فتاة – بشكل إنساني، وهو الآن يحلم بأن يؤسس مشروعاً لطبع الأعمال الفنية ، لكنه يحتاج تمويلاً ضخماً، ولو حققه سيعيش على إيراده طوال العمر بكل ارتياح .

تبين له معرفة عامر بما دار بينه وبين أحلام ، فقد حكت له كل شيء ، وأيَّده في قراره بحسم المسألة معها جذرياً . لكنه التمس لها الأعذار بحبها لشوقي ، وقال إنه أبلغها بتأييده إنهاء أي شكل للعلاقة ، ليس بسبب ما حدث في مقابلة أول أمس في وجود فريدة ، بل لأنها منذ نشأتها علاقة مريضة ومشوهة ومحكوم عليها بالفشل ، لأنها نشأت مختلسة وغير أخلاقية بكل المقاييس . وقد أغضبها رأيه بشدة واعتبرته رأيا رجعياً ينتمي لأخلاق القرية لا لتطور العصر ، واتهمته بالانحياز الذكوري لابن جنسه وصديقه وأشياء من هذا القبيل . لم يشأ شوقي أن يستطرد في هذا الموضوع .. فهناك ما هو أهم .. وطلب منه الحضور مبكراً إلى مرسمه لاستشارته في مسألة المسافرخانة والانتهاء إلى قرار فيها قبل فوات الأوان .

وجده بمرسمه في انتظاره . علم منه أنه قد يسافر خلال أسبوعين أو ثلاثة ، وطلب منه أن يرعى مرسمه فترة غيابه التي يتمنى ألا تزيد عن عام واحد .

قال شوقي مازحاً :

- تكفيك السِّت أحلام لتقوم بهذه المهمة ، فهي تستطيع دخول مرسمك في أي وقت .
- هذا حقيقي .. وأعتبرها صديقة وفيَّة ، لكني أعرف أنك تعد لائحة قانونية جديدة للمرسم .. تعطي الحق للإدارة في انتزاع المرسم إذا ثبت عدم استخدام صاحبه له فترة معينة ، وسوف تسرى بلاشك على مراسم الغوري أيضاً ، فهل « حتستندل » وتطبقها على مرسمي وأنا بالخارج ؟
- أنت تعلم أن هناك فنانين يغلقون مراسمهم منذ استلموها قبل سنوات ، لأنهم ببساطة في غير حاجة إليها ، أحدهم صارحني يوماً بقوله أنه بالفعل ليس بحاجة إلى مرسمه بالمسافرخانة فلديه غيره ، لكنه ينظر إلى الأمر على أنه

هدية من الدولة تقديراً لمكانته .. فهل يرفضها ؟ .. وقال « يا أخي النبي قَبِل الهدية ! » ألا يستدعي ذلك وجود ضوابط للمنح وضوابط للمنع ؟

- أتفق معك بالطبع .. لكن المهم يا صديقي هو روح القانون .
- نعم .. لكن روح القانون لا تعني كسر القانون أو استباحته لصالح المقربين والمحاسيب ، بتحويل الاستثناء إلى قاعدة .
- لهذا فهم لن يتركوك تتم مشروعك ولو أدى الأمر إلى التخلص منك .
- لهذا جئتك اليوم أسألك : ما العمل ؟

قام عامر ليعد الشاي دون أن يجيب . استرخي شوقي على الكنبة بدائية الصنع ، يوزع نظراته بين لوحات عامر فوق الجدران ، متذكراً أن بعضها ولد على يديه في زياراتهما العديدة إلى الواحات وأسوان والنوبة ومنطقة الحسين والجمالية ، وأنه كان أيام الدراسة أكثر الطلبة مهارة وسرعة في سبق الزملاء ، ليس بدافع المنافسة ، بل لسبب بعيد تماماً عن الدراسة والفن ، وهو حرصة على اللحاق بالأعمال التي يقوم بها في السوق لكسب مصاريف دراسته وإقامته بالقاهرة ، وإلا فلن يجد ما يعيش أو يدرس منه ، لكن ذلك ساعده فيما بعد في أن يلتقط من الطبيعة روحها ولو من الخارج فيلمس عبقها الفطري وأن يوظف الضوء توظيفاً درامياً ويصل به أحياناً إلى حد النورانية ، ولكنه لا يسعى إلى تجاوز هذا الحد إلى الرؤية الخيالية أو الأسطورية.

أحضر عامر أكواب الشاي وجلس قبالته خلف المائدة الصغيرة مثمنة الأضلاع ومُزيَّنة الأجناب بزخارف عربية من إنتاج ورش الحرفيين بالوكالة .. وقال :

- إسمع يا صديقي .. سأكون صريحاً معك و « أجيب لك من الآخر » .. إن صراعك مع رئيس الهيئة ليس صراعاً بيروقراطياً يُحَل بالأوراق والمذكرات ، بل هو صراع سياسي في الأساس .. والمفروض أنك قبل أي شخص آخر تدرك ذلك جيداً كمناضل ذي ماضي سياسي ، وهم أيضا يتعاملون معك على هذا الأساس .. فماضيك هو الحاجز بينك وبينهم .. وعندما يطلب منك قدري عثمان أن تغسل سمعته مما يوسخها أمام الفنانين والنقاد والمثقفين ،

فإن ذلك يتضمن بالضرورة غسل سمعتك أيضاً .. لكن بمعنى غسلها من مبادئك وتاريخك ضد السلطة .. وبهذا تقفان على أرض واحدة مع اختلاف الوضع بينكما : هو سيقف مرفوع الرأس بدفاع رجل شريف ومعارض قوي للنظام عنه .. وأنت ستقف منكَّس الرأس لأنك بعت نفسك ومبادئك وتاريخك مقابل رضا السلطة عنك .. هي إذن صفقة .. وحين عرض عليك الأمر لم يكن يريدك أن تكتب كلمة واحدة عنه ، بل فقط أن توقع على ما سيكتبه عن نفسه .. والرجل كان واضحاً ومباشراً بغير لف أو دوران .

- لهذا قلتها في وجهه مباشرة بدون لف ولا دوران أيضاً « لا » .
- لكن هذه الـ « لا » لم تكن جزءاً من الحل بل كانت جزءاً من المعضلة .
- إذن فما هو الحل في رأيك ؟
- لا حل .. لأنها « معضلة » تستعصى على الحل .. كونها صراع بين إرادات غير متكافئة .. فهو لن يتراجع .. وأنت كذلك .. يعني لا بد أن يصرع أحدكما الآخر .. ولأن موازين القوى غير متكافئة بينكما ، فالنتيجة المؤكدة هي أنه الذي سيصرعك .
- هذا لو كنت وحدى أمامه .. لكن ألا يختلف ميزان القوى لو جمعنا توقيعات الفنانين على بيان قوى أستخدمه كوسيلة لخلق قضية رأي عام ؟
- ألا زلت تعلق أملاً على الفنانين ؟! .. ومع ذلك فلنفرض أنك جمعت حتى مئات التوقيعات على بيانك الثوري .. فماذا تتوقع أن يؤدي إليه ؟
- سوف يحرج النظام ولا شك .. عندما يتكشف أمامه أن رَجُله المدلل فاسد مستبد قد يشكل عبئاً عليه ويؤلب قوى المعارضة ضده .. فيتخلى عنه . وقد يضحي به قرباناً لقوى المعارضة .
- لم أتخيل أنك كرجل سياسي بهذه السذاجة !
- لماذا ؟
- لأن المباحث ستكون أول من يتلقَّى البيان ، ولن يعنيهم مِن كل التوقيعات عليه إلا توقيع سيادتك كصاحب سوابق عندهم .. فينظرون إليك على أنك عدت لمزاولة نشاطك السياسي في حشد المعارضة ضد النظام ، أو ما

يطلقون عليه « تأليب الرأي العام ضد نظام الحكم » .. ألم تكن تلك هي التهمة التي اعتادوا توجيهها إليك في كل حبسة ؟

قال شوقي نافد الصبر :

- إنك تسد كل الطرق أمامي .. كأنك تريد أن تقول باختصار .. لا جدوى أو .. لا حل !
- بل هناك حل .. لكنه سيغضبك .
- قل ولا تخف .
- إنه نفس الحل الذي طرحته .. أحلام .
- تعني أن أتفرغ للفن وأبتعد عن المشاكل ؟
- على الأقل ستكون قد كسبت نفسك وإبداعك .. بدلاً من أن تخسرهما معاً وتخسر فوقهما القضية التي تحارب من أجلها .. وفي أحسن التوقعات : تظل وحدك تحارب طواحين الهواء مثل دون كيشوت .. أو تظل تشكو همك لمهموم مثل الجالس أمامك !

(٢٤)

في مكتبة بالمسافرخانة صباحاً وجد بانتظاره إشارة تليفونية سلمه إياها محروس ، مرسلة من مكتب رئيس الهيئة ، يدعوه للحضور في التاسعة صباحاً غد إلى مكتبه للأهمية.

جلس يقلّب الأمور في ذهنه وقد ذهبت توقعاته كل مذهب .. لابد أنه يدعوني للتوقيع على قرار نقله . هكذا بهذه السرعة ؟! .. إلى أين ؟.. وهل ذلك ينطبق على المرسم أيضاً ؟ .. كارثة لو سحبوه منه ! .. كيف يتم ذلك وهو يشغله بقرار من الوزير ثروت عكاشة بنفسه حين رشحه لهذه الوظيفة ؟ .. ما أسهل استصدار قرار جديد لو أراد قدري بيه .. وماذا يفعل إذن وليس لديه مكان آخر ،

فشقته لا تحتمل أي زيادة من لوحات أو أثاث .. والأخطر هو : أين يضع أوراق محمد جاد الرب ؟ .. لقد أصبحت بالفعل في مهب الريح !

قطع محروس أفكاره قائلاً :

- الغريب يا ريس أنهم يطلبون حضوري أيضاً .
- لمقابلة رئيس الهيئة ؟
- لم تذكر السكرتيرة ذلك في الإشارة الرسمية .. بل أبلغتني بها شفوياً .
- ماذا قالت لك بالضبط ؟
- قالت عاوزينك تكون مع الأستاذ شوقي ضروري .
- ألم تسألها عن السبب ؟
- في الحقيقة أُحرجت أسألها .. الموضوع يبدو خطيراً جداً .. هل تعرف شيئاً يا أستاذ ؟

نفي علمه بشيء ، ورأسه يدور كموتور بأقصى سرعة ، « هل ينتهي الأمر بالنقل من المسافرخانة ؟ .. أم يكون ذلك مقدمة للقبض عليّ ؟ .. أمر وارد بالطبع.. فما دام قد أعلن الحرب عليّ فلن يكتفي بنقلي إلى مكان آخر يتبع الهيئة ، لأنه سيتوقع أن أكون فيه مصدر شغب ، فالأكثر منطقية أن يتخلص مني نهائياً بالزج بي في السجن كما قال عامر .. لكن ما هي أداته في ذلك ؟ .. إن شكوى مرسى الحسيني لا تكفي لإصدار النيابة إذنا بالقبض عليَّ لعدم وجود أي دليل يثبت ما تتضمنه .. لكن أيصعب عليهم فبركة الدليل ؟ .. بل حتى بلا أي دليل كما حدث في المرتين السابقتين .. فآخر مرة أخذوني من هنا في المسافرخانة .. لكنني فوجئت عند التحقيق أمام وكيل النيابة بأن تقرير المباحث يذكر أنه تم القبض عليّ ضمن مظاهرات عمال النقل ، وأنا لا اعرف أساساً أين قامت هذه المظاهرات ، لهذا تم الافراج عني لغياب الأدلة .. وقد لا يكون ذلك أمراً مؤكداً في كل مرة .. فكم من سياسيين قضوا في الحبس سنوات تحت ذريعة (على ذمة التحقيق) ، حيث يستمر عرضهم في جلسات النيابة مرة تلو أخرى ليأخذوا تأشيرة (استمرار حبس على ذمة

التحقيق).. وربما كنت محظوظاً بحكم المحكمة بالإفراج عني وعن زملائي من الكتاب والشعراء والفنانين بعد قضاء ستة أشهر فقط بسجن ليمان طرة ...

إذن فلتنس مسألة الضغط على النظام للإفراج عنك من الرأي العام كالمرتين السابقتين ، لأنك وحدك في قضية قد يرون أنها تهدد أمن الدولة ، وليس وراءك هذه المرة حركات طلابية ومنظمات حقوقية ، فضلاً عن أن النظام الآن صاحب أنياب مفترسة بعد انتصار حرب أكتوبر والانتعاش الاقتصادي مع سياسية الانفتاح .. »

غادر حجرة المكتب ومضى إلى مرسم محمود اللبان ، يستروح نفحة من عالمه الفطري البريء بعيداً عن إِحَن رئيس الهيئة وأدوات السياسة القذرة ، ولم يخيب الرجل رجاءه ، فاجتذبه إلى عالمه السحري العجائبي ، وامتص قدراً من الطاقة السلبية الكاتمة لأنفاسه ، ولم يشأ أن يفسد عليه اندماجه في النحت وهو يواصل الحديث عن ذكرياته في الحارة ومع أبناء السبيل ، فيخبره بما يحاك له ، فقد خُلق ليعزف بأصابعه أنغاماً نحتية ، ببراءة الطفل الذي لم يكبر بداخله ، وودعه للصعود إلى مرسمه راغباً في الاختلاء بنفسه .

(٢٥)

دخل المرسم مع شعور مسيطر بأنه عما قريب سيكون محروماً من المجيء إليه ، بعد سبع سنوات عاش فيه أكثر مما عاش في أي مكان آخر .. هنا ولدت جميع لوحاته، كل لوحة كانت تتم بولادة حقيقية .. بعد فترة حمل قد تمتد أسابيع يعيشها في حالة من التوتر والاثارة ، يجرب على الورق في البداية مستخدماً الأصباغ والألوان المائية والأحبار وأصابع الشمع .. وأخيراً الألوان الزيتية .. هنا كان يحلم بشكل اللوحة قبل أن تولد .. بمقاسها المناسب .. مستطيل أم مربع .. صغير أم كبير أم متوسط .. الأسلوب .. واقعي أم سريالي أم تعبيري وفقاً للموضوع والحالة النفسية .. أو للموقف الوجودي أو الوطني .. أو لطابع البيئة التي استوحاها..

اتجه إلى الركن الذي يرص فيه اللوحات على الأرض مستندة إلى الجدار ، حرصاً على عدم تعليقها على الجدران المزدانة بنفائس الزخارف الخشبية والرخامية.. لا ينبغي أن يغطيها بأي لوحة مهما كانت أهميتها ، فالقاعة بحد ذاتها عمل فني متكامل لا يقبل الشوشرة على أي جزء فيه بعمل فني آخر ليس من نسيجه ، بغض النظر عن تعليمات مصلحة الآثار بمنع أي تغيير في معالم المكان أو دق أي مسمار على جدرانه ..

أخذ يقلب صفوف اللوحات ، إنه في غير حاجة إلى إخراج إحداها من وسط إخوتها كي يتعرف عليها .. فبمجرد نظرة خاطفة إلى طرفها العلوي تظهرها كاملة على شاشة ذاكرته ، ساطعة بكل تفاصيلها التي يحفظها عن ظهر قلب .. إنها تمثل الآن كل أسرته وأولاده وعزوته في الحياة .. إنه لم يهنأ بشعور الأبوة مع ابته من صلبه .. منذ أن تم انتزاعها منه طفلة صغيرة ، حتى جاء وقت لم يستطع تذكر ملامحها ، وكم تخيلها وهي تكبر وتتغير بعيداً عنه في بلد غريب ، أما هذه اللوحات – وهي منه أيضاً – فلا تفارقه قط ، إلا إلى معرض بمصر أو بالخارج لفترة معلومة تعود بعدها إليه ، خاصة وأن مبيعاته منها نادرة ..

أخرج من بينها لوحة « المخاض » .. إنها احدى لوحات ما بعد أكتوبر ٧٣ .. امرأة تلد .. بطنها يشف عن جنين مكتمل .. وهي داخل شرنقة حمراء كالرحم في منتصف اللوحة – عيناها جاحظتان بالألم والفرحة معاً .. ومن حول الرحم المتماوج بنبض الحياة في ظلام مثل ليل دامس .. ينبثق عند أفقه البعيد قمر واهن الضوء .. وجذع شجرة جرداء تتهيأ لطرح الأوراق .. واللوحة في الحقيقة واحدة من سلسلة لوحات الصبر والمعاناة والانتظار ، بمفهومها الأشمل من محدودية الحرب والانتصار .. وبجوارها لوحة من سلسلة شجرة الصبار ، تبدو بفروعها الشائكة وهي تعلو وتتمدد وتتوالد بأذرع أسطورية كالأخطبوط ، وتشق بأذرعها سوراً هائلاً خلفها .. نراه مقسماً بشرائط أفقية عريضة وألوان مختلفة .. تمتد الأذرع فتفلق إلى شقين قرصاً كبيراً أصفر فوق السور .. من فرط قوة الشجرة النحيلة رغم أنها تعيش على قطرات الندى .. وها هي لوحة « طوق الخناجر » .. يبدو فيها شاب قد تحول وجهه إلى

عينين كبيرتين تمتلئان بالتحدي قبل العبور من حلقة الخناجر المسنونة التي لا تتسع لمروق جسمه إلا بعد تمزيقه أو حدوث معجزة .. مثل هذه اللوحات لن تجد من يشتريها .. ولم يكن يؤرقه ذلك رغم شدة احتياجه لثمنها .

اتجه إلى الباب المؤدي إلى حجرات الحريم الداخلية .. خاض في الظلام والتراب كما يفعل كل مرة . كانت شمس الظهيرة تسطع خلف ستائر الدنتلا الخشبية المشكلة من وحدات الخشب الدقيقة فتكسو القاعة بالنور المُصَفَّى . فتح إحدى النوافذ الصغيرة وهو يقف في نفس المكان الذي وقفت فيه فريدة قبل أيام وأطلَّت منه إلى الطاحونة خلف الجدار المقابل ، شعر باشتياق إليها . في الحقيقة كان هذا الشعور يلازمه طول الوقت .. يتسلل إليه وهو في أي مكان وأي مقابلة أو حديث مهما انشغل بأمور أخرى .. يطل وجهها باسماً ويملأه بالحنان والطمأنينة للحظة ثم تطمسه الأحداث والمشاغل فيتلاشى .. لكنه يبزغ من جديد .

تخيل شخصاً يدور حول العمود الذي يبرز من فتحتي الحجرين المستديرين، وقد ثُبِّت فوق كتفيه فرع شجرة مقوِّس يتصل بالعمود ويؤدي إلى دورانه ، ومن ثم إلى دوران الحجر العلوي ليقوم بطحن الحبوب .. أية قوة كان يملكها ذلك الرجل بديلاً عن الثور المفترض أن يقوم بهذه المهمة ! .. إن المشهد الذي ظل يداعب خياله منذ دخل القاعة لأول مرة ولم يفقد إثارته حتى اليوم .. وكأنه في شقائه الأبدي شاهد على كل ما جرى طوال تاريخ القصر .. صامتاً مُغمَّى العينين كالثور .. هل سيراه بعد الآن ؟..

صعد إلى حجرات النوم لحريم الشاهبندر أو حريم إبراهيم باشا .. حيث أخفى بإحداها حرز محمد جاد الرب .. واثقاً من أنه في مكانه كما وضعه .. لكنه كان يحن إلى الاطمئنان عليه .. مع خاطر انبثق حالاً بوجوب نقله من هذا المكان .. بعد أن صار مهدداً بالإبعاد عنه .. تحسسه فوجده قابعاً في ظلمة الدولاب كما تركه .. انتهى إلى تأجيل نقله حتى تتضح الأحداث في الأيام المقبلة .

رجع إلى المرسم .. استلقى على الكنبة العريضة .. وقد شعر بحاجة شديدة إلى الراحة وكأنه عائد من مجهود رهيب..

سمع أنيناً خافتاً متقطعاً لشخص يتألم .. يعلو ويخفت بغير انتظام .. وأحياناً يصبح آهة ممتدة .. يتبعها صوت حشرجة باب عتيق يفتح .. أو صوت تروس ساقية خشبية يأتي من زمن سحيق ..وتبين من الأَنَّات اسمه يتردد في غموض لصوت يناديه : شوقي .. شـ وقـ ي ! .. الغريب أنه لم يفزع او ينزعج وكأنها ليست المرة الأولى التي يسمعه فيها .. بل كأنه صوت أليف بالنسبة له .. استطاع أن يفسر من بين كلماته المدغومة كلمة : « تعالى ! » .. رد عليه : « عاوز إيه ؟ »..

- خلَّصني !

حاول أن ينطق أو حتى أن يقول « مش قادر » فعجز عن النطق كأن لسانه ثقيلاً كالمربوط.

عاد الأنين مصحوباً بصوت حشرجة الترس الخشبي .. استخلص من كلماته معنى.

- « الناف على رقبتي » .

بَذَل مجهوداً شاقاً حتى استطاع النهوض والتوجه إليه .. رأي وجهه بغموض .. أثناء دورانه في اتجاهه لمح وجهه رغم انحنائه الشديد وجذع الشجرة الطويل فوق كتفيه .. لم يكن أسود البشرة بل قمحي اللون قريب من لون بشرته .. لا يبدو بوضوح كم عمره .. لكنه أقرب إلى الشباب .. وإن كان الإرهاق يضاعف سنوات عمره . كانت حول رأسه عمامة بيضاء بدون طاقية تحتها .. فيبدو شعر رأسه الأسود شديد التضاد مع عمامته وجلبابه القصير الأبيض .. خطر له أنه يعرف صاحب هذه الملامح وبنفس هذا الزي .. تذكر أخيراً أنه الصياد ذو القارب والمجدافين عند كوبري قصر النيل .. لكنها بتعبير مختلف .. أيكون هو نفس الرجل؟ .. لكن الصياد كان يحرك المجدافين بارتياح بعكس هذا الذي ينوء بحمل باهظ الثقل .. أخيراً استطاع النطق فقال له :

- أنت داير على الفاضي .. ما فيش طحين .. قل لهم يحلُّوك .
- مش قادر .

بدأ صوت الرجل ينجلى ويصفو كلما مضى في الحديث :

- كلهم مشيوا وسابوني .
- مين هم ؟
- مش عارف .
- من إمتى ؟
- مش عارف .
- ولحد إمتى ؟
- مش عارف .. أنت اللي حتحلَّني .. هم قالولي كده .. تعالى حِلّني !
- ما اقدرش ! .. ما اقدرش ! .. ما اقدرش !

انتفض جالساً وهو يردد الكلمة .. وسيل من الدموع ينهمر من عينيه !

نهض في معاناة وكأنه يحمل حجراً فوق كتفيه ، فكر أن يعود إلى الحجرة الداخلية المطلة على الطاحونة .. فدب فيه خوف شديد لم يشعر به من قبل في هذا المكان بل في القصر كله . لا يزال الصوت يئن في أذنيه بكل وضوح .. يساوره الاحساس بأنه لم يكن حلما بل كان واقعاً شديد الوضوح . لم يؤمن من قبل بوجود أرواح الأسلاف في القصر . سمع من صديقه جمال الغيطاني فصصاً على ألسنة أهل الحارة بأنهم كانوا يسمعون في الليل أصواتاً غريبة .. بعضها يُغنّى وبعضها يقهقه ضاحكاً وبعضها لنسوة تصرخ وتستغيث .. لكنه لم يصدق شيئاً من ذلك .. وكذلك الغيطاني الذي أرجع هذه الحكايات إلى المخزون التاريخي للخوف من المجهول بداخلهم عبر عشرات السنين بالقرب من القصر المهجور .

ألهمه تذكُّره لجمال الغيطاني بفكرة الذهاب إليه بجريدة الأخبار حيث يعمل ، علَّه يساعده للخروج من هذه الورطة ، أو على الأقل يشير عليه بما يفعل ، لكنه فضل إرجاء ذلك إلى الغد بعد مقابلته مع قدري عثمان رئيس الهيئة ، على الأقل لتكون الأمور قد اتضحت حول موقفه .

(٢٦)

من جديد في سراي النصر . تجاوز شوقي البهو الفسيح بأبهته وارتفاعه الشاهق ، وانطلق يقفز درجات السلم إلى الدور الثاني ليستقل أسانسير الريس من هناك .

في مكتب السكرتيرة وجد محروس شاحب الوجه زائغ العينين في انتظاره ، وكأنه ينتظر حكماً يتوقف عليه مصيره ، بادرته السكرتيرة قائلة :

- تأخرت كثيراً يا أستاذ شوقي .. الريّس سأل عنك .

ورفعت سماعة التليفون الداخلي وأبلغت الريس بوجوده في صوت خفيض ، ثم التفتت إليه مشيرة إلى باب المكتب المبطن بالجلد الأخضر قائلة .

- تفضل .

وقف يوزع النظرات بينها وبين محروس متسائلاً بعينيه ، وفهمت مقصده فأوضحت:

- قدري بيه يريدك أنت وحدك ، أما الأستاذ محروس فقد صدر أمر إداري بضمه إلى لجنة المشتريات المركزية للهيئة ، وسيتسلم عمله بها بعد قليل .. تفضل أنت.
- أهو قرار بنقله من المسافرخانة إذن ؟
- لا .. فإن نص الأمر الإداري يشير إلى أن ذلك بصفة مؤقتة .

انفرجت أسارير محروس وعاد إليها الدم ، أما شوقي فقد انقبض صدره وتنبأ بشرّ .

دفع الباب بحذر شديد .. وقطع المسافة الطويلة حتى مكتب قدري بيه وكأنه يسير على الصراط بين ضياع وهلاك.

- أقعد يا شوقي .. مالك مأخوذ هكذا ؟! .. ماذا تشرب ؟

نظر إليه متسائلاً في ذهول ، فأجابه بابتسامة أبوية أضاءت وجهه بصورة لم يره عليها من قبل ..

- شكراً يا افندم .

- سأطلب لك شاياً .

وضغط الجرس لاستدعاء الساعي ، فخف إليهما في لحظة وكأنه كان يقف وراء الباب في انتظار الجرس ، ووقف متسائلاً في امتثال ..

- هات شاي بسرعة للأستاذ شوقي .

« اللهم اجعله خير ! » قالها شوقي في سره ، عاجزاً عن تفسير هذا التغير الهائل من النقيض إلى النقيض . لم يستسلم لمظاهر المودة الموحية برغبة شديدة في المصالحة ورد الاعتبار إليه . استبعد نهائياً أن تكون هذه الرغبة نابعة من قلب قدري بيه ، ولو افترضنا الدافع الحسن لهذا التحول فما هو ؟ .. سأل نفسه .. فأجابت : ربما تلقى توجيها من جهة ما بضرورة استقطابه بدلاً من عقابه .. وعاد يسألها : ولو افترضنا الدافع السيء ؟ .. قالت : سيكون مثل سؤال عشماوي للمحكوم عليه بالإعدام قبل تنفيذ الحكم : نفسك في إيه ؟

قطع قدري بيه حبل أفكاره قائلاً :

- شوف يا شوقي .. من حقك أن تستغرب دعوتي لك اليوم بهذه المودة ، لكن ما لا تعرفه عني هو أنني أب يقدِّر حالات الانفلات أحياناً من أحد أبنائه لإصراره على رأي يراه سليماً ، وأظن أن علم النفس تعرض لما يسميه عقدة الأب ، فهو في نظر الأبناء يمثل السلطة والظلم ومصادرة الحرية ، وقد فكرت في موضوعك من هذه الزاوية ، والتمست لك العذر ، فأنت شاب وطني بلا شك . وإلا ما حكمت المحكمة ببراءتك مرتين أنت وزملائك الذين شاركوا في المظاهرات أو اتُهموا بالتخريب ، ورأيي أن وزارة الداخلية تسرعت بالقبض عليكم ، وكان يمكنها امتصاص غضبكم المشروع .. خذ عندك مظاهرات ٧٢ التي قبض عليكم بسببها .. ألم تكن تنادي بالحرب ورد الكرامة للجيش والشعب ؟

ماذا حدث بعد عام ونصف تقريباً من سجنكم ؟ .. ألم ندخل الحرب التي كنتم تنادون بها ؟ .. ألم نخض معركة التحرير والكرامة ونحرز النصر ؟ .. بالطبع لم يكن ذلك استجابة لطلبكم .. فقرار الحرب لا يتخذ بين يوم وليلة

استجابة لمظاهرات بعض الشباب .. إنه قرار استراتيجي يتوقف عليه مصير البلد بجيشه وشعبه .. إذن فإن الرئيس السادات كان قد اتخذ قرار الحرب فعلاً ويستعد لدخولها .. فقط كان في انتظار اللحظة المناسبة .. في الوقت الذي كنتم تهتفون بسقوطه وتتهمونه بالخيانة .

قال شوقي لنفسه : كان الاستنتاج الأول في تفسير هذا التحول في أسلوب الريس هو الاستنتاج الصحيح .. فمن هي هذه الجهة التي نصحته بهذه السياسة العاقلة ؟ .. واستأنف قدري بيه كلامه :

- إنني أكثر الناس إيماناً بوطنية الرئيس ، ليس لاتخاذه قرار الحرب ضد إسرائيل ، ولا حتى لدوره في ثورة ٥٢ ، بل من قبل ذلك بكثير منذ أن كنت طالباً بالجامعة في الأربعينيات ، وأشارك في مظاهرات الطلبة ضد الإنجليز، وفي خيالي كان مَثلي الأعلى هو أنور السادات الذي كان يمثل بطل المقاومة ضد الاحتلال ويتعرض لمطاردة البوليس السياسي له، حتى حكم عليه بالإعدام.

كان شوقي يزداد ذهولا وريبة .. هل استدعاه ليقنعه بوطنيته وثوريته منذ شبابه المبكر ؟ .. هو الذي كان بالأمس يبتزه بالتهديد بالسجن إن لم يمتثل لمآربه ؟! تمني أن يقول بصوت عالٍ : هات من الآخر يا ريس .. ماذا تريد مني هذه المرة ؟

وكأنما استمع قدري إلى صوته الداخلي إذ قال :

- لذلك أعدت التفكير في موضوعك .. فمن يدري وأنت بوطنيتك وثوريتك هذه .. ماذا ستكون في الغد ؟ .. ألا يمكن أن تصبح زعيماً ذا شأن عظيم ؟
- أرجوك يا سعادة البيه لا تسخر مني !
- أنا لا أسخر .. بل أعني فعلاً ما أقول .. لذا قررت فتح صفحة جديدة معك.
- كيف يا افندم ؟
- سأبدأ من عندكم في المسافرخانة .. نجلس ونتحاور ونتشاور مع كل الفنانين .. ألا يدعو الرئيس السادات لممارسة الديمقراطية ، ويعيد فتح المنابر والأحزاب السياسية بكل حرية ؟ .. فليكن قدوة لنا .. وأتطلع لإزالة الخلافات

والصراعات بينك وبين زملائك الفنانين بالقصر ، وكذلك لنناقش مشروع اللائحة التي تقترحها ونتبادل الرأي حولها ونحن في بيت العيلة كما يقول الرئيس . وليتكم تدعونني على أكلة شعبية في رحاب سيدنا الحسين حتى ولو فول وطعمية ، ليكون بيننا عيش وملح .. هيه .. ما رأيك ؟

ولأول مرة يشعر شوقي بصدقه ، خاصة بعد جملته الأخيرة التي تكشف عن بعد إنساني كان مختفياً .. فهي بمثابة عهد أمان غليظ لا يمكن إلا لخائن خسيس أن يحنث به . قال مرحباً :

- أهلاً وسهلاً .. متى يتم ذلك يا ريس ؟
- لولا أننا مقدمون على أجازة عيد الأضحى المبارك – كل سنة وأنت طيب – لجعلنا الزيارة بعد أيام قليلة .. لذلك اقترح أن تكون بعد اجازة العيد مباشرة .
- عظيم .. سأذهب الآن إلى القصر لأزف البشرى للزملاء .
- لا لا .. لم العجلة ؟ .. أنصحك بألا تعود اليوم إلى القصر .. فالباقي على الأجازة يومان .. أنا موافق على أن تضمهما إلى أيام الأجازة وتسافر اليوم إلى بلدك .. أعرف أنك من الشرقية وتحرص على قضاء العيد مع أهلك .. تمام ؟
- تمام يا ريس.

قالها شوقي بصدق وبقلب مفتوح ، حتى أنه شعر بالذنب لسوء ظنه في نواياه!.. ثم قال:

- هل تأمر بشيء ؟
- لا .. فقط أن تعدني بألا تذهب اليوم إلى القصر ، خاصة وأن الأخ مرسى الحسيني يعرف أنك اليوم عندي ، وستأخذه الظنون إلى أشياء غير مستحبة، ويمكن أن يحدث احتكاك بينكما .. فلماذا نعطيه هذه الفرصة .. أوكي ؟
- أوكي يا ريس .. أعدك بعدم الذهاب إلا بعد الأجازة .. وكل سنة وأنت طيب قام وصافحه بحرارة ، وقطع المسافة نحو الباب بخطوات كالهرولة .

(٢٧)

ما الذي يدفعه للسير بهذه السرعة ، وكأنه يريد أن يطير ، أو يريد اللحاق بموعد لا يعرفه ! .. لا يظن أن ذلك بسبب الانقلاب الذي حدث لسلوك رئيس الهيئة وفكره ، حتى أصبح مناضلاً ثورياً ، بل يتوقع لك مستقبلاً في الزعامة الثورية ، وهو كذلك لا يأخذ بنظرية ازدواج شخصية قدري (الطيب/الشرير) إلى هذا الحد .. الأرجح هو التوقع الأول بان يكون قد تلقى توجيها من جهة سياسية ما ، تريد أن تهدئ اللعب مع قوى اليسار ، خاصة بعد الانفتاح النسبي للصحافة في الآونة الأخيرة ، بما سمح لها بنشر أخبار المواجهات الأمنية فور وقوعها ، خاصة في كل من مجلة روز اليوسف الأسبوعية ومجلة الطليعة الشهرية ، فضلاً عن منبر التجمع الاشتراكي الوحدوي ونشرته الصحفية « التقدم »، وكأن اليسار تلقَّى (كارت أخضر) لممارسة النشاط . بعد فشل سياسة إرغامه على الامتثال للنظام في أعقاب حملة الاعتقالات لرموزه من المثقفين في يناير ١٩٧٥ مع قيادات لعمال حلوان ومؤيديهم من زعماء الحركة الشيوعية القدامى، لكنه استبعد أن يكون ذلك هو السبب ، فإنه لا يصدق أنه بهذا القدر من الأهمية في نظر النظام ، حتى ولو كان ضمن معتقلي حملة ١٩٧٥ ببلاغ من وزير الثقافة ، أغلب الظن انه استمع إلى نصيحة مشددة من بعضهم بألا يخلق بطلاً من بين الفنانين إذا تعرض للاضطهاد حيث سيلتف حوله المثقفون ، فينقلب الحال ضده حين ينتشر خبر مساومته له ليقوم بتبيض غسيله القذر .. أيا كان السبب في انقلابه الثوري فإن النتيجة واحدة ، وهي أن شوقي أصبح في مأمن من الابعاد عن المسافرخانة ومن تهديد لوحاته ، بل وتهديد حريته ذاتها بعودته إلى السجن ، بدون ان يضطر لتقديم أية تنازلات على حساب مبادئه وكرامته ، بل يبدو الأمر وكأن النهاية جاءت كانتصار لموقفه ضد فساد المؤسسة والمستفيدين منها وعلى رأسهم مرسى الحسيني ، عندما يفي قدري عثمان بوعده بزيارة القصر وطرح كل الأمور أمام الجميع بكل شفافية ومودة .

وجد نفسه سائراً بشكل تلقائي نحو ميدان التحرير ، دون أن يحدد الجهة التي سيذهب إليها .. هل يذهب إلى صديقه جمال الغيطاني كما كان ينوي بالأمس ! ..

لكن الأمور قد تغيرت من الأمس لليوم فوق برج سراي النصر ، ربما يفضل زيارته في وقت لاحق بعيداً عن توريطه في مشاكل تخص عمله . خطرت له فكرة مغرية بموضوع صحفي يكتبه وينشره فيمهد به الأرض لمشروعه الثقافي الذي يحلم بتطبيقه في المسافرخانة .. هل يذهب إلى مرسمه ؟ .. لكنه وعد قدري بيه بأن يبدأ أجازة العيد من اليوم .. يا له من كرم ! .. ويا لها من مشاعر انسانية فياضة حين شجعه على السفر إلى بلده لقضاء العيد مع أهله ابتداء من اليوم .. آه .. هي فريدة .. مَنْ يجب الذهاب للاطمئنان عليها بعد يوم المئذنة .. كيف لم يكن ذلك أول ما يخطر على باله ! .. لكنه سرعان ما عدل عن الفكرة حين تذكر عدم ترحيبها بان يزورها في محل عملها بالأكاديمية منعاً للقيل والقال ، وقد دهش ساعتها وسخر من رجعيتها ، فأخبرته بأن لديها مشاكل مع بعض زملائها ، وأنها في غنى عن أقاويلهم التي قد تصل إلى خطيبها .. ما أغرب تناقضات هذه الفتاة ! .. متفتحة وقوية هنا .. ومنغلقة وضعيفة هناك ! .. اكتشف أنها أصبحت ضرورة ملحة لحياته لم يعد بوسعه الاستغناء عنها ، وفي هذه اللحظة بالذات شعر بأنها الإنسان الوحيد الذي يتمنى أن يشاركه سعادته .. وربما تكون أيضاً الوحيدة التي يسعدها هذا التطور الذي حدث اليوم ، بعد أن وصلت إلى حالة الاكتئاب وهُما في مقهى الفيشاوي لمَّا أخبرها بنتيجة مقابلته الفاشلة مع قدري .

على كوبري قصر النيل أطل يبحث عن الصياد الذي رآه خلال عودته السابقة من مقابلة قدري بسراي النصر .. كان يومها في قمة التعاسة . كم يتمنى أن يراه اليوم وقد تبدلت حالته ! .. رأى القارب خالياً بجوار الشاطئ.. لابد أن للرجل حاجاته التي يقضيها بعيداً عن النهر ، فهو ليس أسيراً له كرجل الطاحونة في المسافرخانة .. اهتز لاستعادة حلم الصباح بالمرسم .. لا لم يكن حلماً بل كان رؤيا تساور يقظته بين الحين والآخر .. ولا تزال الصورة تلتبس عليه بين بطلي هذه الرؤيا: الصياد ورجل الطاحونة وكأنهما شخص واحد . طاف بذاكرته شريط الخواطر المؤلمة أثناء مروره السابق على كوبري قصر النيل ، وهي تدور حول ديمومة الشقاء القدري في مسيرة كل من النهر والقصر وحياة الإنسان . اليوم يثبت « قدري » أن

سلطان سراي النصر بكل جبروته في برجه الشامخ – قد يتحول في لحظة إلى رجل طيب وديع يترجَّى مرؤوساً له لقبول الصلح معه !

خطر له أنه لم يودّع محروس .. سكرتير المسافرخانة الذي تركه في مكتب سكرتيرة قدري بيه وهو ينتظر مصيره المجهول . كان ينبغي أن يطمئن عليه ويعرف متى تنتهي مهمته ليعود إلى عمله بالقصر ، لكن المدهش أن يتم استدعاؤه في نفس التوقيت لغياب رئيسه فيخلو المكان من أي مسئول .. أهي مجرد صدفة ؟ .. إنه لم يسأل نفسه : هل يتم استدعاء موظف للعمل في مهمة خارج طبيعة وظيفته الأصلية بدون خطاب رسمي إلى رئيسه المباشر يحدد فيه نوع المهمة ومدة إنجازها ومن الذي قرر القيام بها ؟ .. فكيف الحال وهم لم يطلبوا انتدابه حتى بإشارة تليفونيه ؟!.. والأهم من ذلك هو : ما علاقة محروس بلجان المشتريات وهو ليس مؤهلاً أصلا لذلك ولا توجد لديه أي خبرة سابقة فيها ، إلى جانب أنها مهمة مالية لابد أن يقوم بها موظف معين على وظيفة ثابتة ودرجة مالية وليس موظفاً مؤقتاً بالمكافأة ، كما أن إجراء عملية مشتريات قبل أجازة العيد بيومين اثنين أمر غير معقول .

ساورته الشكوك في الأمر كله ، بل فتحت الباب للشك في دوافع التحول في أسلوب رئيس الهيئة إلى درجة تملقه له بهذا الشكل المبالغ فيه ، ثم إلحاحه الشديد على ألا يذهب إلى القصر اليوم والأيام التالية ! .. حتى أن الأمر بدا أقرب إلى القرار منه إلى الاقتراح أو الرغبة .. ثم ما حكاية مرسى الحسيني التي أشار إليها ؟.. إن ما ذكره من احتمال تحرشه به بعيد تماماً عن المنطق ، «فلا يمكن أن يتحرش بك لدى علمه بتقاربك مع الريس ، بل الأقرب للمنطق بالنسبة لمنافق مثله أن يبادر بالتقرب إليك وخَطْب ودِّك ، وتكفيه كلمة من قدري بيه ليكف عن مضايقتك ويمتثل كالجرو .. لابد أن في الأمر شيئاً مدبراً ينبغي كشفه .. والآن وليس غدا .. »

وهكذا تزايد « أدريالين » الخطر في دمه بوجود شيء مريب كان يتطلب إخلاء القصر اليوم تحديداً ، ومع وصوله إلى ميدان التحرير سيراً على الأقدام كان

الشك قد أصبح ماردا يتطاول بداخله .. فاتجه مباشرة إلى موقف الأتوبيس المتجه إلى ميدان الحسين .

(٢٨)

أمام البوابة العالية لقصر المسافرخانة المفتوحة عن آخرها، لاحظ شوقي أمراً غير معتاد منذ بدء عمله فيه ؛ كان هناك عند العتبة رجل غامق السمرة صارم الملامح ضخم الشارب يرتدي جلباباً أسود وعمامة كبيرة بيضاء ، وفي يده عصا طويلة مما تعرف باسم « شمروخ » في الصعيد ، وبالقرب منه بجوار البوابة الأثرية تجلس زوجة الحارس شعبان البدينة فوق حصير على الأرض وهي تطعم أحد صغارها من طبق أمامها ، متخطية تقاليد زوجها المحافظة لأول مرة في عدم السفور أمام الغرباء ، وما أن رأته حتى أشارت تجاهه بإيماءة من رأسها لتلفت نظر الرجل الغريب إلى أنه المقصود ، فتقدم نحوه على الفور ممسكاً بشمروخه بكلتا يديه في وضع عرضي ، وسأله بلهجة صارمة تخلو من اللياقة :

- رايح فين يا افندي ؟

تقدم شوقي قائلا في غضب :

- أنت مين ؟
- أنا الحارس .. أي خدمة ؟
- الحارس ؟! .. (ثم وجه حديثه إلى زوجة شعبان) فين شعبان يا أم أحمد ؟.. هم نقلوه ؟

لم ترفع المرأة وجهها من الطبق الذي تطعم منه طفلها والتزمت الصمت ، وازداد الرجل اقتراباً منه وتحدياً له قائلاً :

- مالوش داعي الكلام في اللي ما يخصكش .
- إزاي ما يخصنيش ؟ .. أنا مدير القصر.
- كنت المدير .. ودلوكيتي خلاص .

وأشار بشمروخه الطويل نحو الباب الأثري حيث كانت تلصق عليه ورقة وقال :

- قدامك قرار رسمي بختم النسر كمان .. اتفضل اقراه .

أسرع إلى الورقة ، ووجد في البداية صعوبة في قراءتها ، فقد أظلمت الرؤية في عينيه وتداخلت السطور ، وضربات قلبه تتعالى بِدويّ كالطبول ، وأخيراً أمكنه التركيز والقراءة حتى ألمَّ بمضمون المنشور ، وهو موقع من رئيس مجلس إدارة الهيئة ، وفي مادته الأولى ينص على نقله من عمله كمدير لقصر المسافرخانة إلى إدارة التنظيم لإعادة توزيعه على الجهة التي تحتاجه ، وتنص المادة الثانية على تعيين الفنان مصطفى مسعود مديراً للمسافرخانة.

وقف مذهولاً غير مصدِّق . صرخ بحرقة :

- ازاي ؟ .. فيه حاجة غلط .. أنا جاي من عنده دلوقتي حالاً .. كان معايا حاجة تانية خالص .. واتفقنا أنه جاي يزورنا بعد العيد .. أكيد دا قرار قديم قبل ما أقابله وحيصدر قرار جديد النهاردة .

عاد إلى الورقة المعلقة وقرأ التاريخ : ١٩٧٦/٩/٢٦. صاح في انتصار :

- مش قلتلكم ؟ .. أهه ! .. تاريخ القرار من أسبوع .. أكيد فيه قرار تاني.

وبدأت الأمور تتجلى أمامه بسرعة خاطفة تباعاً : مصطفى منصور كان معه بالأمس بوجه آخر غير ما كان عليه ، استدعاؤه هو ومحروس لإخلاء القصر ، إلحاح الريس على عدم مجيئه إلى هنا اليوم ، إذن بان المستخبي .. كان الأمر مبيتاً .. لكن كل هذه التدابير تدل على أن الأمر أخطر من مجرد قرار بالنقل .. وتملكه استشعار بأن للموضوع علاقة بمرسمه .. انفجر صاروخ بصدره ، فأزاح بيده عصا الرجل بعنف شديد ، فتصدى له بعنف أشد مانعاً إياه من الدخول :

- ممنوع يا افندي .. ما لكش صفة عشان تدخل .. دي تعليمات .
- تعليمات إيه يا كلب الحراسة ؟ .. أنا طالع مرسمي .
- ماعادش لك مرسم هنا خلاص .

جن جنونه ، وواتته قوة خارقة فأزاح الحارس بكل ما أوتى منها فألصقه بالجدار ، ويبدو أن الرجل لم يضع في حسبانه أن يباغته شوقي بهذه القوة فوقف ساكناً

للحظات يفكر فيما يفعل ، بينما اندفع شوقي يجري في قفزات واسعة نحو المرسم ، وشرارات حمراء تتطاير أمام عينيه . أدركه الحارس عند باب المرسم وهوى بالشمروخ على ظهره بيد مدربة تعرف أين تضرب لحماً ولا تكسر عظماً . لم يشعر شوقي بالألم في غمار مفاجأة جديدة صاعقة ؛ كانت لوحاته محطمة ومبعثرة في أنحاء قاعة الحرملك كالأشلاء ، وقطع الأثاث ومنضدة الرسم ومسند اللوحات باتت جميعها حطاماً .. صرخ بكل عزمه :

- يا ولاد الكلب .. ياهمج !!

هَمَّ الحارس بضربة ثانية ، لولا ظهور محمود اللبان فجأة ورؤيته العصا قبل أن ينقض بها الحارس على رأس شوقي ، فأحاطه بذراعيه من الخلف بقوة شلَّت حركته .. انهار شوقي جاثياً على ركبتيه . لحق به محمود واحتضنه مهدئاً ومواسياً ، انتفض شوقي فجأة وقد برق في ذهنه حرز محمد جاد . اندفع إلى جناح الحريم .. كان الباب مفتوحاً . وقف كالمشلول : إذن لقد دخلوا وانتهى الأمر !! .. خطا في الممر المظلم خطوة واحدة . فوجئ أمامه بشبح رمادي لا تبدو فيه أية ملامح بشرية .. كتلة متحركة من التراب كأنما انشقت عنها الأرض . واجهه مذهولاً للحظات لا يعرف إن كان هذا الشبح إنساً أم جِناً ، فإذا به يسمع صوته البشري قائلاً في ذعر:

- أنت مين ؟ .. أنا ما اعرفش حاجة .. ماليش دعوة !

وحاول أن ينفلت هارباً إلى القاعة الخارجية . انقضت قبضتا شوقي على عنقه وقد تلبَّسه جِنِّي بالفعل وهو يصرخ :

- قول أنت مين .. ومين اللي بعتك .. حاقتلك لو ما تكلمتش !

كان قد تحول بالفعل إلى كائن غير إنسيّ، انسلخ من بشريته وبات مجرد طاقة عمياء لا تشعر بالخوف أو الألم لوقع ضربات الحارس وهي تنهال على ظهره، قبل أن يباغته من الخلف محمود اللبان ويشلّ حركته كما فعل أول مرة ، لكنه اضطر هذه المرة للاشتباك معه في عراك نجح اللبان خلاله في انتزاع العصا منه وتهديده بها ، فيما استمر شوقي يضغط بقبضتيه على عنق الشاب ، حتى تحشرج صوته

وجحظت عيناه وعجز عن النطق .. لم يكن شوقي يبالي بالسجن ولا حتى بالإعدام عقابا على قتله ، كان مدفوعاً بأمر واحد .. أن يعرف من كلف هذا الشخص بما فعله ، وقد استيقظت من أعماقه الدفينة غريزة الوحش الجريح مصحوبة بشهوة الانتقام، وخفف قليلاً من ضغطه على عنق الشاب ليتيح له النطق ، بأمل وحيد ! أن يسمع من الشاب كلمة قدري بيه .

لحق محمود اللبان به وراح يخلص عنق الشاب من يديه قائلاً :

- سيبه يا سي شوقي .. دا عيّل حيموت في إيديك..

انتبه شوقي لأول مرة إلى أن هذا الشخص فتى لا يتعدى عمره سبعة عشر عاماً ، فأرخى قبضته عن عنقه وقد بدأ يسترد بَشَريته شيئاً فشيئاً ، لكنه أصر على أن يستخرج منه الحقيقة.

- انطق يا ابن الكلب .. والله لاقتلك لو ما قلتش مين اللي سلَّطك .

من بين حشرجته قال الشاب : الأستاذ حسن ....

- حسن مين ؟
- حسن السكري اللي في الهيئة .

أفرج عن عنقه بينما عقله يدور في جنون .. إنه اسم مدير مكتب رئيس الهيئة .. هذا هو الأمر إذن !!.. لكن صبرا .. فهناك الآن أمر أهم .. أوراق محمد جاد .. إندفع إلى الداخل تاركاً الشاب بين أيدي محمود اللبان الذي أسنده إلى قاعة المرسم وأجلسه على قاعدة المشربية في حالة إعياء شديد ، وأخذ يرّوح على وجهه بورقة مقوَّاه التقطها من بقايا أوراق شوقي الممزقة .. كان لون الشاب أزرق في رمادي بفعل الخنق والتراب وهو يحاول استرداد انفاسه المختنقة ، فيما صعد شوقي إلى حجرات النوم العلوية بجناح الحريم راجياً ألا يكونوا قد سبقوه بالوصول إليها وأخذها ، لتكون عماد القضية التي تحاك ضده .. اطمأن على وجود حرز الأوراق كما وضعه ، فدسه داخل قميصه وحشره تحت حزام بنطلونه ، وعاد إلى المرسم حيث وجد الشاب قد أفاق وانخرط في بكاء قائلاً :

- والله يا بيه مالي ذنب .. أنا صبي نقاش على النحاس في وكالة الغوري .. قالولي حنرفدك لو ما نفذتش .. يا بيه ده أنا أبن الوكالة من عمر ١٣ سنة وأنا صبي .. باجيب لقمة لأمي واخواتي بعد موت أبويا .. كنت حاعمل إيه ونعيش منين لو رفدوني ؟

سأله شوقي :

- كان معاك حد تاني ؟
- كان فيه اثنين يا بيه جابوهم من الباطنية ورا الوكالة ، وحاسبهم الأستاذ حسن ومشوا.. وفضلت أنا .. قالولي أكنس التراب اللي جوَّه يمكن تلاقي حاجة .. ما لقيتش حاجة .. لقيتها خرابة .. سيبني أمشي يا بيه أنا في عرضك !

كان شوقي يعرف الكثير عن حسن السكري؛ كان موظفاً في إدارة المشتريات بالهيئة قبل أن يختاره قدري مديراً لمكتبه ، وسمع الكثير عن دوره في المهام القذرة لقدري ، بدءاً من جلب المخدرات والمقويات الجنسية حتى تلفيق أوراق المشتريات الوهمية أو المشتراة بأضعاف ثمنها ، والمتستر على علاقاته النسائية في شقته السرية ، والأهم من كل ذلك .. كان مندوبه الدائم بمديرية الأمن وتوصيل الهدايا والطلبات والتقارير إلى ضباطها ..

رق قلب محمود اللبان للفتى الذي ينتفض جسده كحيوان تم انتشاله من الغرق وقال له :

- روَّح يا بني الله يسهل لك .

انتفض شوقي غاضباً :

- يروَّح ازاي يا عم محمود ؟ .. لازم ناخده حالاً على القسم .

ما أن سمع الفتى كلمة القسم حتى انتفض واقفاً ثم فرَّ هارباً من القصر . قال شوقي:

- كويس كده يا عم محمود ؟ .. حاثبت ازاي دلوقتي اللي حصل ؟

- أنا معاك يا سي شوقي .. أنا شاهد .. لكن بلاش الولد الغلبان ده .. دا يتيم وبيجري على اخواته .. يعني نسيب المجرم ونمسك في المسكين بلا حول ولا قوة ؟ .. ياللا بينا على القسم .. ونفوت على الأستاذ سمير ناخده معانا..

تحامل شوقي على نفسه وقد اشتعلت آلام الضربات على ظهره ، ومشي مستنداً على ذراع محمود ، وما أن غادرا المرسم حتى وجدا أمامهما شابين مفتولي العضلات يتطاير الشرر من عيونهما ، من النظرة الأولى كان شكلهما يدل على أنهما يحترفان البلطجة ، يتقدمهما الحارس ذو الجلباب الأسود . أشار لهما نحوه فأحاطه أحدهما ليشلَّه ، وانهال الثاني بقبضته وقدميه على كل جزء من جسمه ، بِغِلّ ثأر لا يؤخذ إلا بالدم ، رغم أنهما لا يعرفانه ولم يرياه من قبل .

اندفع محمود اللبان وهو يصرخ !

- يا ولاد الكلب يا كفرة !

وارتمى على جسم شوقي الذي سقط على الأرض ، فتلقَّى أكثر الضربات بدلا منه محاولاً إخفاء رأسه ، وجاعلاً من جسمه درعاً له . وقبل أن ينصرف الرجال الثلاثة – بعد القيام بمهمتهم – قال أحد الشابين من بين لُهاثه :

- عشان ما تعملش راجل على أسيادك مرة ثانيه .

رفعه اللبان من على الأرض ، وساعده بمشقة في دخول المرسم والجلوس على قاعدة المشربية ، حيث لم تعد في القاعة قطعة أثاث واحدة سليمة ، وأستأذنه للذهاب إلى مرسم سمير ، تمهيداً للذهاب إلى قسم الشرطة .

***

كان سمير تادرس في مرسمه يدخن سيجارته وكأنه يلتهمها التهاما، كان غاضباً ومستفزاً مع شعور بالقهر لما شاهده على أيدي البلطجية في تحطيم لوحات الفنان شوقي هذا الصباح وما حكاه محمود اللبان الآن ، لذلك سارع بالذهاب معه إلى مرسم شوقي لاصطحابه إلى قسم شرطة الجمالية . وفي طريقهما مرا على مرسم الفنان محمد قنديل ليطلبا منه الذهاب معهم إلى القسم للشهادة بما رآه منذ البداية

وهم يحطمون المرسم ويلقون بما استطاعوا قذفه من اللوحات الصغيرة من نوافذ المشربية إلى الفناء ، حتى واقعة الضرب بأيدي البلطجية كما علم بها من الحارس شعبان الذي كان على علم بكل ما حدث وإن حرص على ألا يكون شاهداً عليه . وجدا قنديل في حالة من الرعب ، وأخبرهما بأنه حاول منعهم من تحطيم اللوحات فهددوه بأن الدور سيأتي عليه لو تدخل أو حتى فتح فمه بأنه رأي شيئاً ، وكانت آثار البكاء وتعبيرات القهر على وجهه كافية لإثبات صدقه وهو يعلن العجز عن الشهادة .

(٢٩)

كانت آثار الاعتداء الوحشي على وجه شوقي وقميصه كافية لتحمس مأمور قسم شرطة الجمالية لتحرير محضر بأقواله وأقوال الشاهدين اللبان وسمير ، وبعد أن انتهت إجراءات المحضر وتسجيل كل ما حدث بالتفصيل الدقيق ، كلف المأمور أحد أمناء الشرطة بإجراء معاينة على الطبيعة بالقصر ، وقبل أن يتحركوا للخروج بصحبة أمين الشرطة أكد عليهم ضرورة العثور على أسماء البلطجية قائلاً :

- عشان أجيبهم هنا من قفاهم وألبسهم طُرَح قبل ما ألبّسهم قضية !

وفيما هم في الطريق إلى القصر قال شوقي لمحمود اللبان بصوت واهن متقطع من الألم :

- صدَّقت كلامي لما قلتلك ما تسيبش الولد يهرب ؟ .. كان هو الخلط الوحيد اللي ممكن يوصلنا للمجرمين .. آدى آخرة الحِنِّية !

صمت اللبان في شعور بالذنب والعجز عن الاختيار بين حق صاحبه الذي تم تحطيمه وتدمير لوحاته ، وبين تدمير حياة الفتى المسكين ، الذي ربما كان يذكِّره بنفسه وهو في مثل سنه.

كانت المسافة قريبة بين قسم الشرطة بميدان بيت القاضي وبين القصر بحارة الطبلاوي . ولم تستغرق إلا دقائق سيراً على الأقدام . دخل الرجال الأربعة من بوابة

القصـر دون أن يعترضـهم الحـارس ذو الشـمروخ فـي وجـود أمـين الشـرطة بزيـه الأخضـر الـذي يشـبه زي الضـباط مـع اخـتلاف لونـه عـن زيِّهم الأبـيض . وقبـل أن يصعدوا السلم المؤدي إلى مرسم شوقي سأل سمير أمين الشرطة :

- محتاج لنا نشهد في محضر المعاينة ؟

رد بالنفي شاكراً لهما ، فقال محمود اللبان :

- إحنا تحت في مرسمى ياسي شوقي .. لو عُزتنا إنده علينا .

فـي قاعـة الحرملـك بـدا التـأثر والاسـتياء علـى وجـه أمـين الشـرطة لمـا رآه مـن آثـار التخريـب ، حتـى الكنبـة العريضـة التـي حـاولوا إخراجهـا مـن بـاب الحمـام الضـيق فانحشرت فيه تركوها محشورة على حالها ، وهو حال يثير الدهشة لإصرارهم على إخراجها من باب الحمام فيما كان أمامهم باب المرسم واسعاً .

وبينما كان أمين الشرطة يكتب محضر المعاينة ، ويذكر فيه كل التفاصيل بصوت مرتفع ، حتى وصل إلى الكنبة فقال :

- وقد حاول الفاعلون إخراجها من باب الحمام الضيق لسبب غير مفهوم وفشلوا لكبر حجمها فتركوها على وضعها محشورة في الباب .

وفجـأة انـدفعت إلـى الـداخل كتلـة بشـرية يتقدمها حسـن السـكري ، وقـد تعـرف عليـه شوقي للوهلة الأولى ، ومن خلفه شابان من موظفي هيئة الفنون ، وتوجه مباشرة إلى أمـين الشـرطة قـائلاً بغضـب وكأنـه صـاحب البيـت الـذي انتُهِك فـي غيابـه ، وقـال متقمصاً شخصية مسئول في الدولة :

- مين اللي أذن لك تدخل هنا ؟

نظر إليه بدهشة وغضب لكنه كبح انفعاله وسأله :

- وتبقى مين سيادتك ؟
- أنا حسن السكري مدير القصر .

وزع أمين الشرطة نظراته بينه وبين شوقي وقال مشيراً إلى الأخير :

- إمَّال الأستاذ يبقى إيه ؟ .. هو قال إنه المدير .
- قصده كان المدير .. قبل قرار رئيس الهيئة بنقله وتعييني مكانه .

صرخ شوقي :

- ما تصدقوش .. القرار متعلق تحت وفيه اسم مصطفى مسعود مدير القصر.

قال الأمين :

- عموماً دا موضوع ما يخصنيش .. واجبي دلوقتي أسجل محضر معاينة بآثار الاعتداء على مرسم الفنان زي ما سيادتك شايف .

قال حسن السكري بصوت تعمد أن يكون عالياً وبصفاقة صارخة بالتحدي:

- إسمح لي أقول لك دا مش شغلك .. دا شغلي أنا وشغل الهيئة .. لأنه شأن داخلي حيتم فيه تحقيق قانوني .

أحس الأمين بالإهانة فرد بعصبية :

- مش سيادتك اللي حتعرِّفني شغلي .. أنا هنا بانفّذ تعليمات البيه المأمور وباكمّل إجراءات المحضر اللي تم في القسم ومستوفي شهادة الشهود وأنا شايف قدامي آثار جريمة اعتداء .. ودلوقت بتكْمَل بوجود حضرتك واعترافك بأنك المدير المسئول .. وبعد إذنك تشرَّف معايا في القسم لأخذ أقوالك أمام السيد المأمور .

تراجع حسن السكري خطوة للوراء ، وهو ينظر للأمين نظرة استخفاف وسخرية ثم قال له :

- إذا كنت دلوقت بتنفذ تعليمات المأمور .. أنا بقى بنفذ تعليمات مدير الأمن..

ثم اقترب من الأمين وقال في لهجة منذرة بالخطر :

- شوف يا سيادة الأمين .. الموضوع كبير قوي عليك وعلى سيادة المأمور اللي بعتك .. أنت عندك أولاد ؟
- أيوه عندي .

ازداد اقتراباً منه وقال متقمصاً دور وكيل النيابة:

- أنصحك تبعد بعيد خالص عن الموضوع ده عشان تربّي عيالك .. لأن أي كلام حتكتبه حنثبت إنه محضر تحريات ملفّق ويضيع فيها مستقبلك !

وأمسك بـ « الإسبلايت » التي تحمل إشارة برتبته الشرطية على كتفه قائلاً :

- الموضوع يابني موضوع سياسي وفيه قضية شيوعية ومستندات وبلاوي لقيناها هنا .. والملف دلوقتي على مكتب وزير الداخلية شخصياً .. بانصحك خليك بعيد لتروح في داهية !

أزاح الأمين يده من فوق كتفه بعنف قائلاً :

- أنا ما اسمحلكش !

ضحك حسن السكري ساخراً وقال متحدياً :

- كده ؟ .. طيب وريني حتعمل إيه ؟

ابتعد الأمين وهو يمسك بالأجندة التي كان يسجل فيها محضر تحرياته ، ثم توقف فجأة وقد شحب لونه وبدا عليه الاضطراب الشديد ووضع الكلب على رأسه ويده ترتعش ، ثم اتجه نحو الباب قائلاً بصوت خفيض :

- خلاص يا أساتذة أنا ماشي .

هتف شوقي :

- ماشي ازاي قبل ما تكمل شغلك ؟ .. دا تهويش يا حضرة الأمين .. كل اللي قاله كلام فارغ .. لا مدير أمن ولا وزير داخلية ولا منشورات .. ولا هو أصلاً مدير القصر .. لو حبيت تتأكد انزل إقرأ القرار وهو متعلق تحت .. ما فيش فيه اسمه أصلاً ..

إلا أن الأمين مضى خارجاً بدون تعليق وبقى حسن السكري يقهقه ساخراً في أعقاب أمين الشرطة :

- سلامات يا سيادة الأمين !

(٣٠)

استأجر سيارة أجرة إلى منزله ، رغم أن ذلك سيكلفه مبلغاً كبيراً من مرتبه الذي قبضه منذ أيام . مما سيهدد استقراره لآخر الشهر ، كان من المستحيل أن يركب الأتوبيس وهو في تلك الحالة من الألم في كل جزء من جسمه ، فوق ما يبدو عليه من مظاهر الاعتداء الهمجي . ألقى بجسمه على فراشه وكل خلية فيه تنبح . لم يخلع ملابسه .. استطاع بالكاد إخراج حرز محمد جاد ووضعه على الكومودينو . لم يفكر في الغداء وقد أوشك المغرب أن يؤذَّن له . حاول التفكير في كل ما حدث وما ينبغي عليه أن يفعل ، كان يتمنى الآن أمنية وحيدة ، وهي رؤية فريدة أو الاتصال بها ، لكنه لم يشعر بنفسه إلا وقد راح في سبات عميق .

انتابته سلسلة طويلة من الأحلام ومن أضغاث الأحلام ، ومن الكوابيس المفزعة التي جعلته يقفز منتفضاً في فراشه غير مرة ، ثم يرغمه الإجهاد والألم على معاودة النوم المتوتر ، لينتفض بعد فترة لا يدريها على كابوس جديد . في المرة الأخيرة كان يسمع نداء استغاثة من شخص كأنه يغرق لكنه لا يراه ، يحاول أن يمد إليه يده فيأخذه التيار بعيداً ، فينزل إلى الماء محاولاً اللحاق به ، لا يعرف من هو ولا في أي مكان ، هي فقط حالة الصراخ والاستغاثة وشهقات الغرق ، يحاول باستماتة أن يلحق به فيأخذه التيار ويوشك على الغرق بدوره ، فينتفض مرعوباً ، ليكتشف أن جرس التليفون يرن بشده . كان لا يدري أين هو ، والمكان في حجرته يبدو غريباً ، بل هو نفسه لا يكاد يتعرف على من هو ، ورنين الجرس يلح إلحاحاً فوق العادة وكأنه يرن منذ ساعة . رفع السماعة ورد وهو بين النوم واليقظة :

- آلو .

رد صوت نسائي رقيق :

- الأستاذ شوقي نعمان ؟
- نعم .
- صباح الخير.
- صباح النور.

- أنا آسفه .. يبدو أنني اتصلت في وقت مبكر . لقد رن التليفون طويلاً .
- كم الساعة الآن .
- التاسعة صباحاً .

بدا يستعيد وعيه حتى انتبه تماماً وقال :

- تقصدين التاسعة مساءً؟
- لا يا فندم .. نحن في الصباح .

نظر حوله في دهشة وارتباك ، وبدأ يستعيد أحداث الأمس . سأل نفسه : أهذا يعني أنني قضيت نائماً منذ الخامسة مساء أمس حتى التاسعة صباح اليوم التالي ؟ .. أمر لا يصدق ! .. قال :

- أتشرف بمعرفة من يحدثني .
- أنا سارة زميلة ... (وصمتت لحظات وأكملت بصوت مختنق) أنا صديقة فريدة وزميلتها في السكن ..
- نعم نعم .. تذكرت .. لقد حدثتني عنك .. أهلا وسهلاً .
- أهلاً يا افندم .. هل يمكن أن نتقابل اليوم ؟
- بكل سرور .. هل يمكن أن أعرف بأي خصوص ؟
- الحقيقة أن معي لك رسالة من فريدة .
- رسالة ؟ .. لماذا الرسائل ؟ .. كان المفروض ان نتقابل اليوم او غداً .. كنت سأكلمها اليوم لنتفق .
- سوف أخبرك بكل شيء حين نلتقي .
- بكل شيء ؟ .. هناك إذن أشياء .. أقلقتيني .
- أنا آسفة .. عليَّ فقط تبليغ الرسالة .. لقد شرحَتْ لي كيف أحضر إليك في المسافرخانة .. هل أحضر اليوم ؟
- للأسف لن أذهب إلى هناك اليوم .. هل يناسبك أتيليه القاهرة ؟
- مناسب جداً .
- حسناً .. اليوم في الخامسة مساء .. مناسب ؟

- نعم ..
- أكيد لا تعرفين شكلي .. عموماً سيوصلونك إليَّ فور حضورك .
- اتفقنا .. مع السلامة .

كان يريد أن يسألها عن المزيد لكنها كانت متعجلة . استبد به القلق .. « ما الذي يدعو فريدة لإرسال رسالة إليَّ .. إلا إذا .. » لم يجرؤ على الاستطراد مع فكرة أنها تريد إنهاء علاقتهما .. « يا للكارثة ! .. الكوارث لا تأتي فرادي ! .. ألا يكفيني ما حدث اليوم ؟ .. لازلت لا أستوعب الأمر ولا أستطيع حتى التفكير فيه وفيما عليَّ أن أفعل .. إلى أين أذهب وإلى من ألجأ؟ .. هل أصبحت فعلاً بلا لوحات ولا مرسم ولا وظيفه ؟ .. كل ذلك بضربة واحدة ! .. حتى القانون يعطيني ظهره ويهرب .. مجرد إثبات فعل الاجرام لا أستطيع إدراكه .. أي لعنة ! .. لقد تم تمزيق أولادك أو لوحاتك والآن يجيء دور تمزيق جسدك .. هذا قتل رباعي : الوظيفة والمرسم واللوحات والكرامة !! .. وربما يجيء القتل الخامس في أي وقت .. وهو السجن !.. ألم يقلها في وجهك أداة المؤامرة حسن السكري ، بأنها قضية شيوعية مكتملة على مكتب وزير الداخلية ؟ .. هل أبقى كالدجاجة انتظر وصولهم إلى القفص للقبض عليّ؟ أم أبحث عن مهرب في مكان يعجزهم الوصول إليه ؟ .. هل أسافر إلى بلدتي ، ومنها إلى بلد أمي « ميت سهيل » ؟ .. فتلك معلومة لم تصل إلى ملف المباحث .. لكن إلى متى أظل مختفياً هناك ؟.. وكم من الوقت أحتمل ذلك ؟ .. وماذا أقول لوالديَّ وبقية الأسرة ، وهم أصلاً لا يستوعبون موقفي ، ولن يتفهموا ظروفي أو يتعاطفوا معها ؟ .. وماذا يكون وضعي مع فريدة وقد باتت معرضة لتمكُّنَّ الاكتئاب منها حتى محاولة الخلاص من الحياه؟ وفي حالة علمها بما حدث اليوم سيكون هو الضربة القاضية عليها .. فإذا كُتبت لها النجاة مرة من محاولة الانتحار فمن يضمن نجاتها في الثانية ؟ .. وماذا يكون حالي لو حدث لها مكروه ؟ .. اكتمل طوق الخناجر حول رأسي ، فلا أستطيع أن أعبُر ولا أن أرجع .. وكأنني كنت أتنبأ بهذه اللحظة حين رسمت ذلك الرجل ، مع فارق وحيد هو أنني جعلت ملامحه تتوهج بالصلابة والتحدي باتخاذه قرار القفز من الدائرة المحاطة بنصال

مسنونة وهو واثق من الخروج سالماً .. أما أنا فليس لدى ثقة في خوض هذا التحدي ولا قدرة لي على الخروج سالماً أو الارتداد هارباً » .

ورغم أنه لم يتناول أي شيء يقتات به منذ أربعة وعشرين ساعة فإنه لم يشعر بأي رغبة في الطعام ، ربما كان يفضل استئناف النوم ، فجسمه لا يزال محطماً ينبح بالألم من ضربات الشمروخ ولكمات الأيدي وركلات الأرجل . قد يكون من الضروري الذهاب إلى طبيب أو إلى المستشفى للكشف ، فربما كان هناك كسر في موضع ما .. « هل كسروا شيئاً بداخلك حقاً ؟ .. إن ما كُسر أصعب من أن يعالجه أي دواء أو تجبره جبيرة .. ففي كلا المرتين اللتين سجنت فيهما لم أتعرض لمثل هذا ، قد أكون تعرضَت للموت غير مرة ، إحداهما بالاختناق في الزنزانة من جراء سحب دواء الحساسية الربوية منى وأنا محبوس مع أربعة زملاء من المدخنين ، والثانية في أواخر أيام الإضراب عن الطعام في السجن ، وكلتاهما ليستا بفعل تعذيب مباشر من السجانة .. أما اليوم فكان أمراً مدبرا لكسرك من الداخل كسراً مضاعفاً حاسماً ونهائياً .. كي تعيش بعد ذلك كسير النفس ! »

أوشك على الارتماء من جديد على الفراش ، ثم تذكر أن عليه أن يكون في حالة تمسح له بالخروج من البيت في الثالثة والنصف مساء ليكون في أتيليه القاهرة قبل الخامسة ، ومن ثم فلا مفر من التوجه حالاً إلى الصيدلية لشراء مسكن للألم وعلاج للكدمات في وجهه ، ثم لإحضار شيء يأكله حتى يستطيع الاستمرار في المقاومة .

بذل مجهوداً شاقاً للذهاب إلى الحمام . منحه التخلص من فضلاته ووضع كمادات الماء البارد على وجهه بعض الراحة ، لكن رؤيته لملامح وجهه في المرآة سلبت منه إياها ، فقد رأى وجه ملاكم هُزِم في الجولة الأخيرة فبدت عيناه مغلقتين ووجنتاه متورمتين ومصبوغتين بالأزرق والأحمر والأسود . بحث في الأدراج حتى عثر على نظارة شمسية قاتمة غطى بها عينيه ، وخرج من البيت محاولاً ألا يبدو بظهر مُنْحَنٍ ، ومضى يتلمس طريقه إلى الصيدلية عند ناصية الشارع .

(٣١)

الخامسة مساء هي الوقت المثالي لحضوره اليوم إلى الأتيليه ، فلا يرتاده في ذلك التوقيت إلا قلة نادرة ، وهو ما يفضله اليوم في حالته تلك . أتت « سارة » في موعدها تماماً . قادها إلى منضدته المنعزلة في الحديقة عم احمد الموظف بالأتيليه، ترتدي فستانا أسود ، لاحظ أنها تضع مثله نظارة سوداء . رحب بها وهي تصافحه في حيادية أقرب إلى البرود وبوجه خالٍ تماماً من أي زينة أو ابتسامة . قال في نفسه : هذه بداية غير مطمئنة . طلب لها مشروباً فأبدت عدم رغبتها بشدة متذرعة بأنها ستذهب سريعاً لارتباطها بموعد آخر .. قال يشجعها على الحديث :

- الم يكن من الممكن لفريدة أن تحضر معك ؟

اكتفت بالنفي بهز رأسها . انتظر أن تبدأ الحديث ، فلما استمرت في صمتها قال :

- أنت خريجة فنون مسرحية مثل فريدة ؟

وافقت بهز رأسها أيضاً . عاد يسألها :

- وتعملان معاً في الأكاديمية ؟

مرة أخرى هزت رأسها موافقة وهي لا تزال على صمتها . لم يعد أمامه إلا سؤالها عن الرسالة التي تحملها إليه . في نفس اللحظة كانت تفتح حقيبتها وتخرج الرسالة . استعد لتناولها منها . لكنها استبقتها في يدها وهي تقلبها وكأنها تتردد في تسليمها إليه.

- نعم .. تفضل .

تناولها بفضول . لاحظ سمكها وثقل وزنها . امتلأ بالإثارة والفضول لفضِّها . قرأ العنوان المكتوب على المظروف الأزرق مرددا بصوت هامس : « حبيبي شوقي » .. دق قلبه بسعادة لم يتوقع أن يشعر بها في ظروفه الحالية ، فانتزعته من حالة الاكتئاب الجاثمة على صدره ، وقرأ تحت الكلمتين ما كتبته بخطها الدقيق المنتظم تصف عنوان قصر المسافرخانة .. بالشارع والحارة والعلامات المميزة في الطريق

المؤدي إليه . ابتسم في محبة وحاول أن يفض الغلاف فمدت سارة يدها بسرعة ومنعته قائلة:

- فلتقرأ الرسالة بعد أن أنصرف على مهلك .. أريد فقط أن أقول لك كلمة قبل ذهابي .. والحقيقة أنني لم أكن راغبة في قول شيء لك ، لكنني بعد ما لاحظته الآن من فرحتك بتلك الرسالة وبما كتَبتْه على المظروف ، لا يطاوعني قلبي على تركك تتلقى الصدمة دفعة واحدة ، أنا أعرف ما كانت فريدة تعنيه لك .
- هل قلت كانت ؟ .. أيِعني هذا أنها تريد أن تنهي كل شيء بيننا ؟

أطرقت ثانية ، وإذا بها تنفجر في نوبة بكاء شديد ، وقبل أن تقول شيئاً أدرك بشعور باطني ما حدث ، ربما من تأثير الحلم الكابوسّي ليلة أمس للشخص الذي يغرق .. وفي هذه اللحظة فقط انتبه إلى سبب ارتدائها السواد .. هتف مفزوعاً :

- إياك أن تقولي إنها انتحرت !

استمرت في البكاء حتى قالت

- للأسف هذا ما حدث .
- يا نهار أسود !!

هكذا صرخ بصوت مرتفع .. وواصل :

- يا إلهي !.. لا أستطيع أن أصدق .. متى حدث ذلك ؟
- منذ يومين .. لم يستطع المارة على الشاطئ إنقاذها .. كانت قد رتبت كل شيء .. كتبت خطابها إليك .. وكتبت لي أيضاً رسالة مطولة .. لم تكتب لوالدها أو لأحد من أسرتها .. فقط تركت لي أرقام هواتفهم وربطت حول معصمها كيساً من البلاستك بداخله ورقة عليها اسمي وتليفوني لأكون أول من يتم إبلاغه بعد انتشال جثتها .

استدعوني وتعرفت عليها وأخذوا أقوالي . أعطيتهم اسم والدها ورقمه اللذين تركتهما لي . قاموا بالاتصال به . جاء مع عدد من أفراد اسرتها . تم تشريح

الجثة بالأمس ورفعوا التقرير وسمحوا لأهلها باستلامها . أخذوها إلى الإسكندرية لتدفن اليوم .

كانت تتكلم خلال بكائها المتصل ، وهو عاجز عن إبداء أي تعبير ، كمن تلقى ضربة مزلزلة من مطرقة حداد . بدأ يشعر بالدوران وكأنه على وشك الإغماء . وضع رأسه على سطح المنضدة وأخذ ينتفض بإيقاع بطئ أخذ يتسارع مصحوباً بنشيج حاد . ضرب المنضدة بقبضته بعنف وهو يقول ملتاعاً : ليه .. ليه .. ليه ؟!

ربَّتت سارة على كتفه وهي تغالب بكاءها :

- هون عليك يا أستاذ شوقي . لقد ذهبت وهي تحمل لك أجمل ذكرى . أوصتني عليك في خطابها وطلبت مني أن أقول لك برغبتها الأخيرة أن تسامحها وتدعو لها بالمغفرة .. البقية في حياتك .. أرجوك حاول أن تتماسك .. وأريدك أن تعرف أن ما أقدمت عليه كان حتمياً أن تفعله فلم يكن بيدها مقاومته ، فإذا لم تفعله اليوم فسيكون في أي وقت آخر . كانت مريضة نفسياً. وأبلغها الطبيب بتداعيات المرض . الله يرحمها ويحسن إليها ويعوض عليك عنها كل خير .. واسمح لي بأن اتصل بك تليفونياً لأطمئن عليك من وقت لآخر .. هذا ما طلبته مني فريدة .. بعد إذنك .

وما أن ذهبت سارة حتى فض المظروف وحاول أن يقرأ :

« حبيبي شوقي ..

عندما تقرأ هذا الخطاب أكون في عالم آخر .. »

عاودته ضربات المطرقة على رأسه بوحشية . توقف عن القراءة . لا زال عاجزاً عن الفهم وعن التصديق . أظلمت الرؤية أمامه . حاول العودة إلى نفس الكلمات فلم يستطع القراءة . سحابة سوداء أعتمت بصره وتداخلت الكلمات والسطور أمام عينيه. دعكهما بقوة وراح يركز بصره حتى استعاد القدرة على القراءة ، وضربات قلبه كخيول جامحة تتسابق في صدره ...

« ... أرجوك أن تتماسك يا حبيبي .. أُدرك أن الخبر سيكون صاعقاً لك لو لم تكن مستعداً لتلقيه بأي شكل خاصة وأنت في تلك الأزمة .... »

عاد يضرب المنضدة بقبضته وأراد أن يصرخ أو أن يفعل أي شيء . انتفض واقفاً ثم جلس ثانية بعد أن ركل الكرسي الذي بجواره بعنف .. فعلتها المجنونة .. الخائنة .. كانت مبيتّة النية على ذلك ولم تخبرني ..

أغلق الرسالة ودسها في المظروف كما كانت وقرر العودة في الحال إلى شقته، لا لشيء إلا ليصرخ كما يشاء ، لا يستطيع أن يفعل ذلك هنا .. لا بد أن يصرخ ويبكي وإلا فسينفجر .. كل هذا في يوم واحد ؟! .. لم أعد أحتمل .. أرجوك!.. الرحمة يا إلهي !

عاد بالتاكسي إلى شقته . خلال الطريق حاول ان يعاود القراءة فتغلبه الدموع وتتملكه الرغبة في البكاء والنشيج بصوت مرتفع .. يريد أن يطلق العنان لـ (آه) مكبوتة .. تمزق صدره .. آاااه ! .. أعاد المظروف إلى جيبه ، يريد أن يستحث السائق للإسراع لكن الزحام يعطله وإشارات المرور تمنعه . عند ناصية الشارع نزل من السيارة ، وما أن دفع للسائق أجره حتى أسرع يهرول إلى شقته . ارتمى على أول مقعد قابله وأطلق العنان لبكائه بصوت مرتفع ، وكلما سمع بكاءه ازدادت حرقته واهتز كل كيانه في نشيج لم يصدر عنه يوماً لعزيز لديه . حاول قراءة الرسالة من جديد ، فكان بذلك يزيد عذابه ، إلى جانب شعوره بلا جدوى القراءة فهي لن تغير من الأمر شيئاً . لا يدري كم مرَّ من الوقت على ذلك حتى هدأ في النهاية . قام فغسل وجهه وقد شعر بأن عينيه تنزفان دماً لا دمعاً .. أغرق كل رأسه بالماء البارد تحت الصنبور وتركه ينساب فوقه لمدة طويله . خرج من الحمام دون رغبة في تجفيف رأسه . تتساقط نقاط الماء فيسمح لها بذلك بدلاً من دموع عينيه . شعر بأن هذه القطرات هي استمرار للدموع التي تحجرت أخيراً من شدة الألم . تمدد على ظهره فوق الكنبة الكبيرة في الأنتريه . أغمض عينيه ينشد هدأة لمشاعره المهتاجة . بدا وكأنه على وشك الإغفاء فتذكر أنه لم يقرأ الرسالة بعد ، واحتاج لأن يسمع صوت فريدة ولو عبر الكلمات .. فعاد إلى القراءة ..

« ... أريدك أن تكون واثقاً من أنني لم أكن أختار بين الحياة والموت .. بل بين موت وموت . لكن الموت الأول وأنا حيَّة كان مصحوباً بعذاب لا يفارقني ، أسير دائماً وأنا أحمله في داخلي مثل ذلك الجنين في بطني ، الذي كان سبباً في شقائي طوال ثلاثة أشهر قبل أن اتخلص منه ، وعندما فعلت وجدتني أكثر شقاء مما كنت ، حيث يلازمني الشعور بالخطيئة والدنس ، ويعذبني الإحساس بأني خائنة لا أستحقك مع أنني لم أخنك لحظة واحدة أقسم لك ، لكن خيانتي لنفسي هيأت لي أنني خائنة للجميع .. حتى لك ولسارة التي وقفت إلى جانبي .. وها أنت ترى أن صمتي وحالات اكتئابي المفاجئة وأنا معك كان وراءها سر ظللت أُخبئه عنك وعن العالم إلا سارة . التي احتضنت ضعفي وحاولت مساعدتي بكل ما تملك .. والأمر من أوله لآخره كان يتعلق بخطيبي كما كنت أنت تتوقع وتُلمَّح دائماً .. وبأنني قد خُدعت خديعة مريرة لا شفاء من سريانها في دمي .. فأنا بالفعل إنسانة بسيطة ، بل قل ساذجة ، تفترض أن الأصل في الناس والحياة هو الصدق ، فعندما أقسم لي بأننا سنتزوج صدقته وأصبح رجُلي أمام الله ، لكن يوم العسل سرعان ما انتهى وبان لي وجهه الحقيقي .. كان قد تعرف عليّ في ندوة شعرية بالأكاديمية .. وكنت أسمع عنه كشاعر مرموق محل اعجاب الفتيات ومحط أحلامهم ، وكان نموذجاً لائقاً كزوج تتمناه أي فتاة .. وسيم .. رقيق النبرات .. يجيد الحديث إلى السيدات والمغازلة للشابات .. يستعين العشاق بأبيات من قصائده في خطاباتهم الغرامية ، وكان نجماً دائماً في برامج التليفزيون وفي المقابلات الصحفية بالمجلات . في تلك الندوة لم يرفع عينيه عني ، بل كان يلقي قصائده وكأنه يوجهها لي وحدي وكأنني ملهمته ، بعد أن ظل يلاحقني بإظهار هيامه بي . لم أكن قد دخلت في هذه الدائرة من قبل لأعرف معلومات أكثر عنه .. أشبع غروري بغزوه الجريء لعواطفي البسيطة الخام . كان أول رجل يقتحم مشاعري . كنت أعاني الغربة والوحدة بعيداً عن بلدي .. أهلي ناس بسطاء .. صعايدة .. تجار فاكهة استقروا بالإسكندرية .. أنا ولدت وكبرت فيها ، لكن البيت يقوم على نفس تقاليد الصعايدة . وجدت في دعوته كي استجيب لحبه خلاصاً من أشياء كثيرة .. الحاجة إلى رجل يحبني .. إلى مسكن يأويني .. إلى استقرار .. إلى حماية .. لكني اشترطت عليه أن يكون

الارتباط رسمياً .. وافق على الخطبة كمرحلة أولى .. وتم ذلك بين أهلي بالإسكندرية، وأظن أن هذا اللقاء بينه وبينهم كان الصخرة التي انكسرت عليها نظرته إليّ ، وربما اتخذ قراره في نفس اليوم بعدم استكمال إجراءات الزواج ، عندما لمس تفاوتاً طبقياً شديداً ، لم يصرح لي بذلك إطلاقاً ، بل كان حريصاً على الإشادة بهم وبطيبتهم وعصاميتهم، وبأنهم يمثلون أصالة الشعب المصري ، لكنه كان يضمر شيئاً آخر ، لقد وجدني صيداً رخيصاً لن يكلفه أمر خطوبتي شيئاً ، حتى يصل إلى مرحلة الملل فيهرب في الوقت المناسب . ولأنها كانت مجرد شكوك عندي كان حريصاً على أن يبدّدها.

هكذا استمرينا مخطوبين شهوراً وهو يؤجل عقد القران بمعاذير مختلفة ، وكان قد دعاني إلى شقته المفروشة أكثر من مرة ، وكنت قد بدأت أحبه فعلاً فأصبحنا أكثر حميمية .. وفي إحدى المرات حدث ما حدث .. تركت له نفسي ثقة في أنه رجلي .. حتى نبهتني سارة إلى ما يتردد من أقاويل في الوسط الأدبي والثقافي عن علاقاته الغرامية ونذالاته المتكررة مع أخريات قبلي وبعدي ، وغير ذلك من سلوكيات انتهازية ذكرت لي أنت بنفسك بعضها ، ونصحتني سارة بفسخ الخطوبة لأنها بلا مستقبل . لم تكن تعرف ما حدث بيننا حتى فوجئتُ باكتشاف أنني حامل في الشهر الثاني . صارحته بذلك على أمل الاسراع بإتمام الزواج، فقال أنه يحاول توفيق أوضاعه لعقد القران، كان الزواج منه رغم كرهي له هو طوق النجاة الوحيد من الإجهاض أو العار أو الموت، لكنه أخذ يراوغ ويماطل، والجنين يكبر في بطني، فيما كانت نفسي اللوَّامة تعذبني بمثل ما يعذبني الخوف من الفضيحة، ونفسي لم تكن تلومني فقط على اقترافي الخطأ الأخلاقي، بل كذلك لغفلتي في الاختيار للإنسان الذي سلَّمته نفسي. أصبحت أعيش حالة مزمنة من الخصام مع نفسي والتبكيت لها، بما جعلني أوقن بعدم جدارتي بحمل المسئولية.

ثم كانت المفاجأة الكبرى حين اكتشفت أنه متزوج وله طفلان، وعندما واجهته بذلك اضطر إلى الاعتراف بأنها الحقيقية، وبأنه لهذا السبب لا يستطيع اتمام زواجنا بشكل علني، وعرض أن نتزوج زواجًا عرفيًا وإلا هَدَم بيته وخسر أولاده. لكن حتى

لو طلب في هذه اللحظة إعلان الزواج شرعيًا لكنت رفضت، فقد أصبح أحقر رجل في العالم بالنسبة لي، وأصبحت ممزقة بين الرعب من ظهور أعراض الحمل والعار الذي ينتظرني حينذلك، وبين الرعب من عملية الإجهاض، وبين الاحتقار الذي تحول إلى كراهية شديدة لخالد ولنفسي وللجنين، فكان الخلاص من كل ذلك يتمثل في شيء واحد هو الموت، حتى أصبح ذلك خاطرًا يلازمني ليل نهار، مع تسليمي بأنه جريمة مضاعفة .. بقتل نفسي وقتل روح أودعها الله في بطني.

منذ ذلك اليوم شب الصراع المرير بداخلي .. فكرت في الإجهاض .. صارحته بذلك فرفض الفكرة وأبدى استعداده لعقد القران .. كان ذلك بالنسبة لي حلاً أفضل من الإجهاض بمشاكله المعقدة .. أخذ يراوغ ويماطل ، والجنين يكبر في بطني . إن نفسي اللوامة هي أكثر ما يعذبني ، أكثر من خوف الفضيحة وتقاليد المجتمع .. ونفسي لا تلومني على اقترافي الخطأ لأسباب أخلاقية فقط ، بل لغفلتي في الاختيار الصحيح للإنسان الذي أسلمه نفسي . أصبحت في حالة مزمنة من الخصام مع نفسي والتبكيت لها ، بما يشعرني دائماً بعدم جدارتي بحمل المسئولية ..

ويتزايد الرعب بداخلي كلما توقعت ظهور أعراض الحمل .. كنت أتخيل موقف أهلي حين يعرفون .. إنه العار وأنت تعرف تبعاته .. وازددت كراهية لخالد ، وانتقلت هذه الكراهية إلى الجنين بداخلي ، ثم لنفسي ، وبدأت أتمنى الموت حتى أصبح خاطراً يلازمني طوال الوقت ، وأوشكت أكثر من مرة على الانتحار، لكنني كنت أتراجع خوفاً من عقاب الله ، فسوف تكون جريمة القتل جريمتان : قتل نفسي وقتل روح أودعها الله في بطني ، ووصلت كراهيتي لخالد أنني لم أعد على استعداد أساساً للزواج منه حتى ولو كان جاداً فيه ، فقد صار يمثل لي كل حقارات العالم ..

في تلك الفترة ألتقينا أنا وأنت .. وأعترف لك الآن بأنه لم يخطر ببالي – عندما تعارفنا وبدأ اهتمامك بي ودعوتي إلى مرسمك بالمسافرخانة – أن تقوم بيننا أية علاقة ، كنت حينها في حالة هروب من مواجهة أزمتي مع خالد ومن الجنين الذي أحمله ومن نفسي ، وقد كانت تُلحّ علي في تلك الفترة فكرة الانتحار ، لكني لم أكن قادرة على اتخاذ أي قرار في أي شيء ، فتركت نفسي كريشة تدفعها الريح ،

وتعلمت أن أسلك في الظاهر عكس ما يدور في أعماقي ، لهذا كنت أبدو معك مرحة ومنطلقة ، بينما أموت من الداخل ببطء ، وقد فقدت الرغبة في الحياة وفقدت الثقة في كل شيء ، لم أكن أظن على الإطلاق أنني يمكن أن أخرج من حالتي النفسية ، ولا حتى كنت راغبة في ذلك .. كنت كالمحكوم عليه بالإعدام وهو يقضي ما بقي له من أيام في الحياة بلا معنى ولا هدف .. لكن ما لم أكن أتوقعه قط أنك ستفتح لي باباً جديداً للحياة والحب .. وتزرع نبتة جديدة في قلبي .. وكالغريق تشبثت بك ، لكنك في نفس الوقت – دون أن تدري – فتحت بابا آخر للصراع في نفسي ، فهذه علاقة محكوم عليها بالإعدام قبل أن تولد ، فلماذا أدخلك وأدخل نفسي في لهيبها وأخدعك بأنني مستجيبة لاستمرارها ، فيما أحاسبك وأحاكمك على خداعك لي حول علاقتك السابقة بأحلام ؟ .. ألا أكون بذلك كاذبة ومخادعة .. فيما أنا على ثقة من صدقك في حبك لي ؟ .. وكشف لي هذا التناقض داخل نفسي وشعوري بالغيرة التي كنت أظنها مفتعلة ، أنها حقيقية نابعة من حب وُلد وكبر بداخلي دون أن أدري ، ثم أصبحت أحرص على بقائه في الوقت الذي أتمنى التخلص من الجنين في بطني لأكون لك وحدك ، ولأكون متصالحة مع نفسي ، وبخلاصي من الجنين كنت سأتخلص كذلك من شعور يلازمني بظلم الأقدار حين ابتلتني بأسوأ خلق الله ، ثم أهدتني أروع خلقه أيضاً . ثم ها هي تحرمني منه ، تحرمني من نور أخذ يبزغ في حياتي وأنا على مشارف الموت ، ومن إحساس جديد بالعدل يعوّض ظلم الحياة، ومن أمل يشرق وسط ظلامها ..

رفضت أن أشدك إلى مستنقعي ، فقررت مواجهة قدري وحدي ، بدون حتى أن يكون جنيني في بطني ، فأجريت عملية الإجهاض بمساعدة سارة التي باعت كل مصاغها ، وفكَّت وديعتها من أجل ذلك . حتى أبدأ بعد العملية حياة جديدة . والغريب هو أن هذه المشاعر الجديدة معك كانت في لحظات كثيرة عاجزة عن مواجهة واقع قوي عندي لطلب الموت ، له استقلاله الذاتي – كالغريزة – بعيداً عن أي مبررات خارجية ، وأظن أن ذلك هو ما كان يقصده الطبيب النفسي وهو يفسر لي حالتي بأنها بارانويا مرضية بما تحمله من أعراض قد تكون متأصلة في نفسي دون أن أعرف ، وتدفعني إلى كراهية الحياة وتمنّي الموت ، وكنت أقاوم هذه النزعة

المرضية بدافعين للحياة ، وقد تدهش عندما أقول أن أولهما هو ألا يكتشف أهلي بعد انتشال جثتي وتشريحها أنني كنت أحمل عاري . فيعيشون ملطخين به ومتبرئين من ذكراي . والثاني هو حرصي على وجودك في حياتي ، وعلى ألا أعرضك لصدمة مروعة بتلقي خبر رحيلي . ليس فقط الصدمة في حد ذاتها ، بل لأنك ستعرف ما سيعرفه أهلي ، ويزيد عليه إحساسك بأنني خدعتك بإخفاء الحقيقة عنك ، وقد فكرت كثيراً في إخبارك بهذه الحقيقة وأترك لك حرية الاختيار، ثم تراجعت لأنني كنت أبدو وكأنني أقول لك خذني بعاري ، وكنت واثقة من أنك ستحتقرني كما أحتقر نفسي ، ولا مكان للحب مع الشعور بالاحتقار . وسوف أظل أشعر دائماً لو بقيت معك بالدنس وبأنني غير جديرة بك ، وهذا ما حسم الأمر بداخلي بقرار الانتحار. وحين عزمت على تنفيذه قررت أن أسبقه بإجراء عملية الإجهاض من أجل أهلي ، حتى لا يكون عارهم بسببي عارين : عار الشرف وعار الانتحار ، وربما يخفف من وقعه عليهم بأنني كنت مريضة نفسياً وأتلقى العلاج.

قلت لك في آخر المكالمة التليفونية الوحيدة بيننا أني أحبك ، لكن حبي لك الآن يفوق معنى الحب الذي يعرفه كل البشر بين رجل وامرأة . أشكرك يا حبيبي لأنك منحتني في أيامي الأخيرة أسعد لحظات حياتي . وأستحلفك بالله أن تغفر لي ضعفي وخيانتي لك ، بتركك وحيداً وأنت تخوض إحدى معاركك النبيلة ، وأنا على ثقة من أنك سوف تعبرها منتصراً كما عبرتَ الأشد منها . فمثلك لا ينهزم في قضية مبدأ وعدل وكرامة ، لأنك بذاتك تجسيد لهذه الكلمات الثلاث . وأخيراً أتوسل إلى الله الغفور الرحيم أن يعوضك خيراً مني .

فريدتك

(٣٢)

قضى شوقي قرابة عشرة أيام في شقته ، هي فترة أجازة العيد مضافاً إليها اليومان السابقان عليها ، لم يخرج إلا لقضاء حاجات مُلحَّة بأماكن بالقرب من شقته، ولم يحتفل بالعيد بأي شكل من الأشكال ، ولو حتى بتهنئة أقاربه وأصدقائه عبر التليفون ، باستثناء والده الذي هاتفه ليبلغه اعتذاره عن السفر بسبب نزلة برد ،

وليُطَمئن والدته وأختيه على أن كل أحواله بخير . وكان يتلقى بعض التهاني فيرد على أصحابها باقتضاب ، دون أن يشير بأدنى إشارة إلى ما حدث في المسافرخانة، فضلاً عن موضوع فريدة الذي لا يعرف بعلاقته بها إلا عامر ، وعندما اتصل به منزعجاً وقلقا بعد ما سمعه من أنباء مرسمه وقرار نقله من المسافرخانة ، آثر ألا يستفيض في الحديث معه حول ذلك ، وحرص على ألا يخبره بمصير فريدة ، لأن حزنه عليها أمر يخصه وحده وشأن له حُرمته التي لا ينبغي أن ينتهكها بالفضفضة حولها حتى مع أقرب أصدقائه . لقد صدقت حين وَقَّعت رسالتها بـ « فريدتك » ، وبقدر ما يرطّب ذلك نفسه الملكومة فإنه يزيد آلامه ، لأنه لا يعرف ماذا يفعل بعد غيابها الأبدي .. فقد كانت – على قلة الفترة التي تواصلا خلالها – تفرش ظلها على كل مشاعره وخواطره وأيامه ولياليه ، وتلاحقه بأسئلة صعبة على بساطتها الفطرية كأسئلة الأطفال تبدأ عادة بـ « لماذا » .. وكثيراً ما يكون الجواب صعب المنال ، ما يجعله دائماً في حالة عصف ذهني ، حتى باتت ضرورة لإشعال حواسه النفسية والذهنية وجعلها في حالة يقظة مستمرة .

في الأسبوع التالي للأجازة كان قد استقر على بدء معركة مصيرية لاسترداد حقوقه الثلاثة : الوظيفة واللوحات والمرسم . ساعدته فترة الاعتكاف على ترتيب أفكاره . وتوصل إلى أن يتم السير في مسارين متوازيين ؛ وهما المسار القانوني والرأي العام . بالنسبة للمسار الأول فهو بحاجة فورا إلى محام يتخذ الإجراءات القانونية المطلوبة للقضايا الثلاث . وانتهى إلى التوجه للأستاذ نبيل الهلالي ، إنه بمثابة مؤسسة حقوقية للقضايا النقابية والعمالية ، وهو بحد ذاته تاريخ نضالي طويل في تبنِّي قضايا العمال والمضطهدين والمعارضين السياسيين ، وكثيراً ما يقوم بأعبائها المادية بغير مقابل في الحالات التي يرى عجز أصحابها من الفقراء عن دفع تكاليفها .. واهباً نفسه لهذه الرسالة منذ شبابه المبكر ، وبسببها تحمل قطيعة والده نجيب الهلالي باشا رئيس الوزراء الأخير قبل ثورة ١٩٥٢ وحرمانه من الميراث عقاباً على تمرده على طبقته الإقطاعية ومن ورائها القصر الملكي والاحتلال البريطاني ، من منطلق إيمانه بالاشتراكية والفكر الماركسي. ولم يكن ذلك هو الثمن الوحيد الذي دفعه مقابل موقفه السياسي ، فقد اعتُقل مراراً لسنوات طويلة في عهود

متتالية ، من المُلَكية إلى الناصرية إلى عهد السادات .. سيلجأ إليه شوقي وهو واثق بأنه لن يخذله ، مثلماً لم يخذله في سجنه في المرتين السابقتين هو والعشرات من رفاقه .

أما المسار الثاني فهو محاولة خلق رأي عام لمساندته في قضيته باعتبارها قضية مواجهة ضد الاستبداد والفساد واستغلال النفوذ ، وشوقي ليس إلا نموذج كاشف لها في مجال الفن والثقافة ، وتبادر إلى ذهنه اللجوء إلى مجلة روز اليوسف، وهي لسان المعارضة المدافع عن قضايا الديمقراطية الأكثر تأثيراً في الرأي العام ، وهو على علاقة ودية مع رئيس التحرير صلاح حافظ . وفكر كذلك في صديقه جمال الغيطاني ، لكنه فضل أرجاء اللجوء إليه لمرحلة تالية ، ولأن مؤسسة أخبار اليوم التي يعمل بها ليست المنبر الذي يتوقع أن يتبنَّى مثل هذه القضية . فليبدأ فورا بالذهاب إلى مكتب الهلالي بميدان باب اللوق .

استقبله « الأستاذ » بحفاوة كالمعتاد ، مبدياً اهتمامه بأخبار فنه الذي يقدره كما يقدر أعمال التشكيليين دائماً ، وفوق جدران حجرة المكتب لوحات رسمها أصدقاؤه الفنانون الذين رافقوه بمعتقل الواحات لسنوات أربع . استمع إليه الأستاذ بكل جوارحه. بنفس نُحوله الشديد وملامح وجهه المستطيلة وهي تشع بالقداسة كوجوه الفنان الإسباني إلجريكو في القرن السادس عشر .. وكعادته بدأ على الفور وضع خطته العملية ، فأعطاه ورقة وأخذ يمليه بالمهام التي عليه القيام بها قبل أي شيء .. أولاً : عمل توكيل رسمي لمكتبه بالشهر العقاري . ثانياً : صورة قرار النقل مختوماً بختم الهيئة . ثالثاً : صورة محضر قسم الشرطة الجمالية بشهادة الشهود متضمناً محضر المعاينة للمرسم . رابعاً : قرار تخصيص المرسم لإنتاجه الفني . خامساً : كشف بمحتويات المرسم بتفاصيل مواصفاتها وأنواعها من لوحات زيتية أو مائية ، وكذلك بالأثاث الذي تم تحطيمه بالمرسم . سادساً : صور فوتوغرافيه للمرسم قبل وبعد الاعتداء عليه وسابعاً : تقرير تفصيلي بتطور الأحداث بدءاً من المقابلة الأولى ثم الثانية لرئيس الهيئة حتى يوم الحادث . ثامناً : سيرته الذاتية شاملة نبذة عن طبيعة منصبه وتاريخ تعيينه فيه ، وكذا مناصبه وانجازاته السابقة في الحكومة

أو خارجها .. كان يمليه الطلبات بعفوية وكأنها مطبوعة في مخيلته .

هالته كثرة الطلبات واستحالة تنفيذ بعضها ، مثل قرار تخصيص المرسم وقرار النقل بخاتم الجمهورية وصور المرسم الفوتوغرافية بعد الاعتداء ومحضر الشرطة .. إلخ .. فيسَّر له الأستاذ الأمر بتخصيص أحد المحامين الشبان بالمكتب لمساعدته فيما يتصل بالجهات الرسمية ، على أن يتولى بنفسه البنود التي يستطيع القيام بها .. وقال إنهما قضيتان لا قضية واحدة ؛ فهناك قضية النقل التعسفي ، ثم قضية المرسم واللوحات .

أطرق شوقي محرجاً من سؤاله عن الأتعاب ، مهما كان قدر العشم ، وعندما نجح أخيراً في سؤاله على استحياء ، كان رد الأستاذ حركة من يده بمعنى (لا تشغل بالك) ، واكتفى بتسليمه صيغة التوكيل الرسمي الذي عليه إحضاره في أقرب وقت ممكن مع بقية الطلبات . حيّاه بحرارة وامتنان شديد وودعه وهو يضغط على يده :

- إياك أن تشعر بالإنكسار يا شوقي ، فهذا كل هدفهم ، لا تمكنهم منه ، «أنت قدها وقدود !» .

وفيما كان خارجاً من باب العمارة العتيقة حدث نفسه قائلاً : طالماً وُجد في الحياة مثل هذا القديس .. فلا انكسار !

أتخذ طريقه سيراً على الأقدام إلى ميدان التحرير ، ومنه إلى شارع القصر العيني حيث مقر مجلة روز اليوسف .. وبنفس الروح البسيطة التلقائية إلى جانب طبيعته المرحة ، استقبله الأستاذ صلاح حافظ رئيس التحرير وسط زحام مشاغله ومراجعته لبعض البروفات الحساسة لمقالات رأي مُعارِضة ورسوم كاريكاتيرية لاذعة النقد للحكومة .. إنه يعمل على ضوء معاهدة غير مكتوبة بينه وبينها، أو بالأحرى : بين اليسار والنظام لممارسة مهمة صحفية فوق مساحة محسوبة من الحرية لا يتجاوزها ، في مرحلة بناء المنابر السياسية تمهيداً لإنشاء الأحزاب بعد انتصار حرب ١٩٧٣ ، تسمح لليسار واليمين المعتدلين بالتعبير عن وجودهما ، بالنقد الهادئ بدون الاقتراب من مؤسسة الرئاسة والتنظيم الرسمي المعبر عن سياستها أيا

كان اسمه (الاتحاد الاشتراكي أو حزب مصر) ، وكان صلاح حافظ أستاذاً في ذلك كلاعب ماهر يمشي فوق حبل مشدود ، ويعطي الانطباع في الوقت نفسه بالنقد الساخن للأوضاع، وبوجود معارضة حرة في مواجهة النظام دون أن تؤدي إلى أبواب السجن!

بعد استماعه إلى موجز لما حدث في المسافرخانة ، طلب على الفور أحد المحررين الشبان تليفونياً ، وأخبره بأن شوقي سيمر عليه الآن للاتفاق على عمل موضوع صحفي . وقال له : إذهب إليه حالاً .. هو ولد لهلوبة اسمه محمد عثمان .. يا للا .. قد نستطيع نشره في العدد القادم .

خرج غير مصدق لما جرى .. « أبهذه البساطة وبهذه السرعة ؟! .. ما أروعك يا عم صلاح .. أما أنت يا قدري بيه فانتظر ما يسرك على صفحات روز اليوسف التي كنت تحلم بأمجادك منشورة على صفحاتها مذَّيلة بتوقيعي ، في سبيل ذلك ساومتَني على حق الحياة والرسم في مقابل استمرار سلطانك وجبروتك ، فلما خاب رجاؤك فيّ دمرتني دماراً ثلاثياً ، وظننت أنني لن تقوم لي قائمة بعد اليوم . ولعلك الآن تضحك وتقهقه ملء شوقيك وأنت تتخيلني مدفوناً في الجُب الذي حفرته لي .. لكن صبراً .. لم يأت بعد وقت الضحك .. فمن يضحك أخيراً يضحك كثيراً !»

(٣٣)

عند أول محل التقاه به تليفون متاح للجمهور، استخرج شوقي رقم سمير تادرس واستأذن صاحب المحل في إجراء مكالمة . كان متأكداً أنه في البيت ولم يذهب إلى مرسمه بعد أحداث الأمس . صدق تخمينه إذ رد عليه بنفسه فحيَّاه على عجل وقال :

- سمير .. أريدك في خدمة مهمة .
- كيف حالك الآن يا شوقي ؟ .. لم أجد رقم تليفونك حتى أطمئن عليك .. أأنت بخير ؟

- نعم بخير والحمد لله .. أنا أكلمك من الشارع الآن .. أحتاج منك خدمة عاجلة .
- أأمرني يا شوقي .. ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً لك .. إنك لا تعرف كم كنت أتعذب من أجلك طوال الأسبوع الماضي .. ماذا تريدني أن أفعل ؟
- أعلم أن لديك كاميرا .. أليس كذلك ؟
- نعم .. ولماذا ؟
- أريدك أن تصعد من مرسمك إلى مرسمي من الباب الصغير الموصل بيننا .
- لماذا ؟
- ستقوم بتصوير المرسم عدة صور تبين حالة التدمير فيه من زوايا مختلفة .. مع التركيز على اللوحات المحطمة والممزقة والكنبة المحشورة في باب الحمام.
- لماذا تريد هذه الصور ؟
- ستكون وثيقة في القضية التي رفعتها .. أرجوك يا سمير .. ليس هناك غيرك يستطيع دخول المرسم دون أن يشعروا .. فسوف يمنعون أي شخص من دخول المرسم من بابه الرئيسي.
- حاضر يا شوقي .. غداً سأحاول ذلك .. مع أنني قررت عدم الذهاب للقصر هذه الأيام .. بل قررت إخلاءه نهائياً .. لا أريد رؤية أحد من الأشكال الحقيرة هناك .. لكني سأذهب تلبية لرغبتك .

شكره بحرارة ، ثم أملاه رقم تليفونه حتى يبلغه بما تم فعله .

أكمل طريقه سيراً على الأقدام إلى ميدان التحرير . كان عازفاً عن الذهاب إلى أي مكان وقد بلغت الساعة الرابعة عصراً . لحق بالأتوبيس ٤٤ المتجه إلى الزيتون في الموقف العمومي قبل أن يتحرك . لدهشته وجد ركابه قليلين فاختار مكاناً بجوار النافذة . لا تزال القاهرة هادئة كامتداد لأجازة العيد . مع انطلاق الحافلة هبت نسمات الخريف المبكرة الباردة وداعبت وجهه المستند إلى حافة النافذة ، حتى شعر بالاسترخاء وبقدر من الرضا لما حققه اليوم ، فيما كان طيف فريدة يحوم حوله برقَّة

شديدة وكأنما يشاركه شعوره ويباركه ، وسرعان ما أغمض عينيه وراح في سِنة من النوم .

بخديها المتوردين كما في لحظاتها السعيدة ، وبابتسامتها المائلة قليلاً جهة اليمين وهي على وشك الاستغراق في الضحك ، وقد ضاقت عيناها وتكرمش أنفها من أسفل . تلك الابتسامة الحائرة بين الشقاوة والدعابة ، وكأنها مُقْدِمة على إلقاء مفاجأة أو خبر هام ، رآها تمد يدها إليه بجواز سفر أخضر ، فتحته وفرَّجته على صورتها وهي تقول : « شفت آخر صورة لي هناك ؟» .. قال لها : « إلى أين أنت ذاهبة بهذا الجواز ؟».. قالت : « جئت بواحد آخر لك ، فلا يسمح لنا بالدخول من غيره . » قال: « أيعني ذلك أنك حصلت على تأشيرة سفر ؟» قالت : « نعم .. وهذه هي .. ومختومة بختم السفارة » . قال : « كم مُدّتها ؟ ».. قالت : « مفتوحة بغير نهاية » .. قال : « لكني يجب أن أعود » .. قالت : « يمكنك العودة في لمح البصر» .. الزمن عندنا يختلف عنكم .. اللحظة هنا تساوي سنة عندكم .. لذلك أستطيع أن أفعل خلالها أشياء كثيرة جداً .. هل تصدق ؟.. لقد سافرت إلى الإسكندرية ورأيت أمي .. رحبت بي .. لكن أبي رفض مقابلتي . « لماذا ؟» .. « لا أعرف .. لكن أمي قالت لي أنه بعد فترة سيصفو ويكلمك .. لكنه لم يفعل » .. « أأنت مسافرة حالاً ؟».. « نعم .. لكنني سأعود لأطمئن على القضية » .. « طيب إبقي معي قليلاً » .. قالت : « لقد تأخرت .. باي ! »

واختفت من أمامه !

انتفض يبحث عنها فلم يجد لها أثراً . نظر حوله بدهشة ، لا يعرف ما الذي أتى به إلى هذه الحافلة وإلى أين هو ذاهب ، واستغرق عدة لحظات حتى استعاد وعيه بما حوله وبالاتجاه الذاهب إليه ودقات قلبه تتسارع بعنف ، وكان لا يزال في بداية المسافة من الطريق إلى منزله .

(٣٤)

حين غادر محل البقالة حاملاً ما اشتراه من لوازمه المعيشية واتجه إلى بيته ، لاحظ شخصاً بدا له أنه يتفحصه بتمعن ، وعندما ألتقت أنظارهما أشاح بوجهه إلى جهة أخرى . تساءل : هل « يُشبَّه » عليه أم يراقبه ؟ .. لكن الرجل لم يعاود النظر نحوه ، بل مضى ليلحق بالحافلة التي توقفت في محطة الأتوبيس بالقرب منهما . لفت مرآه انتباهه إلى احتمال أن يكون مراقباً ، وهو أمر اعتاد عليه في فترات سابقة ، خاصة بعد أن يتم الإفراج عنه ، لتطمئن أجهزة الأمن إلى أنه لم يعاود نشاطه « المعادي للنظام » .. سخر من غبائهم وهواجسهم ، لأنه لم تعد له أي علاقة بأي تنظيم سري ، ليس خوفاً من المباحث وتقاريرها أو كفراً بمبادئ تلك التنظيمات الثورية ، بقدر ما هو إحساس بعدم جدواها كتكوينات سياسية صغيرة كل منها يضم بضعة أشخاص ، وهي متكتمَّة على أسرارها وأفكارها النظرية التي لا يفهمها غير أعضائها ، وهم يعيشون حالة من الرعب المزمن من الملاحقة الأمنية، وفي الحقيقة لم يأتوا جرماً يستحقون السجن من أجله ، ومهما كان سجناء هذه التكوينات الثورية فرساناً نبلاء يهبون حياتهم لرسالة وطنية سامية ، فإنهم في الحقيقة أضعف من أن يكونوا طاقات مولدة لأي ثورة . وإن غباء السلطة وحده هو ما يصور لها أنهم خطر داهم على أمن الدولة ، حين تكرس طاقاتها لملاحقتهم والزج بهم في السجون ، بينما هم لا حول لهم ولا قوة ، طالما اقتصروا على التنظير بغير فعل على الأرض واشتباك مع الواقع ، رغم أهميته لأي ثائر ، فهو مورد لتغذية السجون ليس إلا.

فيما كان يُعد غداءه في المطبخ ، ألحّ عليه خاطر بضرورة العمل فوراً لإيجاد مكان يمارس فيه الرسم ولو بغرفة صغيرة بديلاً عن مرسم المسافرخانة . كان واثقاً من استحالة ذلك في هذه الظروف ؛ فمن أين يسدد إيجاره حتى لو وجده ؟ .. كانت قد تولدت عنده مشاريع لبعض اللوحات وأخذت تلح عليه لتنفيذها ولو في أحجام صغيرة ، ولديه في الشقة بعض الخامات البسيطة يمكنه استخدامها ولو كاسكتشات على الورق أو بأحبار ملونة وأصباغ مائية . وأثناء حمله للأطباق مرّ على باب

الحجرة المغلقة ، فأصبته غُصة وهو يرى فيها الحل المثالي لمشكلته الراهنة . وضع الطعام على المنضدة الخفيضة في الصالة وجلس لتناول طعامه ، وبصره مسدد إلى الباب المغلق ، قال في نفسه أن هذا ظلم فادح بكل المقاييس لا ينبغي السكوت عليه ، فليرسل خطاباً إلى نادية يطالبها بتحديد موقف نهائي من إخلائها على ضوء التطورات الأخيرة بفقد مرسمه . توقف عن المضغ محتجاً .. ما هذا التهافت ؟ .. أي موقف منتظر منها اتخاذه ؟ .. حتى لو وافقت على إخلائها فلن يكون ذلك قبل إجازتها في الصيف ونحن الآن في أواخر أكتوبر . معنى هذا أن ينتظر ثمانية أشهر على الأقل .. « لا ! .. كل ما عليك هو أن تحيطها بأنك مضطر إلى فتح الباب ، وتعدها بالمحافظة على كل أشيائها بعد تخزينها في جزء من الحجرة وتغليفها جيداً » .. تراجع عن الفكرة سريعاً ، وحدث نفسه ساخراً : « في جزء من الحجرة ؟! .. لقد كدَّسَتْ فيها كل أثاث حجرة النوم بعد أن أصرت على أن تكون من نصيبها ، وما بقي من فراغات كدَّست فيها عدة صناديق ضخمة تضم كتبها ولوازمها الشخصية .. فأين تجد مكاناً للرسم.. بل حتى للجلوس لو نفذت فكرتك ؟ ».

في الوقت ذاته كانت فكرة اللوحة تتبلور في خياله وتطالب بحقها في الوجود. أسرع إلى مكتبه فتناول كراسة الاسكتشات وأخذ يخطط تلقائياً ما تداعى إلى ذهنه ، فرسم شخصاً عارياً أمام سور ضخم يتألف من عدة شرائح أفقية بعرض اللوحة ، يستند عليه بذراع ويرتفع ذراعه الثاني وهو يكوِّر قبضته في الفراغ ، ووجهه لا تتضح فيه إلا عينان واسعتان مليئتان بالتصميم على تخطي السور ، وفي الجزء الأعلى أضاف شبحاً لرأس حصان يمتد بعرض السماء وبؤبؤ عينه المعتمة يلمع كالجوهرة السوداء .. تساءل بدهشة : هل نبتت الفكرة في خياله الآن أم كانت تعيش فيه منذ زمن وهو لا يدري ؟ .. ثم تذكر أنه لا جديد في كل عنصر من عناصرها منفرداً ، ففي كثير من لوحاته تتردد مثل هذه العناصر متفرقة ، أما هذه فتجمع كل مفردات القهر والتحدي والعجز والحلم ، لتصبح طاقة تعبيرية هائلة فيما يتوقع .

ما أن انتهى من طعامه ومن احتساء كوب الشاي حتى أسرع للبحث عن صندوق الألوان تحت كنبة الصالون وقد دبت فيه طاقة فجائية أزاحت ما كان يشعر به من إجهاد بعد سير طويل منذ الصباح بشوارع القاهرة .

(٣٥)

في اليوم الأول لحضور محمود اللبان إلى مرسمه بعد الأحداث ، وقبل أن يشرع في العمل لتشكيل قطعة نحت جديدة ، آملاً في أن تخرجه من حالة الاكتئاب التي لازمته منذ ذلك اليوم وتطارده حتى في أحلامه ، جاءه عم يحيى الساعي العجوز وصافحه بحرارة وهنأه بالعيد . دعاه للجلوس وشرب الشاي معه كعادتهما ، فهما الأقرب لبعضهما البعض بلا حواجز أو تكلف .. إذ تجمعهما منابع شعبية متقاربة .. فاللبان من حواري الغورية ، ويحيى من حواري إمبابة ، ويجد في تماثيل عم محمود صوراً يعرفها منذ طفولته ويشعر بأنها تشبهه على نحو ما ، لذا يأنس بالجلوس معه في الأوقات التي يفرغ فيها من أعمال النظافة بالقصر ، خاصة وأن مرسم عم محمود بالدور الأرضي ولا يغلق بابه أبداً ، ويجلس في مدخل الحجرة دائماً حيث مصدر الضوء والهواء وكأنه صاحب دكان في الغورية، فيراه الزائر اول من يرى من فناني القصر ، وهو ما يثير استياء بعضهم بجلبابه البلدي الذي لا يليق كواجهة للفنانين ، وإن أظهروا له عكس هذا الاستياء ، وهم يشيدون بتماثيله كطرائف فلكلورية لأحد الهواة .

أعتذر يحيى عن تلبية دعوة اللبان لتناول الشاي ثم قال :

- المدير عاوزك في مرسمه فوق .

رد مندهشاً :

- المدير مين ؟ .. هم جابوا مدير جديد بدل سي شوقي ؟
- أنا أَصْلي ما عرفتش اللي حصل لأني كنت غايب يومها .. عرفت لما جيت ومن ساعتها قلبي محسور .. المدير دلوقت هو الأستاذ مصطفى مسعود ..

نحات زيك .. جابوه بدل الأستاذ شوقي .. منهم لله ! .. كان راجل أمير وإنسان .

- طيب وعاوزني ليه المدير الجديد ؟
- ما اعرفش والله .. دلوقت حتعرف . خير إن شاء الله .

تلكأ اللبان وهو غير متحمس لهذا اللقاء ، رأى في التعامل معه خيانة لصديقه شوقي الذي كان له الفضل في تخصيص هذه الحجرة له ، وهو الآن غير راغب في البقاء فيها.

- معلهش ياعم محمود .. تعال على نفسك واطلع له .. أنا عارف معزَّة الأستاذ شوقي عندك ، وعارف اللي حصل لك عشانه يوم العركة .. اطلع له يمكن عاوز يطمنك على وضعك هنا .. ده راجل طيب .

تحامل اللبان على نفسه واتجه إلى مرسم الأستاذ مصطفى مسعود . استقبله مرحباً:

- إزيك ياعم محمود .. أقعد .. تشرب شاي ؟

هز رأسه معتذراً ، وقال وهو يمسح المرسم بعينيه متسائلاً :

- خير ؟ .. عم يحيى بلغني إنك عاوزني .

أطرق مصطفى مسعود ، ومرت لحظات بدا خلالها محرجاً ومترددا كيف يبدأ .. أخيراً قدَّم لمحمود ورقة تبدو كخطاب حكومي مختوم بختم النسر قائلاً:

- الحقيقية يا عم محمود أنا ماليش دخل بالموضوع من أوله لآخره . الهيئة كلفتني أسلمك القرار ده وما على الرسول إلا البلاغ .. خد اقراه ..
- لا مواخذه يا بيه ما بعرفش اقرا .. قل لي أنت هو فيه إيه ؟
- البند الأول فيه هو تعييني مدير للقصر بدل الأستاذ شوقي .. والحقيقة أنا فوجئت به .. وما كنتش أبدا اتمنى أني آجي مكانه .
- مش مشكلة يا بيه .. ألف مبروك .. ومن ناحيتي أنا في شغلي وبس .. تأذن لي أنزل ؟
- لأ .. ما هو .. فيه بند تاني يخصك..

- إيه هو ؟

قرأ مصطفى بصوت مرتفع :

- يُخلَى مرسم السيد محمود اللبان بالدور الأرضي ويسلم إلى الفنان فؤاد عرابي كورشة للطباعة اليدوية.

لم يبدُ أثر المفاجأة على محمود اللبان . قام واقفاً وهو يقول :

- أحسن برضه .. وأنا كنت حاعمل كده من نفسي على كل حال ، ما عادش لي قعده هنا بعد اللي عملتوه في سي شوقي وفيَّ كمان .. إطمن يا باشا .. من النهاردة حابدأ أشيل حاجتي .. استحمليني يومين على ما أجهز مطرح أنقل فيه الشغل .. بعد إذنك .

وخرج مندفعاً إلى الممر ، واجهه الجدار المصلوب بعروق الخشب ، ونزل إلى مرسمه فأغلق بابه بالمفتاح واتجه إلى خارج القصر بخطوات سريعة وهو يغالب غضبه . لم يلتفت إلى نداء يحيى له ، وعند أول الحارة قابل الفنان سمير تادرس وهو يعلق كاميراً على كتفه . وأخبره وهو في عجلة من أمره بما حدث . ضحك سمير وقال متهكماً :

- ده كان متوقع يا عم محمود .. ودلوقت الدور عليَّ .. عموماً أنا مش حاستنىَّ يطلع لي قرار زيك .. أنا اللي ماشي .. النهادرة جيت بس لسبب ضروري وبعد كده حاخْلي المرسم .. سلام .

ومضى كلٌ في طريقه ...

(٣٦)

تمضي الأيام سريعاً ، وتتراكم الاسكتشات التي يرسمها شوقي في شقته وقد تناثرت على المكتب والكنبة وحتى على الأرض في حجرة الصالون ، وأغلبها يدور حول نفس « التيمة » ؛ الأسوار والوجوه المختزلة في عيون شاخصة ، والخيول الجامحة والرجال العراة في مواجهات وحشية مع مردة وعمالقة ووحوش أسطورية ،

وطيور جارحة تنقض على رأس شخص عاري الصدر تحاول أن تنهشه .. ووجوه أنثوية تتكرر في عدة اسكتشات بشعر محلول تطفو خصلاته الطويلة على الماء وعيونها تحملق قبل الغرق ذاهلة أو مستغيثة . نحو طائر ضخم يخيم على الفراغ فوقها بجناحين هائلين، وفي تكوين آخر هناك طفل مكمم الفم مقيد الذراعين بحبال غليظة يجثو على ركبتيه ومن حوله يلتف حشد من المتفرجين ينتظرون كيف سيتمكن من فك وثاقه بمفرده ، وأمامه طبق به بعض العملات المعدنية يتلقى فيه قروشهم مقابل استمتاعهم ، وفي تكوين آخر طفل يتشقلب في الهواء حتى يستقر واقفاً على يديه ورأسه إلى أسفل في وضع مقلوب ليلتقط بفمه سكيناً مُلقَى على الحجر الذي يرتكز فوقه ، ومن حوله يلتف نفس الحشد من المتفرجين كأشباح غائمة الملامح متماوجه الحركة في انتظار رؤيته وهو يلتقط السكين بفمه .

استرخى على الكنبة مغمض العينين ؛ بين الشعور بالإجهاد والشعور بالارتياح والاستمتاع .. حاول أن يتذكر اسم صاحب الكلمة التي قرأها يوماً لأحد الفنانين : « مع كل لوحة جديدة يُكتب لي تاريخ ميلاد جديد » .. فكم عدد أعياد ميلادي الآن .. وكم عدد أيام الميلاد للوحاتي التي حُطِّمت في المسافرخانة ؟! .. لا بأس .. ألا يكتب الآن لنفسه بهذه اللوحات تاريخاً جديداً ؟ .. لا تبالغ يا رجل .. فلم تصبح هذه لوحات بعد .. إنما هي مجرد مشروعات أولية للوحات .. حسناً .. متى تصبح لوحات مكتملة ؟ .. هذا هو السؤال الذي يستعصى على الإجابة ، إذ يلزم للإجابة عليه مكان للرسم ، وشاسيهات و« ثوب » من قماش الدمُّور أو التيل ، ومجموعة من أنابيب الألوان الزيتية وفرش الرسم ، ومسند للوحات . وقبل كل ذلك مئات الجنيهات لشراء تلك المستلزمات ، فضلاً عما يحتاجه المرسم من قيمة الإيجار.

تذكر فجأة أن اليوم موعد صدور مجلة روز اليوسف . قفز من مكانه وقد دبت فيه الحيوية . ارتدى ملابسه وخرج على عجل ، وهو يدعو الله بحرارة ألا يكون كشك الجرائد القريب قد أقفل ، حيث بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وقبل أن يسأل عم حنفي صاحب الكشك جذب نظره غلاف المجلة فوق مسند المجلات بشكله

المميز . اشترى نسخة ووقف يتصفحها بدءاً من صفحاتها الأخيرة توقعاً لوجود الموضوع في قسم الفنون ، فلم يجد شيئاً يخص موضوعه . أصيب بإحباط شديد ، وأوشك أن يعيد المجلة توفيراً لثمنها فهو أحوج إليه في هذه الظروف ، ولكنه فكر – من باب الفضول – أن يعيد تصفُّحها من بدايتها ، وما أن قلب الغلاف والصفحة الأولى حتى أخذته المفاجأة وكاد يصرخ من الفرح ... كان المقال الافتتاحي لرئيس التحرير بعنوان : مباحث الثقافة تُحطِم مرسم الفنان ! .. ومن تحته عنوان فرعي : قَدر الفنان حين يقول لا ! .. والتوقيع : صلاح حافظ ... جاش صدره بانفعال عنيف دفع الدموع إلى عينيه ، وهو يرى صورته في رسم كاريكاتيري بريشه الفنان زهدي وهو يقف ممسكاً بفرشاة مكسورة تنزف دماً بدلاً من الألوان .. يا لها من قنبلة!.. ما كان يتوقع أبداً ، ولو في الأحلام ، أن يجد نفسه في هذا المكان، كان قُصارى ما يتمناه أن يجد مقالاً باسم المحرر الشاب محمد عتمان .. فكيف حدث هذا ؟ .. أيكون الأستاذ صلاح حافظ قد فضل أن يكتب الموضوع بنفسه ؟.. أراد أن يُعرِّف بائع الجرايد والزبون الواقف أمامه ، بل أن ينادي كل المارة في الشارع بالموضوع ، وأن يريهم ما كتبته المجلة عنه ، لكنه تراجع خجلاً ، وإن كان عم حنفي قد أحس بأن في الأمر شيئاً حين طلب شوقي شراء ثلاث نسخ فسأله إذا كانت تضم شيئاً مهماً إلى هذه الدرجة ، فأسرع بفتح الصفحة التي تحمل مقال رئيس التحرير وقال في زهو :

– شوف .. دا مكتوب عني .. وَرّيه لكل الزبائن يا عم حنفي !

تهلل وجه الرجل الطيب قائلاً :

– ألف مبروك .. حاضر .. حاخذه معايا واقراه في البيت .. تصدق بالله ؟ .. أنا كنت حاقفل الكشك من شوية .. لولا جات حاجة أخرتني .

انطلق يهرول غير قادر على السيطرة على نفسه وهو ينهب الطريق نحو البيت كي يجلس ويقرأ المقال على مهل . وتذكر أنه كان عليه أن يشتري بعض الخضروات لزوم الغذاء لكنه نسى ذلك في فورة انفعاله . لم يُلق إلى ذلك بالاً وجلس يقرأ في نهم، حتى انتهى منه في دقائق معدودة .. ولعل أخطر ما جاء في المقال هو ربطه

المباشر بين دور رئيس الهيئة في تحطيم المرسم واللوحات ، وبين دور المباحث المعادي للمثقفين تاريخياً ، وتأكيده على أن الرجل كرئيس لجهة مسئولة عن الفنانين والأدباء مهما كانت دوافعه .. يفترض أن يكون المدافع عن حقوقهم وأمنهم والحامي لإبداعهم ، ولو من باب مراعاة الشكل الوظيفي لمنصبه ؛ فكيف واتته الجرأة على هذا الفعل الهمجي إلا إذا كان لديه ضوء أخضر من المباحث ، غير أن الجديد الذي استحدثه في هذه المعركة الأزلية بين رجال المباحث وبين المثقفين ، هو قيام المسئول باستئجار البلطجية للقيام نيابة عنهم بالأعمال القذرة ، وأشار صلاح حافظ إلى نقطة فاتت على شوقي نفسه وهي : حتى وإن بدا الانتقام موجها إلى شخص الفنان فهو أيضاً رسالة موجهة إلى روز اليوسف ، رداً على الحملة الصحفية التي كشفت خلالها عن أوجه الفشل والفساد والانحراف في سياسة هيئة الفنون ، كما أن المستهدف من الاعتداء على المرسم يعني أن يكون شوقي نعمان بمثابة رأس الذئب الطائر أمام الفنانين والمثقفين ، حتى يكون عبرة لهم لو فكروا في مواقع أخرى بمثل ما فكر فيه .. وفي نهاية المقال أطلق تحذيراً مرعباً بقوله : « انتبهوا أيها المثقفون ! فهناك سلاح جديد فتاك اكتشفته الحكومة سيوفر لها تكاليف إيوائكم في السجون إسمه البلطجية، ولمن يريد المزيد من التفاصيل فليقرأ مقال محمد عتمان داخل العدد عن قضية مرسم الفنان شوقي نعمان » .

حتى هذه اللحظة لم يكن قد انتبه إلى وجود مقال آخر داخل العدد عن قضيته . بحث عنه في لهفة حتى وجده . كان يضم أغلب التفاصيل التي حكاها للصحفي الشاب محمد عتمان يوم التقاه بالمجلة ، لكنه رواها بأسلوب درامي مؤثر ، مركزاً على نقطة تصفية الحساب مع الحملة الصحفية التي كشفت فيها روز اليوسف عن المخالفات وأوجه الفساد في قطاعات هيئة الفنون ، مشيراً إلى المساومة على ما يكتبه هذا المسئول دفاعاً عن نفسه ، فيضرب عصفورين بحجر واحد : الأول هو تبييض صفحته من اتهامات الصحيفة . والثاني هو « حرق » شوقي نعمان أمام من يرون فيه مناضلاً حراً معارضاً للنظام وها هو يؤجر قلمه لمن يدفع !

لـم يعـد شـوقي قـادراً علـى البقـاء فـي الشـقة وحـده مـن فـرط الإثـارة وتـأجج المشـاعر، وأحـس بضـرورة أن يشـاركه أحـد هـذه المشـاعر ، بـل بضـرورة أن يقـوم بتوزيـع أعداد المجلـة علـى كل من يعرفه من الفنـانين والمثقفين ، فقرر الذهاب حـالاً إلـى أتيليـه القـاهرة ، إلا أنـه وجد أن الوقت لايزال مبكراً علـى أن يجد أحداً بـه قبل السادسـة مسـاءً ، فرأى أن يستكمل الأوراق التـي طلبهـا منـه الأستاذ نبيل الهلالـي ، وكـان قد أعد جانبـاً منهـا فـي الأيـام الأخيرة . تذكر الصـور الفوتوغرافيـة التـي طلبهـا من سمير تادرس ، فقام على الفور وطلبه تليفونياً .

رد عليه قائلاً أنه كان على وشك أن يطلبه . قال له :

- المهم ما أخبار الصور ؟
- لـم أجـد شـيئاً أصـوره ، وجـدتهم قـد أفرغـوا المكـان مـن كـل اللوحـات والأوراق والأثـاث ، وعلمـت أن هنـاك لجنـة شكلتها الهيئـة برئاسـة زميلتنـا الفنانـة أحـلام فـوزي قامـت بجـرد المرسـم واسـتلام اعمالـك لتخزينهـا بوكالـة الغـوري لحـين تسليمها إليك عندما تطلبها ، وقالوا أنها استلمتها بصفة أمانة .

قال بدهشة : أحلام ؟ .. تتسلم أشلائي ؟!

- أليست صديقتك ؟ .. كلمها .

قال ساخراً :

- لقد وفروا علَّي البحث عن مقبرة أدفنها فيها !

أخبره سمير بسحب المرسم من محمود اللبان ، وبقراره هو أيضـاً بإخلاء مرسمه ، ولـم يقتنـع بنصـيحة شـوقي لـه بعدم إفسـاح المجـال لهـم للتخلص مـن كـل أصـدقائه والمؤيدين له ، وأشار إلى ما نشر اليوم بروز اليوسف ، ولن يجرؤوا بعده علـى تكرار مـا حـدث معـي أو مـع اللبـان ، وربمـا انتهـى الأمـر بعودتـه شخصـياً إلـى القصـر ، فضحك سمير مشفقاً عليه من فرط تفاؤله قائلاً :

- عمـرك شـفت نهـر يعـود تيـاره إلـى الـوراء ؟ .. هـذا تيـار جـارف عفـن تغذيـه جهات أقوى بكثير من مقالات روز اليوسف بل من قدري عثمان ذاته .. في

بلد تحكمها عصابات وليس قانوناً ، ولو كنت مكانك لنفضت يدي من الموضوع كله وقنعت من الغنيمة بالإياب كما يقال !

- على الأقل حاول أن تقرأ ما نشر بروز اليوسف .
- سوف أفعل .. وإن لم أكن بحاجة لقراءة شيء .. المسألة واضحة كالشمس.
- أتعني أنه لا جدوى من أي مقاومة بما في ذلك القضية أمام المحكمة ؟
- لا طبعاً .. أكمل فقط لوقف مزيد من النزيف .. لكن لا تعلق آمالك على الانتصار عليهم .. ولو لديك مشكلة في إيجاد مكان لأشيائك فشقتي تحت أمرك .. أنت تعرف أنني أعيش وحدي مع والدي المُسِن ، وأستطيع توفير مكان لك لحين عودة نادية وإخلاء الحجرة المغلقة بشقتك .
- أشكرك يا سمير .. يا أجدع صديق .. لكنني لا أستطيع الأخذ بنصيحتك حول الاستسلام .. سأستمر مهما كانت النتائج .
- على راحتك يا صاحبي .. واتمنى لك التوفيق .. وأكرر أنني تحت أمرك لو احتجتني في أي شيء .. وقلبي معك .. مع السلامة .

أطفأ سمير فرحته بحسن نية ! .. إنه لم يستوعب معنى انتصاره الصغير بهذا المقال، رغم ثقته في صدقه وإخلاصه .. لكنه الآن فقد الحماس للذهاب إلى الأتيليه أو إلى أي مكان ، فضل أن يقضي الليلة في استكمال طلبات الأستاذ الهلالي .. قال لنفسه : « ما تستطيع إنجازه في البيت عليك تنجزه الآن ، وفي الصباح تذهب إلى الشهر العقاري بجوار محكمة مصر الجديدة لعمل التوكيل الرسمي لمكتب المحاماة ، ثم تذهب إلى المكتب وتسلمه للأستاذ ، وتطلب منه تعريفك بالمحامي الذي سيساعدك على إنجاز البنود الأخرى .. والآن فلنبدأ بتسجيل أسماء وأعداد ومواصفات كل اللوحات بالمرسم بمراحلها المختلفة .. كيف أتذكرها جميعاً ؟ .. هم حقاً أولادي وأعرف متى وكيف أنجزت كل واحدة بكل تفاصيلها ، وقد أعفاني إخفاء أشلائها عند أحلام من رؤية صورها ممزقة ، وذلك كان كفيلاً بتمزيقي ، ولكن ما يؤلمني أن أحلام مثل قدري تضحك الآن شامتة وقد تحققت نبوءتها لي بأسرع مما كانت تتوقع، ومع ذلك فبوسعها أن تعلن أن لها الفضل عليّ في لملمة أشلائي

والحفاظ عليها .. فما أشد كرمها في الإسراع بدفن الميت ! .. ألا يقولون أن إكرام الميت ؟ »

(٣٧)

بادره الأستاذ الهلالي ، مساء اليوم التالي ، بحماس أكبر من المعتاد فور دخوله المكتب :

- مقال صلاح حافظ والتحقيق الصحفي الآخر رائعان .. سنستعين بهما في مستندات القضية .. ما الأخبار عندنا ؟
- أحضرت التوكيل والكشوف باللوحات والممتلكات بالمرسم .

سلمها إليه وراجعاها معاً بدقة ، وقال الأستاذ :

- عظيم .. نحتاج توثيق هذه البيانات .
- كيف ؟
- بإحضار قوائم بلوحاتك في المعارض التي أقمتها من واقع الكتالوجات المصاحبة لها مثلاً ، أو كتالوجات المعارض العامة التي تتضمن اسمك كمشارك فيها ، أو شهادات تقدير أو جوائز حصلت عليها . أو خطابات دعوة إليك من مهرجانات دولية مما تشير إليه في البيانات ، مثل بينالي الاسكندرية وبينالي الشباب الدولي ببرلين ومعرضك في لندن وغيرها .. ثم أين صور المرسم بعد الاعتداء عليه ؟
- للأسف قاموا بإزالة آثار العدوان وحفظوا كل متعلقاتي كأمانة لدى إحدى الزميلات بعد جردها عن طريق لجنة برئاستها .
- عظيم .. هذا سيفيدنا في طلب كشوف رسمية معتمدة بهذه الأعمال ، وسوف تكون أقوى من الصور التي لم تتمكن من الحصول عليها ، ويمكننا أيضاً مطالبتهم بتصوير اللوحات حتى تكشف ما بها من أضرار.

- وبالنسبة لقرار النقل وقرار تخصيص المرسم ومحضر الشرطة ؟ .. لقد وعدتني بأحد المحامين لمساعدتي في الحصول عليها .
- حالاً سأدعو أحد الشباب عندنا للقيام بذلك .. لكن جاءتني فكرة على خلفية مقالات روز اليوسف .. وهي أن نُعِد صيغة بيان باسم الفنانين والأدباء والمثقفين بإدانة ما حدث ، متخذين من مقال صلاح حافظ نقطة انطلاق لحملة توقيعات للوقوف بجانبك .. أترك لي مهمة الصياغة ، وعليك بعد ذلك أن تتولى حملة جمع التوقيعات .. نريد أكبر عدد منها ومن شخصيات شهيرة، وأظن أن لديك علاقات جيدة تسمح لك بذلك .. ومؤكد أن روز اليوسف مهدت لنا الطريق ، فسوف تكون المقالات سبباً في تعاطف الكثيرين، خاصة وأنها مجلة المثقفين الأولى حالياً .

استدعى بالتليفون الأستاذ عبدالناصر إمام المحامي بمكتبه ، فحضر سريعاً . شرح له الأستاذ ما يفعله برفقة شوقي بين هيئة الفنون وقسم الجمالية .. وختم توجيهاته قائلاً :

- هيا توكلا على الله غداً لإنجاز هذه المهام .

كان ذلك إعلاناً مهذباً – على طريقة الأستاذ – بإنهاء المقابلة ، فودعه شاكراً وخرج مع عبدالناصر إلى مكتبه لاستكمال التفاصيل بعد تسليمه نسخة من المجلة حتى يلم بأبعاد الموضوع ، وحين انتهيا من كتابة الطلبات إلى الجهات المختصة لتسليم المستندات ، اتفقا على اللقاء في العاشرة صباح الغد أمام باب قسم شرطة الجمالية ، ومن بعده إلى هيئة الفنون ، وصافحه منصرفاً .

كان قريباً من مقر أتيليه القاهرة ، فاتخذ طريقه إليه ، يحدوه الأمل في أن يلتقي بعدد من أصدقائه ومعارفه لمحاولة الترتيب لإصدار البيان المتفق عليه . لقي هناك استقبالاً حافلاً يمتزج بالانزعاج عليه ، وأصبح موضوع الاعتداء عليه وعلى لوحاته هو حديث الساعة لمن قرأ مقال صلاح حافظ ، حتى أن البعض راح يهنئه ويغبطه على ما حققه من شهرة مدوية ، بدلاً من أن يواسيه في محنته . جلس وسط دائرة

من المثقفين ، منهم الشعراء والرسامون والكتاب يحكي لهم تفاصيل الأحداث وهم منصتون في تأثُر ، وأيدوا بشدة فكرة البيان ، ووعدهم بإحضاره في أقرب فرصة.

وعند اتجاه الحديث إلى موضوعات أخرى ، طاف بذهنه لقاؤه هنا قبل أسبوعين « بسارّة » – صديقة المرحومة فريدة – وغمره شعور بالذنب وكأنه ضبط نفسه متلبساً بخيانة ذكراها ونسيانها ، فانقبض صدره ، وضاعف من هذا الشعور تذكُّره بأنه لم يتصل « بسارة » للاطمئنان عليها ، فهي مكلومة أكثر منه ، لأن صداقتهما استمرت عبر معايشة يومية لعدة سنوات ، بين الدراسة والعمل والسكن، فكيف تستطيع احتمال الوحدة واستعادة الذكريات في غيابها ؟.. بالنسبة له فإن الأمر أهون كثيراً لوجود أحداث يومية كبرى تبتلعه بعكس حالتها تماماً .. غير أن الحقيقة أن فريدة لم تفارقه لحظة حتى في خضم كل همومه ومشاغله ، وكثيراً ما يكتشف أنه يحدثها وتحدثه ، ويسألها الرأي فيما يتعرض له ، ويتخيل ما كان يمكنها أن تنصحه به ، مثل ضرورة استئناف الرسم ومواصلة إجراءات القضية ، وكلما أنجز خطوة في كليهما كان يسألها المشورة وينتظر منها أن تبارك ما أنجزه .

أخذ ينسحب نفسياً من جو الجلسة ، حين دخلت في حلقات متداخلة من الهزل والجد ، ثم في جدالات معتادة وتلميحات غامضة إلى صراعات مكتومة بين المثقفين ، ترشح بأنواع من الغيرة أو الضغينة أو تناقض المصالح.

وشعر بالغربة بينهم ، فاستأذن منصرفاً إلى منزله ، حينها انتبهوا فجأة إلى أنه لا يزال جالساً معهم ، فراحوا يحيُّون صموده وشجاعته ، ويؤكدون أنهم في انتظار البيان للتوقيع عليه .

(٣٨)

في قسم الجمالية اكتشف – ومعه عبدالناصر المحامي– أن أمين الشرطة استكمل محضر المعاينة بعد أن انصرف من القصر خوفاً من تهديدات حسن السكري، ويبدو أنه اطمأن إلى تأييد المأمور وتعاطفه مع شوقي . وأرسل في

استدعائه من القصر وسجل عدم تواجده به ولم يستدل على عنوانه ، وساعد وجود عبدالناصر في تسهيل الحصول سريعاً على صورة المحضر . وفي طريقهما إلى مقر إدارة شئون العاملين بالهيئة في ساحة أكاديمية الفنون بالهرم حذّره المحامي من مغبة عدم تسلُّمه للعمل بإدارة التنظيم ليعاد توزيعه – كموظف مستجد – على أي جهة تحتاج إليه من إدارات الهيئة ، وإلا فسوف يعتبرونه منقطعاً عن العمل بعد أسبوعين من انقطاعه ، ويمكن في هذه الحالة اعتباره مستقيلاً فيصدر قرار بقبول استقالته .

سأله : والحل ؟

- الحل هو أن تتسلم العمل في إدارة التنظيم ، ويمكنك بعد ذلك التقدم بطلب للحصول على أجازة سنوية ، ولا أظن أنهم سيرفضون الموافقة عليها لرغبتهم في التخلص منك بأي طريقة .
- على جثتي ! .. ثم إنهم قد يرفضون إمعاناً في إذلالي . أترضى لي بأن أكون « احتياطياً تحت الطلب » ؟ .. لن أذهب وليكن ما يكون !

أثناء عبورهما مباني الأكاديمية في الطريق إلى إدارة شئون العاملين ، تذكر أن فريدة كانت تعمل في إحدى هذه المباني ، لا يعرف في أي منها ، فهي كثيرة التخصصات والفروع . توقع أن يراها خارجة من إحداها . انتابه الحزن وقد أطلت الذكريات ، وهي تتراءى أمامه بكل حضورها المعتاد ، وكاد أن يشكو إليها حاله بصوت مسموع : هل يرضيك أن أفعل ما يعرضه علىَّ المحامي ؟ .. وتمثلها تؤيد رفضه .

لم يستغرق حصولهما على قرار النقل خمس دقائق ، فيما أبلغوهما بأن قرار تخصيص المرسم قد يستغرق أسبوعاً على الأقل للبحث عنه في أضابير الوزارة ، وزعموا انهم لم يجدوه في ملف خدمته . همس شوقي لعبدالناصر بأنهم يماطلون كسباً للوقت حتى يعرضوا الأمر على رئيس الهيئة . وغالباً سيرفض تسليمه ما يثبت حقه في العودة إلى المسافرخانة بمقتضى هذا القرار . قال عبدالناصر :

- لا مشكلة .. دعنا نذهب إلى المكتب وسنجد حلاً . إن في يدنا الآن أهم مستند نشتغل عليه ، وهو محضر الشرطة والمعاينة ، وسنتقدم بعد ذلك بطلب إلى الهيئة للحصول على كشوف محضر الجرد لمحتويات المرسم ، لنرى إن كانت العهدة التي تم جردها سليمة أم تالفة ، ولن يستطيعوا الرفض، فإذا وجدنا تعارضا بين كشوفهم وبين محضر معاينة الشرطة سوف يتضح كذبهم لو ذكروا في الكشوف أن الأعمال سليمة .

حين عاد إلى المكتب بباب اللوق قدم إليه الأستاذ الهلالي مسودة بصيغة البيان الذي وعد بكتابته . قرأه على عجل . كان موجزاً وقوياً وهو يركز على العدوان الهمجي والانحراف بالسلطة والتخلف الحضاري وإهانة القيم الثقافية والفنية وكل المشتغلين بها من المبدعين الشرفاء ، ولاحظ أن البيان – رغم قوته– تجنب ذكر الدوافع السياسية وراء ما حدث ، وعندما سأل الأستاذ عن ذلك بعد أن أثنى على بلاغته .. رد قائلاً :

- نحن نتوجه بالبيان إلى كل الاتجاهات الفكرية للحصول على أكبر عدد من التوقيعات ، مما يقتضي تجنب الاختلافات السياسية ، فقد يراه بعضهم منحازاً إلى الشيوعيين مثلاً .. فلماذا نتبرع بتخويفهم ؟!

وبعد أن أرسل المسودة للنسخ على الآلة الكاتبة قال له :

- والآن يا بطل دقت ساعة العمل الأكبر .. لابد من التنسيق مع مجموعة ممن تثق بهم في عدة مواقع ثقافية وسياسية ، ليأخذ كل منهم نسخة من البيان ويتولى جمع التوقيعات عليها كلٌ في محيطه .. كليات الفنون .. الأتيليه .. كتَّاب المقالات بالصحف .. ولتبدأ بالأخيرة .. فنحن بحاجة لأسماء رموز كبيرة في الوسط الثقافي والإعلامي لتكون عنصر جذب للمترددين في التوقيع .. فسوف يطمئنهم ذلك للوقوف بجانب قضيتك باعتبارها قضية رأي عام وليست قضية شخصية .. عندك مثلاً كتاب الأهرام في الدور السادس الذي يسمونه مجمع العباقرة .. لو استطعت الحصول توقيعات بعضهم مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وصلاح طاهر وغيرهم .. ستكون

ضربة معلم .. ليس بالضرورة أن تذهب بنفسك .. الأفضل أن يتولى ذلك صحفيون وكتاب أهل ثقة ، ولتبق أنت في الظل وتقلل من ظهورك في المنتديات والاجتماعات العامة .

- كنت أتصور العكس .. حتى أجعل الحوار معهم مشجعاً على الاقتناع والتوقيع.
- يمكن لغيرك القيام بذلك .. لكن غيابك عن المشهد يزيد الإثارة ويضاعف من حضورك معنوياً .. هيا .. خذ هذه الورقة وابدأ بحصر أسماء من ترشحهم للمساعدة في هذه المهمة .

لمع في ذهنه اسم صديقه الناقد الأدبي فاروق عبدالقادر المسئول عن ملحق الأدب والفن بمجلة الطليعة التي تصدرها جريدة الأهرام ، وهو ينشر لشوقي مقالاته عن الفن التشكيلي بها بصفة منتظمة ، استشار الأستاذ الهلالي في الاعتماد عليه في الحصول على توقيعات مجمع العباقرة بالأهرام ، رحَّب بذلك في الحال لثقته في نزاهته، وقال إن له حظوة لدى الكثيرين من أعلام الدور السادس .. ولو بدأ بتوقيع لطفي الخولي رئيس تحرير الطليعة فستتوالى بعده توقيعات الكبار .

بدأ شوقي في كتابة الأسماء المقترحة : سامي خشبة في الجمهورية . جمال الغيطاني في الأخبار . محمود عبدالعاطي بكلية التربية الفنية . زكريا الزيني بكلية الفنون الجميلة .. واستأذن للانصراف ، وفي خاطره يدور معنى أن كلمة « القديس » التي يوصف بها الأستاذ لا توفيه كل حقه .. فكلمة المعلم لا تقل عنها أهمية ، فهو زعيم مُتَّقد الذكاء في ثياب إنسان شديد البساطة والزهد والاستغناء والتواضع .. والحياء أيضاً إذا تلقى كلمة مديح.

فور خروجه من مكتب المحاماة حاملاً النسخة الأولى المنسوخة بالآلة الكاتبة من البيان، توجه إلى أقرب مكان به آلة لتصوير المستندات ، فطبع منها عشرين نسخة ، ولولا حيطته لئلَّا يثير الشك لدى عامل الطباعة في أن يعتبرها منشوراً سياسياً لطبع منه مائة نسخة ، وأسرع إلى مقر « الطليعة » بشارع الجلاء .

استقبله فاروق عبدالقادر مهللاً بدعاباته المعتادة :

- أهلا بالمشاغب الكبير ! .. ألم يقبضوا عليك بعد ؟ .. لقد عرَّيتهم يا رجل من ملابسهم الداخلية أنت وصلاح حافظ .. إجلس يا مشاغب في زمن الانفتاح والانبطاح !

قدم إليه شوقي نسخة من البيان ، وبعد أن قرأه وأثنى عليه وعلى الأستاذ الهلالي الذي صاغه كما أخبره ، دخل في الموضوع مباشرة :

- نصيحة الأستاذ نبيل الهلالي هي أن نبدأ بتوقيع الأستاذ لطفي الخولي .
- بس كده ؟

ونهض في الحال إلى مكتب رئيس التحرير ، وغاب نحو عشر دقائق مرت عليه كأنها ساعات ، تضاعف قلقه خشية أن يرفض التوقيع .. أخيراً عاد فاروق مشرق الوجه وهو يشير إلى ظهر ورقة البيان المقسمة إلى خانات للاسم والمهنة والتوقيع ، قائلاً وهو يضحك :

- مبسوط يا عم ؟ .. الرجل وقَّع متحمساً وكأنه كان في انتظارك.
- تصورت العكس لطول بقائك عنده .
- لا .. كنا نتحدث عن نبيل الهلالي وخلافه السياسي معه حول علاقة الأستاذ لطفي بالنظام .. أنت تعرف الخلافات التاريخية بين فصائل الشيوعيين .. هذا بالرغم من حبه الشديد واحترامه للأستاذ نبيل .. لقد كانا رفاق المعتقل لسنوات .. قاتل الله السياسة ..

وسلمه البيان قائلاً : خذ بيانك يا عم واتكل على الله .

- لا لن آخذه .. بل سيبقى معك يا جميل !
- ماذا أفعل به ؟
- عملاً بنصيحة الأستاذ نبيل ستقوم « سيادتك » بالحصول على توقيعات الكتَّاب الكبار بالدور السادس .
- يا نهار زي بعضه ! .. أيريد أن يرفدني من الشغل ؟ .. ألا يعرف أن رئيس مجلس إدارة الأهرام هو ياسر الجبالي ؟!

- وماذا في ذلك ؟
- ستجعلني أُجَنّ والله ! .. أنسيت من الذي أبلغ عنكم النيابة في قضية جمعية كتاب الغد ؟
- فهمت .. ولكنه ليس وصياً على توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس .. أليس كذلك ؟

ضحك ساخراً من سذاجة شوقي وقال :

- ستظل هكذا طول عمرك في براءة الأطفال .. أم أقول في سذاجتهم ؟
- يا سيدي أنت لن تخسر شيئاً .. حاول فقط .

أشعل فاروق سيجارة جديدة ، وتأمل في لهب عود الثقاب مفكراً ، فعاجله شوقي بقوله :

- طيب ما قولك في أنك ستكون صاحب التوقيع التالي للطفي الخولي ؟.. إنك ستكون تحت حمايته ، ولن يجرؤ الجبالي أو غيره على أن يمسَّكما أو يمس أحداً من الموقعين بعدكما .

سرح فاروق متأملاً غلالة الدخان الأزرق ، ثم التفت نحوه قائلاً:

- أتعرف ؟ .. الأستاذ نبيل كشف عن أنه جِنّ مصوَّر ! .. عرف كيف ينصب الفخ لغريمه !
- تقصد الأستاذ الخولي ؟ .. لكنه جِنّ من النوع الطيب .. ألا يقال أن هناك في مملكة الجن طيبون وأشرار ؟
- ماشي يا شوقي يا نعمان ...

وتناول قلمه وسجل اسمه وتوقيعه تحت اسم لطفي الخولي ..

- مبسوط يا سيدي ؟ .. وسأطلب لك قهوة فوق البيعة ! .. ماذا تريد أيضاً ؟

انتفض شوقي مُهلّلِاً :

- حبيبي .. ها هو فاروق الذي أعرفه .. سأحضر إليك بعد يومين لأستلم البيان وعليه توقيعات مجمَّع العباقرة .. أيكفيك يومان ؟

- سأتصل بك تليفونياً وقتما أنتهي ، فالأمر بحاجة إلى أن أصعد إليهم أكثر من مرة ، لانهم لا يجلسون جاهزين بأقلامهم في انتظاري للتوقيع على بيان حضرتك .

وما أن انتهى من فنجان قهوته حتى نهض للانصراف ، فقال فاروق مودعاً بحرارة :

- قلبي معك .. ولن أطلب منك مقالاً لهذا الشهر تقديراً لظروفك .
- سلام يا صديقي.

وخرج بشعور عميق بالامتنان .

(٣٩)

ظل يداهمه طوال الوقت ذلك التحذير الذي وجهه إليه عبدالناصر المحامي بألا يسمح لموظفي الهيئة باستصدار قرار بفصله تحت مسمى « قبول استقالته » ، لو لم ينفذ قرار النقل إلى إدارة التنظيم ، فهو لا يملك ترف الاستغناء عن مرتبه من وظيفته مهما كان ضئيلاً ، وليس لديه مورد آخر يعيش منه .. لكنه قال رداً عليه : على جثتي ! .. وكان صادقاً ، فإن قبوله في حقيقته بمثابة رفع الراية البيضاء تسليماً بالهزيمة .. فكيف يختار بين تأمين مصدر للحد الأدنى للعيش .. وبين خيانة نفسه ومبادئه ؟ .. أخيراً واتته فكرة اللجوء إلى « الثقافة الجماهيرية » مثل اللجوء السياسي لهارب من المشنقة ؟ .. ورأي أن هروبه إليها هو عودة إلى بيته الأول الذي عمل فيه طوال ست سنوات سابقة حتى اضطر لطلب النقل أيضاً – ويا للعجب ! – إلى هيئة الفنون في ظروف مشابهة ، لكن في مواجهة السلطة ذاتها في تلك المرة .. أما الآن فإن من يرأس الثقافة الجماهيرية كاتب مسرحي هو سعدالدين وهبة ، إلى جانب شغله لمنصب رئيس قطاع مكتب وزير الثقافة .

قرر الذهاب إليه بمكتبه بشارع الجلاء وطلب مقابلته ، استقبله الرجل مرحباً، واتضح أنه يتابع قضيته من خلال روز اليوسف ، وقرأ طلبه للنقل باهتمام . أبدى ترحيبه بقبوله ، بل أضاف أن الوزير جلال العليمي لن يمانع ، لكن هناك مشكلة قد

تعترض تنفيذ النقل ، أنه سيتوقف على موافقة هيئة الفنون باعتبارها صاحبة الشأن ، فهي تملك الدرجة المالية التي يشغلها في مقابل عمله بها ولن تضحي بها للثقافة الجماهيرية بالطبع ، لكن من حقها الموافقة على ندب الموظف إلى أي جهة أخرى مع استمرار قيامها بدفع مرتبه بصفة مؤقتة لحين توفير درجة أخرى له في تلك الجهة ، قال شوقي : ولو أصدر السيد الوزير قراراً بالندب .. ألا يحل المشكلة ؟

- طبعاً يحلها .. لكن الوزير أساساً رجل قانون ، لذلك من غير المتوقع أن يصدر قراراً يعرف أنه مخالف للقانون ، فلكل هيئة بالوزارة ميزانيتها المستقلة وسيادتها على العاملين فيها .. فهل تتوقع أن توافق هيئة الفنون على دفع مرتبك وأنت تعمل في جهة أخرى في ظل عدم رضاها عنك ؟

أُسقط في يده ، فهو يعرف رغبة رئيس الهيئة في التنكيل به وجعله دائماً تحت رحمته ، فكيف يوافق على إطلاق سراحه بالمعروف ؟ .. بل بدفع مرتب له ليواصل التشهير به ؟! .. وغرق في الصمت واليأس .. لاحظ الأستاذ سعد مدى كربه فقال يهون عليه :

- على العموم سأوقّع على طلبك بالموافقة وأطلب من إدارة شئون العاملين إعداد مذكرة باسمي إلى رئيس هيئة الفنون ، أطلب فيها موافقته على ندبك .
- هذا رائع .. لكن إذا رفض أو تجاهل الرد ؟
- هو لن يجرؤ على فصلك بحجة الانقطاع عن العمل حتى لا يخاطر بالصدام معي ، مقدراً أن ذلك قد يكون صداماً مع الوزير بحكم منصبي كرئيس لقطاع مكتبه . كل ما يمكنه فعله أن يوقف صرف مرتبك ، وفي هذه الحالة عليك أن تتحمل هذا الوضع حتى يمكننا توفير درجة مالية لك عندنا ، مع مداومتك على الحضور والتوقيع يومياً ، وهذا لمجرد إثبات أنك لست مقيماً في بيتك منقطعاً عن العمل ، لحين الوصول إلى حل .
- وهل سيستمر ذلك طويلاً ؟
- إلى أن تخلو درجة مالية يتم نقلك عليها .
- ومتى نتوقع خلو درجة ؟

- للأسف ليس قبل ثمانية أشهر من الآن .

فكر في الأمر بسرعة ، مقارناً بين بقائه مهاناً تحت رحمة بلطجي ، وبين البقاء في موقع يحميه ، ولو بقى ثمانية أشهر بلا دخل يعيش منه . لم يستغرق لحظات ليتخذ قراره .. وقال لنفسه أنه سيعمل المستحيل ليجد وسيلة للعيش بكرامة مرفوع الرأس .. قال :

- أنا موافق .. سأعتبر نفسي من الآن في بيتي . وأتمنى أن يكون مكان عملي مع عمر البرعي بإدارة الإعلام ..
- ولماذا عمر تحديداً ؟
- لأننا كنا زملاء عمل فترة وجودي بالثقافة الجماهيرية ، وهو صديق عزيز أيضاً.
- وهو كذلك .. أهلا بك في بيتك القديم .

وجد صديقه عمر البرعي في انتظاره ، حيث قابله قبل دخوله إلى مكتب الأستاذ سعد. سأله بلهفة عن أخبار المقابلة : وما أن علم بالنتيجة حتى نهض واقفاً وأعلن بصوت مرتفع ليسمعه كل العاملين بإدارة الإعلام التي يرأسها ، خبر انضمام الفنان شوقي نعمان إليهم .. وفوجئ بتصفيق العاملين ، مما جعل زملاءهم بالإدارات الأخرى يسرعون إلى المكان بدافع الفضول ، وأغرقوه بكلمات التهنئة والترحيب .

راح الصديقان يسترجعان ذكرياتهما معاً في بورسعيد حيث ألتقيا بقصر الثقافة لأول مرة وهو تحت التشطيب استعداداً للافتتاح واستقبال الرئيس عبدالناصر في عيد النصر في ديسمبر ١٩٦٤.

- ياه ! .. ودارت الأيام يا عمر وجمعنا العمل ثانية .. من يصدق أنه قد مرّ على ذلك اليوم إثنا عشر عاماً !
- أنت الوحيد بيننا يا شوقي الذي لم يتغير طوال هذه السنين ..
- بالعكس .. فقد تغيرت كثيراً .. أنظر فقط ماذا كان سقف أحلامنا آنذاك وما هو سقف أحلامي الآن .. كل نضالي اليوم لمجرد أن أجد ملاذاً يحميني من البطش والارهاب ، وأن أسترد شرفي المهان ومرسمي وما بقي من لوحاتي .

- ستنتصر في النهاية .. صدقني .. لقد مرَّ عليك ما هو أقسى من ذلك وعبرت . وبهذه المناسبة (ومال عليه يسأله هامساً) أليس من اخبار جديدة عن ابنتك وأمها منذ سفرهما ؟

هز رأسه بالنفي بدون كلام .. وكان وقت انصراف الموظفين قد أزف ، فاستأذن في الانصراف على وعد بلقاء قريب.

(٤٠)

عندما وصل إلى شقته وجد خطاباً إليه بالبريد وعلى مظروفه طوابع عربية ، وأدرك من الخط المكتوب على المظروف أنه من نادية . أسرع يفضه ملهوفاً عسى أن يجد بداخله صورة لنسمة فلم يجد . جلس يقرأه قبل أن يخلع ملابسه .

« عزيزي شوقي

بعد التحية .. وأتمنى أن تكون بخير .. أطمئنك على نسمة .. إنها بخير وألحقتها بالحضانة وأصبح لها أصدقاء في سنها هناك ، وتعلمت كتابة بعض الكلمات وهي تردد الأناشيد وترسم الكثير من الرسوم والشخابيط ، وأحياناً تجلس وتتخيل أنها تكتب خطاباً إليك وتردد الكلمات بصوت مرتفع لكن لازال أمامها الكثير لتكتب كلاماً يُقرأ .. قرأت هنا في العدد الأخير من مجلة روز اليوسف ما حدث لمرسمك ولوحاتك بالمسافرخانة فأسفت كثيراً . وأتمنى أن تتجاوز هذه الأزمة في أسرع وقت كما تجاوزت الكثير من قبل . أعرّفك بأنني لم أتمكن من الحضور إلى القاهرة في الأجازة الصيفية لأن نفقات السفر كانت ستكلفني الكثير مما سيؤثر على فرصة دفع خلوّ رجل شقة تنفيذاً لاتفاقنا . فرجائي أن تتحملني شوية كمان حتى بداية الصيف القادم حيث سأعود لاستقر في مكان جديد ولو احتجت لأي شيء من هنا ابعت لي لأحضره لك معي . وخللي بالك من نفسك واهي ازمة وتعدي . مع خالص تمنياتي والسلام .. نادية » .

ألقى بالخطاب على المنضدة بخيبة أمل قائلاً لنفسه : يا لكرمها ونبل مشاعرها !.. ليتها على الأقل أرسلت أحد ما تسميه شخابيط نسمة طالماً لم تبعث بصورة لها تعرَّفني إلى أي حد كبرت .. أما الحجرة فعليك أن تنسى أمرها حتى تتعطف الهانم بالحضور بعد ثمانية أشهر .. كثَّر خيرها !.

بحث في الثلاجة عن شيء يؤكل . أخرج بيضتين وبعض الجبن الأبيض، وفيما كان يقلي البيض كان ذهنه يدور محاولاً إيجاد حل لأزمته المالية مع بداية الشهر . حيث سيتم قطع مرتبه ، هذا في أحسن الأحوال لو توفرت درجة مالية بعد ثمانية أشهر ، لأنه لا يأمل إطلاقاً في موافقة رئيس الهيئة على انتدابه للثقافة الجماهيرية ، هذا بخلاف مصاريف القضايا وخامات ولوازم الرسم ، وهي أمر ضروري بنفس ضرورة الطعام وإيجار الشقة وما إليها .

انتبه إلى أنه لم يخلع ملابسه التي أتى بها في زحمة المواصلات وهي مبتلة بالعرق . تناول غداءه في استعجال وأخذ ملابس نظيفة إلى الحمام ، وبينما كان يتلقى زخَّات الدش البارد فوق رأسه كان يواصل التفكير في مخرج من الأزمة المالية في الفترة المقبلة . كانت كل الأبواب موصده ماعدا باب واحد ظل يتجنب اللجوء إليه حتى في أحلك أزماته السابقة .. وهو والده .. فليس من العدل أن يحمله همه بعد ثلاثة عشر عاماً قضاها موظفاً يقبض مرتباً ثابتاً من الحكومة ، فيما يعرف الظروف المالية الصعبة لوالده وأعبائه الأسرية الثقيلة وهو في شيخوخته ، فضلاً عما يمكن أن يشعر به هو ووالدته من خيبة أمل فيه كما يرددان بحسرة أنه « قليل البخت » في كل شيء ، فكر أن لديه اليوم المبرر الكافي لما يطلبه منه .. « ...حسناً وما الذي ستطلبه ؟ .. أنت تعرف أن والديك يعتمدان في معيشتهما مع اختيك سميحه وفايزة ومطالب العلاج الباهظة لكليهما على المعاش الصغير للوالد كمدرس سابق ، بجانب قيمة إيجار الفدانين اللذين ورثهما وإيجار أربعة دكاكين بنى فوقها شقة ، تلك هي حصيلة شقاء عمره التي تجعله وأسرته .. بالكاد.. في عداد « المستورين » ، فوق قيامه بإعداد « جهاز » أخته المخطوبة في انتظار زواجها الذي سيتم عما قريب .. فمن أين يساعدك بأي مبلغ ؟ .. لا لن تطلب منه مساعدة،

بل يمكن ان تطلب شيئاً من أثنين : إما سلفة يقوم بطلبها من البنك بضمان معاشه ، وتقدم أنت إليه كافة الضمانات لتسديدها إليه حين ميسرة ، وإما أن تبيع بضعة قراريط أو أحد الدكاكين وتتحصل أنت على ثمنها خصماً من نصيبك في الميراث بعد عمر طويل للوالد .. هل لديك حل ثالث ؟»

خرج من الحمام مرتضياً على مضض بهذا الحل بغير شعور بالارتياح ، بل بدرجة من الانكسار . وبدأ يفكر بهدوء في موعد لسفره ، وفضل أن يكون ذلك غداً، لأنه في سباق مع الزمن ، خاصة وأن كلا الاقتراحين سيستغرقان وقتاً طويلاً حتى يحصل على الأموال المطلوبة ، وأولها مصاريف القضايا ، فمن العيب أن يترك الأستاذ نبيل يسددها نيابة عنه ، إلى جانب رغبته في إقامة معرض لأعماله فور تدبير ثمن الخامات ولوازم المعرض الأخرى من شاسيهات وبراويز وطبع كتالوجات، فالمعرض الآن ليس شيئاً كمالياً يمكن تأجيله ، بل هو جزء من معركته في المرحلة القادمة ، ليكون وجهاً آخر للمقاومة والمواجهة إلى جانب جمع التوقيعات على البيان وحملة المقالات الصحفية لتحقيق التعاطف مع قضيته أمام الرأي العام ، حتى يحاصر قدري بين أوساط الفنانين والمثقفين .

واستقر أخيراً على السفر صباح الغد ، فيما يخامره شعور بالأسى ، لتذكره أن اليوم يوافق مرور ثلاثة عشر عاماً على تعيينه بالوزارة قضاها معتمداً تماماً على نفسه ، وها هو بعدها يمد يده طلباً للعون من أهله ، مع الاعتراف بأنهم بادروا في المرة الأولى له في السجن منذ حوالي خمس سنوات إلى تقديم المساعدة إلى زوجته أثناء غيابه.

(٤١)

ما أن طرق الباب حتى دبت الحياة في البيت الكبير الهادئ ، وعمت الفرحة والديه وأختيه سميحة المطلقة وفايزة المخطوبة ، وعلت الأصوات والضحكات وتواصلت الثرثرة بالأخبار والحكايات ، وأنتبه بعض الأقارب المقيمين بالجوار إلى الضجة فجاءوا تباعاً من الباب المفتوح دائماً على الشارع كالعادة لتحيته ، وحمِدَ الله

على عدم وصول المجلة إلى البلدة ، وإلا لكان الخبر قد شاع وأصبح البيت في « مَحزنة » .. وقامت الأختان لذبح الحمام وإعداد وليمة تليق بالأخ الكبير الغالي الذي تتباهيان به كفنان ومدير بوزارة الثقافة ، وإن لم تعرفا تماماً اسم المنصب الذي يشغله .. وسمع الكثير من الأسئلة عن ابنته نسمة ، وما إذا كان ينوي الزواج بعد انفصاله عن أمها ، وتلقى الكثير من كلمات العتاب والتأنيب المرح من باب العشم لانقطاعه الطويل عن البلد وعن أهله ومحبيه ، واضطر لانتحال المعاذير لهذا الانقطاع ، بمعارضه وندواته .. فسأله أحد الأقارب :

- والحاجات دي بتجيبلك فلوس يا أستاذ ؟ .. بنسمع إن « اللُّوَح » دي بتتباع بأثمان كبيرة .. بيقولوا بالآلافات.

بادرت أمه ، وكأنها تبعد عنه الحسد :

- يا خويا آلافات إيه ؟ .. كان يبان عليه .. هو قلب امه غاوي .. بيرسم لمزاجه .. من وقت ما كان عيِّل كان يسيب المذاكرة ويطلع في « المقعد » لوحده ويفضل يرسم .

وما إن خلا البيت لأهله حتى راح يتأمل كل ملامحه ، وكأنما يبحث عن ذكرياته فيه .. فهذا الصحن الكبير المسمى « وسط الدار » كان مرتع لعبه طفلاً ، ومسرح تمثيلياته مع أقرانه من أقارب العائلة صبيا، وجلسات أمه مع صديقاتها كمستشارة لهن في شئونهن الخاصة ، وجلسات فَضّ النزاع بين أعمامه وأقاربه التي كان والده يتوسط لحلها ، وهنا جرى الاحتفال بشراء أول مائدة « سفرة » كبيرة وضعت في وسط الدار بكراسيها المكسوة بقماش التنجيد، فأصبحت بديلة عن « الطبلية » التي كانوا يتناولون عليها الطعام جلوساً فوق الحصيرة .. وتأمل الجدران الطينية شاهقة الارتفاع ، وهي لا تزال تحتفظ ببعض رسومه الخطية طفلاً .. هذا البراح الإنساني كم يفتقده في القاهرة أو في أي مكان .. إنه بمساحة عمارة متوسطة الحجم ، لكنه هنا يمثل بحبوحة الحياة وأريحيتها وإنسانية البيوت المفتوحة على الناس بغير حواجز ، حيث يذكر أن البيت كان يظل مفتوحاً أغلب الأوقات لا تكاد تغلق أبوابه ، سواء باب « المندرة » لاستقبال الرجال و باب وسط الدار للنساء

وللحوائج اليومية والمقربين من الجيران ، وكلاهما لا تنقطع عنه الزيارات والحركة وجلسات المشورة وطالبي درس مجاني للتلاميذ من والده معلم الأجيال ، فيما كانت « الفراندة» ذات الأعمدة والبوابة الحديدية عند مدخل المندرة هي مجلس العصاري للوالد مع أصدقائه من الأفندية ، مع أكواب الشاي وفناجين القهوة التي لا تنقطع ، أما المجالس العرفية لحل منازعات أهل البلدة من غير الأقارب ، فكانت تُعقد ليلاً بداخل المندرة الكبيرة علي « الكنبات الأسطمبولي » ، ومن خلالها يصدر حكماء الأهالي قراراتهم الملزمة للطرفين المتنازعين ، إما بالتعويض المالي أو بإرجاع الحق لأصحابه .

وأخيراً انفرد بوالديه ، وبادرته أمه :

- مالك خاسس كده ليه يا بني ؟ .. باين عليك ما بتاكلش كويس .. قلب أمك تلاقي ما فيش حد بيطبخ لك ولا يجهزلك لقمة طرية .. عايش ازاي يا بني ؟

طمأنها بأنه يأكل جيدا ، لكنه يمر ببعض المشاكل .. قال الأب :

- مشاكل تاني ؟ .. مش كنا ارتحنا وسبنا السياسة وهمها ؟
- المشاكل المرة دي مش من السياسة .. دي خلافات في الشغل .
- مش اتحلت والحمدلله ؟
- لسة شوية يا حاج (وبعد لحظة صمت) لسة كثير في الحقيقة.
- إزاي يعنى ؟ .. أنا حاسس من ساعة ما جيت أن وراك هم تقيل !

تنهد بعمق وهو مطرق حتى قال :

- دي حكاية طويلة .. حابقى أحكيها لكم بعد الغدا .. المهم إزيكم انتم ؟ .. أخبار مشاكل القلب والضغط والسكر إيه عندَك ؟ .. وانتِ كمان يا نينة؟

قال الأب :

- الحمد لله على كل حال .. هي الأمراض دي بتخف يابني ؟ .. دي بقت عِشْرة عمر .. عايشة معانا ما بتفارقناش .. أمك بس اللي مش عاجباني .
- ليه كفى الله الشر ؟

- محتاجة عملية في القلب ومش عاوزة .. غُلُبنا معاها .
- ليه يا نينه ؟
- يا بني هو أنا استحمل عمليات دلوقتي ؟ .. والعملية تتكلف ياما .. آديني عايشة على الدوا .. وآهي أيام بنقضيها .. حناخذ زماننا وزمن غيرنا ؟ .. المهم انت يا ضنايا تريح قلبي وتتجوز .. حتفضل كده واحداني لا زوجة ولا خلفة تملا بيتك ؟ .. يا بني نفسي أشوف ذريتك .. حتى بنتك اتحرمنا منها .. دا أنا حتى مش فاكرة شكلها .. دا يرضي ربنا ؟
- إن شاء الله هي جاية في أجازة الصيف وحا جيبها لك تشوفيها .
- وإيه اللي حايشك من الجواز تاني ؟ .. دا الست اللي هيه ست .. بتتجوّز بعد ما تتطلق .. إيش حال الراجل !
- اتجوز بإيه يا أمي ؟ .. هو الجواز سهل ؟
- حيكون النهاردة أصعب عليك من الجواز الأولاني ؟ .. دا أنت كنت لسه بتبتدي حياتك ومع ذلك فتحت بيت .. دلوقت عندك الشقة والعفش .. إيه اللي ناقصك ؟

تدخل الأب قائلاً :

- ناقصه بنت الحلال .. تعال نجوزك من البلد .. آدي انت جربت بنات البندر .. تعالى نخطب لك اللي تصونك وتصون عشرتك .

جاءت أختاه وجلستا في انتظار نضج الطبيخ .. والسعادة تطل من وجهيهما ، وقد تناهت إلى أسماعهما شذرات من الحديث الدائر ، فقالت الكبرى سميحة :

- جواز إيه بلا همّ .. أخذنا إيه من الجواز ؟!

قالت فايزة :

- ما تسمعش كلامها يا « أبيه » .. دي واحدة معقده من تجربتها اليتيمة وعاوزه تعيش عَزَبة .. والرجالة راحين جايين عاوزين يخطبوها ..

ردت سميحة وهي تشوَّح بيدها :

- يا ختي خليكي في حالك .. بكرة نقعد ع الحيطة ونسمع الزيطة !
- كده برضه ياسميحة ؟ .. بتفوَّلي عليّ ؟ .. الله يسامحك !

وقامت مندفعة نحو المطبخ ، فغمزت الأم لسميحة حتى تلحق بأختها وتطيّب خاطرها ، فابتسمت وهي تدير أصابعها بجوار رأسها بمعنى أن أختها خفيفة العقل وقامت لمصالحتها .. قالت الأم :

- أهُم دايماً على كدة .. ناقر ونقير .

ولم تمر غير لحظات حتى سمعوا الضحكات تأتي من ناحية المطبخ .

فكر شوقي فيما إذا كان الوقت مناسباً الآن لفتح الموضوع أو أن يرجئه إلى ما بعد الغداء .. وانتهى إلى الرأي الأخير ليضمن الانفراد بوالده في المندرة ، وحاولت الأم العودة إلى موضوع زواجه ، فقال لها :

- فيه حاجات دلوقت أهم يا نينه لازم أعملها .

قال الأب :

- أنا فاهمه كويس يا أم شوقي .. هو ما قطعش العشم في إنه يرجع لمراته وبنته .. واحنا يا بني ما نكرهش .. يا ريت كان ينفع .. على الأقل عشان بنتك تتربى في وسطكم .. لكن واحدة ما صانتش العِشرة ولا راعت خاطر إنك تشوف بنتك ولا افتكرت تضحياتك عشانها ، وإنك ما كنتش بس زوج لها .. دا انت كنت أَحَنّ عليها من أهلها .. حيكون عندها خير فيك لو رجعت لك ؟
- يا بابا أنا مش مستنيها ولا بافكّر فيه أساساً .. دا ماضي وراح لحاله .. وياريت ما نرجعلوش تاني .
- امال فيه إيه بس ؟ .. فَهِّمني .. بتقول إن فيه حاجات لازم تعملها .. زي إيه؟
- حاضر حا حكيلكم والله .. مش اتفقنا نتكلم بعد الغدا ؟

استشعر الأبوان وجود أمر جلل ، فالتزما الصمت ، حتى جاءت فايزة بأطباق البامية والملوخية إلى السفرة في الصالة في وسط الدار وهي تقول في مرح : أنا جيت !.. ومن ورائها جاءت سميحة بقارب الأرز الكبير ، يعلوه عدد من الحمامات المحَّمرة التي اشتاق إلى مذاقها .. ثم أتبعته بقارب كبير آخر ملئ بالسلطة الخضراء .. وصاحت مبتهجة وهي تشير بيدها في حركة مسرحية : اتفضلوا !

واتخذ الجميع أماكنهم على السفرة وبدأوا تناول الطعام ، يغمرهم إحساس بدفء اللمة التي اكتملت بحضوره ، حيث افتقدوها منذ زمن طويل .

سألته والدته بعد الغداء وهي جالسة بالمندرة على الكنبة الأسطمبولي المقابلة لتلك التي يجلس عليها والده وهو يحتسي الشاي:

- موجود معانا كام يوم إن شاء الله ؟
- بكرة لازم أسافر يا نينه .. عندي شغل هناك ما اقدرش أتأخر .
- يعني جاي تزور السكة مش جاي تزورنا !
- في الحقيقة أنا جاي أزوركم وآخد رأيكم في موضوع مهم .

قال الأب وهو يحرك حبات مسبحته :

- خيراً إن شاء الله .
- إن شاء الله ربنا ينهيها على خير .

قالها شوقي وأطرق برأسه ، وخيم الصمت على « المندرة » ، ولم يشأ الوالدان أن يحثاه على الكلام .. وأخيراً ألقى بالكلمات كأنما يتخلص من عبء ثقيل :

- أنا عندي مشكلة كبيرة أوي يا حاج .

وانطلق يحكي عن خلافاته مع رئيس الهيئة التي انتهت بنقله وتحطيم لوحاته وبوقف مرتبه مع بداية الشهر القادم ، وعن القضايا التي سيرفعها وما ستكلفه من مصاريف، وتجنب الإشارة إلى الاعتداء البدني عليه ، واكتفى بالإشارة إلى مسعاه للنقل إلى الثقافة الجماهيرية واحتمال بقائه بدون مرتب لثمانية أشهر ، مما يستدعي تدبير ما يكفي لتغطية هذه المطالب بما لا يقل عن ألفي جنيه .

ضرب الأب كفاً بكف وهو يستغفر ربه وأمه تكاد تولول :

- كان كل ده مكتوب لنا فين يا ربي .. منه لله الراجل الشرَّاني ده .. افتكرنا إن ربنا هدانا والتفتنا لحالنا .. بعيد عن مناكفة الحكومة .. يقطع السياسة وسنينها !
- فين السياسة يا نينه في اللي حصل ؟ .. دا خلاف في الشغل .

لكنه كان متأكداً من أن والدته على حق ، فالسياسة هي منبع كل ما حصل ، وقد أدركت ذلك بإحساسها الفطري : لكنها لا تدرك أن ذلك قَدَره مهما حاول الابتعاد عنه.

- وبعدين يابني .. ناوي على إيه .

قالها والده في إشفاق .

- عشان كده جيت لكم تشيروا عليّ.
- نشير عليك بإيه .. دي مشكلة إدارية ما نفهمش فيها .. بتقول لايحة قانونية واستغلال نفوذ ومساومة من الراجل الشيطان ده عشان تغسل سمعته .. ماقدرش أقول طبعاً إنك غلطان لأنك رفضت المساومة .. لكن ما كانش لازم تتحداه وتقول له اللي قلته .. إحنا مش قد الناس المجرمين دول .

سكت برهة ثم استأنف :

- وكمان ما اقدرش أغلَّطك على إنك ترفع القضايا اللي ترجَّع لك حقوقك ولا ألومك على إنك ما نفذتش النقل اللي يهين كرامتك .. كله يابني إلا الكرامة .. لكن .. التمن غالي أوي .. ألفين جنيه منين .. دول يقرَّبوا على قيمة جهاز اختك فايزة .

فجأة اندفعت أمه في حسم :

- يتأجل ..
- هو إيه اللي يتأجل .
- جهاز البنت .

- أنتي بتقولي إيه يام شوقي ؟ .. هو بكيفنا ؟ .. حنقول إيه للناس ؟
- ما تقولش حاجة .. يعني نجوزَّها ونسيب ابننا يضيع ؟ والا شوف لك صرفة تانية .
- منين بس ؟
- أنا عندي اقتراح ....

التفت إليه الأب كالغريق :

- إيه هو ؟

ذكر له شوقي الخيارين اللذين انتهى إليهما بالأمس ؛ إما السلفة من البنك وإما بيع القراريط التي تفي بالمبلغ المطلوب .. ابتسم الرجل قائلاً بسخرية :

- أنت فاكر أني ما اخدتش سلفة من البنك ؟ .. أمال كنت حاجهز أختك منين؟ .. من السلفة طبعاً !
- طيب والحل التاني ؟
- إلا دي يا بني ! .. الأرض دي سترنا وغطانا .. ما اقدرش أفرَّط فيها .. دا حق أمك واخواتك البنات .

قالت أمه :

- وحقه هو كمان .. وبيقولك اعتبر إنه أخذ حقه لو بعت قيراطين ثلاثه .. وحيكتب لك أنه استلم نصيبه من الورث.
- إزاي بس يا ام شوقي .. دي عيبة في حقنا .
- لا عيبة ولا حاجة .. ما حدش له عندنا حاجة .. وكل واحد متعلق من عرقوبه .
- طيب وخير الأرض اللي عايشين عليه ؟
- دول قيراطين وللا ثلاثه .. مش هم اللي حيخلونا ننام من غير عشا لو نقصوا ..
- خلاص يابني .. إديني فرصة أفكر في الموضوع .. لا حول ولا قوة إلا بالله!

كانت الأم تتألم بين حزنها على مصاب ولدها وبين تقديرها لعجز زوجها عن تقديم المساعدة ، فقالت بعد الدعاء على من ظلم أبنها :

- ربنا يعمل اللي فيه الخير .. قوم يا خويا نصلي المغرب وندعي لربنا يحلها بمعرفته .. قادر يا كريم .
- ونهضوا في امتثال لأمر الله استعداداً للوضوء والصلاة .

(٤٢)

منذ عودته من زيارة أسرته انهمك شوقي في إعادة ترتيب أثاث الشقة لإفساح مكان لمرسم جديد ، فنقل إلى الصالة كل ما استطاع نقله من حجرة الجلوس الصغيرة التي لا تزيد مساحتها عن ٣ × ٣ متر إلى الصالة الواسعة نسبياً ، مكتفياً بترك الكنبة وأحد الكراسي ، وأزاح المكتب حتى ألصق واجهته بالحائط وأبقى أدراجه جهة الخارج ، وجعل من سطحه قاعدة لوضع اللوحات قائمة ، وغطَّاه بمفرش من البلاستك ، وجعل من الحائط خلفه مسندا للوحة أثناء الرسم ، وأخلى وسط الحجرة من أي إشغال إلا من منضدة صغيرة واطئة يضع فوقها « بالتة » الألوان وفازة الفُرش ، تاركاً خلفها فراغاً كافياً للوقوف وللتراجع خطوتين إلى الخلف أثناء الرسم ، بما يسمح بتأمل ما رسمه . وعثر في « السندره » على كشاف للإضاءة بسلك طويل ، فثبت قابسه في « فيشة » الكهرباء بالحائط من الجهة اليسرى لوضع الرسم، مسلطاً الضوء على المكان الذي ستسند عليه اللوحة فوق الحائط . وقف يتأمل المكان من وسط الصالة التي لا يفصلها جدار عن حجرة الجلوس ، إلا مسافة متر هي التي يوجد خلفها مصدر الكهرباء ، ويثبت في أعلاها كشاف الإضاءة . وأحس لأول مرة بالارتياح إلى وجود مرسم جديد .. وفرك يديه في إعجاب بالفكرة وهو يقول لنفسه في سرور :

- والآن يا بطل .. ورَّينا شطارتك ! ..

لكن حماسه انطفأ فجأة عندما تذكر عدم وجود « شاسيهات » فارغة وقماش يشده عليها لتحضيرها للرسم .. عقد ذراعيه على صدره وهرش رأسه بحثاً عن حل ، وليس لديه مال يشتري به ما يحتاج إليه من خامات وأدوات .. ولمع في ذهنه خاطر .. فاندفع إلى غرفة نومه حيث يوجد باب البلكونة المطلة على الفناء الخلفي للعمارة ، فقد تذكر وجود بعض قوائم الخشب الطويلة من بواقي عملية تصنيع المكتبة منذ سنوات .. راح يقلب بين حزمة القوائم الخشبية بركن البلكونة ، نجح في العثور على بعض القطع تصلح كقوائم مناسبة لشاسيهات متوسطة .. وعلى الفور أخرج عدة النجارة البسيطة من تحت السرير ، وأعد ورشة بالمرسم الجديد مستندا إلى سطح المكتب .. وانهمك في حساب المقاسات التي تتوافق مع أطوال الأعواد الخشبية المتاحة ، فوجد أنها تكفي لثلاث شاسيهات بمقاس ٥٠×٧٠سم .

هكذا انطلقت العملية ، بدءاً من تقطيع الأطوال والعروض والزوايا القائمة ٩٠ درجة حسب المقاسات التي حسبها جيداً بالمليمتر ، محاذراً الوقوع في أي خطأ قد يهدر شاسيهاً كاملاً .. إنها مهمة يجيد تنفيذها وسبق أن مارسها عند إعداد كل معارضه السابقة بدون الاستعانة بنجار توفيرا للتكاليف ما أمكنه ذلك ، فضلاً عما يجده في إنجازها من متعة خاصة ، حتى ولو استغرقت وقتاً أطول وجاءت النتائج بحرفية أقل .. وفيما كان ينهمك في عملية التقطيع بالمنشار ، كان ذهنه يعمل لاستكمال الخطوات التالية ؛ فعليه الذهاب فورا إلى « الموَّان » لشراء الغراء والمسامير و« مبرد خشَّابي » لتسوية حواف الشاسية الداخلية كي لا تحزَّ في القماش بعد شده فوقه .. أما القماش فسعر شراء ثلاثة أمتار « دمور» مقدور عليه ، وأما الألوان وبقية اللوازم فيكفيه الآن شراء علبة ألوان زيتية صغيرة وبعض الفرش وزجاجة زيت الألوان وسكين معجون ، لحين وصول الدعم المالي من والده حسبما وعده بتدبيره بأي وسيلة .

وفي خضم انشغاله بهذه المهمة كان ذهنه يعمل لاستكمال المسار الآخر لجمع التوقيعات على البيان ، بما يستدعى القيام بعدة مشاوير إلى أماكن وأشخاص معينين ، ظل يستحضرها ويرتب أولوياتها منذ أن بدأت الفكرة بمكتب الأستاذ

الهلالي ، وأضاف إليهم الشباب الذين نصحه بالاستعانة بهم في هذه المهمة ، خاصة وقد ظهرت بوادر الترشيحات لأول عملية انتخابية لنقابة الفنانين التشكيليين بعد أن وافقت الدولة على إنشائها ، ورشحت التسريبات بأن قدري عثمان سيكون أول المرشحين لمنصب النقيب ، وكأنه يريد احتكار كل مراكز السلطة والنفوذ لنفسه من حكومية وأهلية ، سيما وأنه أوشك على بلوغ سن التقاعد، ويأمل أن يمتد سلطانه لما بعد إحالته إلى المعاش حتى نهاية حياته ، وأيقن شوقي أن عملية الانتخابات ستكون فرصة لا تعوض لتفجير القضية ومواجهة قدري في عقر داره ، حيث ستتم عملية الانتخابات في سراي النصر التي يقع مكتبه في برجها العالي .

فلتكن انطلاقته بدءاً من الليلة هي الذهاب إلى أتيليه القاهرة ، للحوار مع من يتواجد هناك من الفنانين ، وغداً إلى مجلة الطليعة لاستلام توقيعات كُتّاب الأهرام ، ومنها إلى كليتي الفنون الجميلة والتربية الفنية بالزمالك ، للقاء من رشّحهم لمساعدته في هذه المهمة وقد كتب كشفاً بأسمائهم .

(٤٣)

كان يقام بالقاعة السفلية بالأتيليه معرض « صالون الأتيليه السنوي » ، قرأ الإعلان عنه في اللوحة الخارجية بجوار الباب . قبل أن يدخل القاعة لمشاهدته فوجئ بالفنان الكبير حامد ندا جالساً في الركن المقابل لباب القاعة وحوله مجموعة من الفتيات . كان كعهده به متميزا بالوسامة بشعره الفضي المهوش كهالة تحيط بوجهه المتفجر بالدماء والحيوية وعشق الحياة ومسَّراتها ، وبصوته الخفيض الأقرب إلى الهمهمة على قدر درجة الأصوات التي تصل إلى أذنه نصف السليمة ، وهو ممسك بالبايب يدخنه بلا توقف حتى صار ملمحاً دائماً من ملامحه . كان من الواضح أن الفتيات من تلميذاته بالكلية أو من المعجبات بفنه وشخصه ، اللاتي يسعد برفقتهن أو بمن في عمرهن في أغلب الأحيان . سلم عليه بقبضة يد قوية تكاد تعتصر يده كعادته ، مما يتناقض مع روحه الطفولية الأقرب إلى اللامبالاة ، وتساءل في حميمية عن سبب اختفائه منذ فترة طويلة ، حيث لم يره في المسافرخانة

كما تعود . فَهِم أنه لم يعرف بما حدث له مؤخراً ، وتوقع أن أحداً لم يهتم بإبلاغه ، لقناعة الجميع تقريباً بأنه يعيش وحيداً في عالمه الصامت مع عرائس أحلامه بعيداً عن أية خلافات أو مشاحنات ، ولحاجتهم كذلك إلى بذل مجهود كبير لتوصيل أية معلومة إليه بأعلى صوت بسبب ضعف سمعه حتى وهو يضع السماعة في أذنه ، لذا يوفرون مجهودهم للموضوعات الأهم . كانت تربطه بشوقي علاقة تمتد إلى سنوات مضت، حيث كان يقيم في شارع قريب من ميدان روكسي بمصر الجديدة ، ولا يفصل مسكنيهما إلا شارع جسر السويس ، فكانا يتبادلان الزيارات بشقتيهما الصغيرتين . بعد انفصال الأستاذ حامد عن زوجته ، بما يُسرِّى عنه في وحدته ، وكان في زياراته لشوقي يأتنس بزوجته نادية التي كانت تفرح باهتمامه الأبوي بها ، وتلك الزيارات كانت امتدادا للقاءات شبه يومية بينهما في مرسميهما بالمسافرخانة رغم فارق السن الكبير بينهما ، لكنه كان متمرداً يحب المتمردين ولو في مجال يختلف عنه، لهذا كان معجباً بتمرده في مجال الفكر والسياسة ، وكثيراً ما أشار إلى أنه يذكره بثوريته في شبابه المبكر بانحيازه للفقراء والمهمشين وفي استلهام حياة الشعب وتقاليده والحنوّ على آلامه ، ويستدعي ذكريات جماعة الفن المصري المعاصر ولوحاته المأساوية خلال سنوات الأربعينيات مع أعضاء الجماعة مثل سمير رافع وعبدالهادي الجزار وماهر رائف . وكم من مناقشات حامية دارت بينهما على قدر إمكانه الاستماع بربع طاقة أذن واحدة يحاول تقويتها بسمَّاعة صناعية .

لم يشأ شوقي أن يحكى له ما حدث وسط معجباته الصغيرات ، وفضل بدلاً من ذلك أن يعطيه نسخه من البيان ، وقبل أن يفعل بادره الأستاذ حامد ندا بسؤاله عن أخبار « نادية » .. وما إذا كان في الإمكان أن يرجعا إلى بعضهما البعض . نَفَى بحركة من رأسه ما أشار إليه الأستاذ ندا، وأعطاه البيان وهو يشك في أنه سيقرأه وسط انشغاله بمعجباته ، وقام متجهاً إلى معرض الصالون لمشاهدة لوحاته ، على أمل أن يظفر بتوقيعه على البيان عند خروجه من المعرض .

أسعده وجود ثلاث لوحات كبيرة الحجم للأستاذ ندا تحتل كل مساحة الجدار المواجه لباب القاعة ، إنه يَذكُرها جيداً منذ كان يرسمها بمرسمه في المسافرخانة ،

عالم من الراقصات والمتمايلات بقدود نحيلة وأذرع وسيقان سمراء ممطوطة كأنها من المطاط ، وفي وضعيات أقرب إلى جداريات الفن المصري القديم أو إلى رسوم الكهوف البدائية في إسبانيا وفرنسا بل في الكهوف على الحدود المصرية الليبية المعروفة باسم « رسوم التاسيلي » ، وفي إحدى اللوحات تتمايل الفتاة فوق حصان جامح ، وفي لوحة أخرى تتمدد على ظهرها فوق كنبة عربية الطراز في استطالة ورشاقة تبدو مخروطة بوحدات الأرابسك ، والفتاة ترفع إحدى ساقيها في الهواء بانسيابية راقصة باليه ، وفي اللوحة الثالثة تتمايل الفتاة على أنغام فرقة موسيقية شعبية بالأكورديون والمزامير ، والراقصات المساعدات تظهرن جميعاً في عرامة النشوة بأنوثتهن ، فيما يبدو الرجال القليلون وسط اللوحات شديدي الضآلة كالأقزام برؤوس ضخمة كالشمامة القرعاء ، وبأطراف هزيلة ، وقد تغفل أعين المشاهدين عن رؤيتهم ، لافتقادهم أي طاقة ذكورية وسط الحضور الطاغي للماردات الأسطوريات .

انتقل إلى القاعة الداخلية التي تضم أعمال العديد من الفنانين بشتى الأساليب والاتجاهات الفنية ، توقف باهتمام أمام القليل منها ، حيث يمضغ أصحابها ما سبق أن استهلكوه من طعام بائت ، وهو في الأصل سبق استهلاكه في موطنه الأصلي بدول الغرب ؛ أعمال « تشبه » السريالية ، أو « تشبه » التعبيرية أو التكعيبية أو التجريدية ، لكن بلا بصمة الأصالة أو علامة الجودة ، وهناك أعمال أخرى تتمحَّك في التراث بين الحروفية والزخارف العربية ، وهناك مناظر تذكرك بخان الخليلي والغورية ، مما يستهوي شريحة المقتنيين الجدد من مُحْدثي الثروة أو من سائحي دول النفط في السنوات الأخيرة مع ازدهار الانفتاح الاقتصادي . وسواء هذا الاتجاه أو ذاك ، يبدو أغلب المصورين وكأنهم يدورون في دائرة مغلقة من الاستهلاك المتبادل مع مريديهم .

وفجأة انتبه على ضجة مدوية ، مصدرها أحد الأشخاص يصرخ في القاعة التي تُعرض بها لوحات حامد ندا وكأنه يستغيث :

- حرام ! .. والله حرام ! .. في جهنم وبئس المصير !

مع التفاته إلى مصدر الصوت رأى ثلاثة من الشباب الملتحين يرتدون جلاليب قصيرة بيضاء وطواقي مخرَّمة وسراويل قصيرة من تحت الجلاليب ، وصاح أحدهم وهو واقف أمام لوحات حامد ندا :

- هذا فسق وفجور ولابد من إزالته .. أهكذا على الملأ يا كفرة ؟ .. إنه والله كفر وإلحاد !

وقال الثاني :

- من رأي منكم منكراً فليغيره بيده !

وأوشك على الهجوم ومحاولة إنزال اللوحات من فوق الحائط ، وجاء على الضجة عدد من رواد الأتيليه من الصالة الخارجية ، وحاولوا تهدئة الشباب الغاضب والحيلولة بينهم وبين اللوحات فازدادوا غضباً .. قال أحدهم :

- أتمنعوننا من وقف هذه المعصية بدلاً من مساعدتنا على تقويم المنكر؟

رد عليه مدير الأتيليه كمال خليفة :

- يا سيدي هذا ليس منكراً .. إنه فن .. يعني جمال .. والله جميل يحب الجمال.
- ما تقوله عين النفاق .. لأنه كلمة حق يراد بها باطل .. أي جمال في هذا العُري وهذا المجون ؟ .. أي جمال في هذه الخلاعة ؟ .. إنها معاصي تغضب الله !
- يا مولانا هناك لوحات أخرى في المعرض ليس فيها مثل ما يغضبك هنا .

وحاول أن يأخذه من يده نحو القاعة الأخرى ، لكن الشاب تمترس في مكانه رافضاً الدخول وهو يصيح :

- لا تحاول خداعي فهي تصاوير أيضاً ، والتصوير كفر والعياذ بالله ، فالمصورون إخوان الشياطين ، والملائكة لا تدخل مكاناً به صور ، وهذا المكان مليء بالصور ، فهو بؤرة للكفر .

كان شوقي قد فاض به الكيل واستبد به الغضب فاندفع نحوه وهو يصيح :

- وأنتم إذن الملائكة ؟.. فما الذي جاء بكم إلى بؤرة الشياطين ؟ .. أنت حر فيما تؤمن به .. لكنك لست حراً في فرضه على الجميع .
- يا أخ .. هذا ما يأمرنا به المصطفى صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكراً..

قاطعه وقد نفد صبره :

- يا سيدي عارفين والله .. نحن الذين سندخل النار وليس أنت .. ولتعرف أن هذا مكان محترم للمثقفين وليس لأمثالك من الجهلة المهووسين .. فاخرج من هنا فوراً وإلا استدعيت لك البوليس ، وهو يعرفكم جيداً ويعرف من يمولكم . البلد فيها قانون يحميها من أمثالكم .. هيا أخرجوا فوراً !

وكأنما دلق على رأس الشاب جردلاً من الماء البارد ، فنظر إلى صاحبيه من ذوي الجلاليب ، وتلكأوا قليلاً ثم طأطأوا رؤوسهم خارجين في صمت ، فيما انفجرت ضحكات كل الواقفين ، وخرجوا إلى الصالة حيث يجلس الفنان حامد ندا وسط معجباته يرسم اسكتشاً لإحداهن وهو في حالة استغراق كامل ولا يدري شيئاً عما حدث بسبب لوحاته !

فكر شوقي في أن يسأله عما إذا كان قد وقَّع على البيان أو قرأه على الأقل ، لكن حالة الغضب من المتعصبين قد بعثرت مشاعره وجعلته غير راغب في البقاء ، فحيىَّ بيده الأستاذ ندا عن بُعد مع ثقته في أنه لم ينتبه إليه ، وانصرف من المكان لا ينوي على شيء.

(٤٤)

استقبله فاروق عبدالقادر في مجلة الطليعة بنفس حماسه في الزيارة السابقة ، وسلمه البيان مزهوا بما حققه ، إذ كانت على رأسه توقيعات أغلب أسماء كوكب العظماء ، استهلَّه لطفي الخولي ، وتلاه فاروق حين وقَّع أمامه (تحدياً لاتهامه له بأنه خائف من أن يفصله ياسر الجبالي رئيس مجلس إدارة الأهرام) ثم توفيق الحكيم

ويوسف إدريس وزكي نجيب محمود ونجيب محفوظ ولويس عوض ونعمان عاشور .. فسأله عن كيفية التقائه بالأخير وهو ليس من كتاب الأهرام فقال إنه كان في زيارة للأستاذ نجيب محفوظ في الأهرام .

قال شوقي مشاغباً :

- لقد نسيت شخصاً واحدا لم تحصل على توقيعه .
- من هو ؟
- ياسر الجبالي !

قهقه فاروق بصوت مجلجل ثم تدارك وبتر ضحكته وهو يضع يده على فمه خشية أن يسمعه أحد فيبلغ رئيسه لتكون نهايته كما قال بعد ذلك .

قام فقبله بصدق واستأذنه للذهاب إلى كلية الفنون الجميلة . قال فاروق مودعاً حين أصبح شوقي عند الباب :

- لو احتجت أي معركة .. إحنا في الخدمة !

قطع المسافة إلى الزمالك عبر شارع ٢٦ يوليو على قدميه ، كان يشعر باقتراب ساعة الصفر ، وكان على استعداد للغفران لكل الناس مهما بدا من سوءاتهم ، لأنها حصاد ظروف أقوى منهم ، ما يجعلها تدوس إنسانيتهم وقيم الخير الأصيلة فيهم ، وعَبَرَ كوبري أبو العلا وتنسم نسماته الباردة وهو يتأمل اتساع النيل من تحته بدرجة لا يكاد يماثلها أي نهر في العالم ، وقد تناثرت على صفحته الرصاصية شظايا ماسيه تلتمع بشمس الضحى على حواف موجاته المرتعشة بهبات النسيم ، وتراءى أمامه على الضفة الأخرى قصر عائشة فهمي بديع التصميم ، وتذكر يوم أن دخله لأول مرة عام ٦٨ لمقابلة د. ثروت عكاشه وزير الثقافة آنذاك ، (وكان القصر هو مقر مكتبه) ، حين استدعاه من قصر الثقافة الذي كان يتولى إدارته . يومها قال له كلمته التي زلزلت كيانه وظلت حروفها تتوهج لا يمحوها الزمن بداخله :

- « أرجوك أن تصمد .. أنت على رأس قلعة أمامية لو سقطت ستسقط بعدها القلاع تباعاً » .

وبعد شهور قليلة سقطت القلعة وسقطت بعدها قلاع الثقافة تباعاً كما كان يخشى ، ثم تم استبعاده هو نفسه كوزير ! .. لكنه استدعاه مرة اخرى عام ٦٩ قبل أن يغادر منصبه بعام ، ليعرض عليه منصب مدير المسافرخانة ، وبدا له العرض كنوع من الترضية أو جبر الخاطر لظنه أنه كان المتسبب فيما جرى له من أذى حين أخذ بنصيحة الصمود في قلعته دون أن يستطيع حمايته من السقوط .. وفي اليوم التالي لتكليفه بالإشراف على قصر المسافرخانة أتى بنفسه ليسلمه القصر على مرأى من الجميع .. الآن أصبح قصر عائشة فهمي مجمَّعاً للفنون ، ويحسب لياسر الجبالي – رغم كل شيء– الفضل في تبني هذا المشروع فترة توليه وزارة الثقافة ، ولم يكن « لقدري » فضل في ذلك ، فالفكرة ليست فكرته ، والتنفيذ قام به الفنان كمال محمدي ، قبل أن يتولى إدارته بخيال واسع وطموح كبير، وإن كان الثمن الذي دفعه مقابل ذلك كبيراً أيضاً ، إذ أن قدري نجح في أن يجعل منه أداة لتنفيذ مخططاته وفي أن يتبنَّى حساباته وعداواته ، رغم ذكائه ومواهبه التي كانت جديرة بأن تنأي به عن هذا المستنقع .. لكن هذا الذكاء نفسه هو الذي صور له أن قدري هو السلم لتحقيق طموحه ، فكأن كلا منهما كان يستغل الآخر لبلوغ أهدافه . وربما كان ذلك هو هدف قدري من محاولة استقطاب شوقي ليلعب نفس دور محمدي باعتبار شوقي وجها يسارياً مصدق الكلمة ، حتى يفتح أمامه الطريق المسدود جهة اليسار التي تمثلها مجلة روز اليوسف ، لكن رهانه خسر ، لأنه لم يفهم أن شوقي من عجينة مختلفة لا تباع ولا تشتري!

في حجرة أساتذة قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة – الذي درس فيه – وجد عددا من زملاء الدراسة ، وبعضهم من فناني المسافرخانة كذلك ، مثل أحمد خليل وعباس مرتضى ومحمود الألفي ، وكان يجلس في طرف بعيد شاب نحيل قدموه إليه كمعيد جديد بالقسم اسمه بسيوني . تسابق الجميع للترحيب به وإبداء الأسف لما حدث له ، وقال أحمد خليل :

– لقد استشعرنا يوم الاجتماع الذي لم يتم بالمسافرخانة وجود نية للخلاص منك إذ كان من الواضح أن هناك تنسيقاً بين مصطفى مسعود ومرسي الحسيني ،

واتفاقاً مسبقاً ضدك مع قدري رئيس الهيئة .. لذلك انسحبنا من الاجتماع . وتأكد شعورنا بعد ذلك بتعيين مصطفى مسعود مديراً للقصر بدلاً منك .

ولم يطل بينهم الحديث حول الموضوع ، حيث استأنفوا ما كانوا يتحدثون فيه قبل مجيئه حول النقابة الجديدة وحكايات المرشحين والصراع بين كليات الفنون المختلفة على منصب النقيب ، فأبناء كل كلية يناصرون مرشح كليتهم ، بين مرشحي الفنون الجميلة والفنون التطبيقية والتربية الفنية . وسمع شوقي اسم « قدري » كمرشح يقف وراءه خريجو كلية الفنون الجميلة .. فقال وسط دهشته :

- أبعد كل ما فعله ويفعله تؤيدون ترشيحه !..

أفاقوا على وجوده بينهم وكأنهم كانوا قد نسوا ذلك ، حاولوا تخفيف الأمر ، قال خليل:

- لم نقل إننا نؤيده ، بل نحن فقط نستعرض الارضية القائمة كما هي ، ولا يزال الوقت مبكراً جداً على الانتخابات وتحديد الموقف .

وقال الألفي :

- نحن بالطبع ضد ما فعله معك وندينه بكل المقاييس ، لكن ما نناقشه الآن هو كيفية الوقوف ضد أطماع خريجي الفنون التطبيقية . لأنهم لو أخذوا النقابة في أول انتخابات فلن نستردها مرة أخرى .. وعلينا أن نختار من بيننا مرشحاً قوياً .. سواء قدري أو غيره .. المهم أن يكون شخصية ذات نفوذ.

قال شوقي :

- ولكي تأخذوا النقابة منهم تتحالفون مع الشيطان ؟

قال مرتضى :

- الشياطين الحقيقيون هم الشلة التي تلتف حوله وأنت تعرفهم ، فهم من يرسمون له الخطط ويقودونه ، لكنه لو وجد أشخاصاً مخلصين بجانبه بعيداً عن هذه الشلة لتغير حاله ، وكنا نتمنى أن تكون أنت أحد هؤلاء المخلصين. وقد حاول استمالتك إليه فرفضت وهاجمته .

- انت تقلب الحقائق يا مرتضى ، فهو لم يلجأ إلىّ إلا ليجعلني وسيلة لغسيل سمعته التي لطخها مختار العطار في روز اليوسف . يعني كان المقصود ان أكون مجرد منديل كيلنكس يستخدمني لمرة واحدة ثم يلقى بي في الزبالة !
- ولكننا بحاجة إلى رجل قوي وصاحب نفوذ في الدولة مثله كما قال الألفي.

سارع الألفي للاعتراض :

- أنا لم أقل أنني اختاره تحديداً ، بل قلت أن يكون شخصاً صاحب نفوذ فقط .
- وما الفرق ؟ .. فهو بالفعل صاحب نفوذ قوي يستمده من صلة قديمة برئيس الدولة ، وكلنا نعرف قصته معه ، لذلك فهو قادر على تحقيق كل مطالبنا من الدولة بوجوده على رأس النقابة .

قال شوقي :

- وما الذي يمنعه من أن يفعل ذلك الآن في هيئة الفنون بسلطات منصبه غير المحدودة ؟
- لأن البلد خارجة من حرب .. والميزانية المخصصة له ضئيلة .. والفن يعتبر من الكماليات حالياً بالنسبة لمطالب إعادة البناء .. لكن في ظل سياسة الانفتاح الاقتصادي الآن بدأت الأمور تتحسن .. والرئيس السادات مهتم بدعم المنظمات الأهلية كالنقابات والأحزاب .. وقدري يعرف جيداً من أين تؤكل الكتف .
- أترى في هذه الصفة ميزة ؟
- المثل يقول : « اللي تغلب به إلعب به » !
- لكن هذا لم يكن رأيك فيه يوم اجتماع المسافرخانة .

ضحك مرتضى في ارتباك :

- موقفي فيما حدث معك لم يتغير .. لكن موضوع النقابة شيء مختلف .. فقدري الآن رئيس هيئة مطلق السلطة والقرار ، لكنه في النقابة سيكون مقيد

السلطة والقرار برأي المجلس والجمعية العمومية . فهو هنا محكوم بلجام يكبح انفراده بالسلطة .

وجد شوقي أن النقاش معهم لن يغير من موقفهم النفعي الواضح ، ولاحظ أن الدكتور عمران – رئيس القسم ومحل تقدير الجميع – ظل صامتاً طوال المناقشة ، فأراد أن يعرف رأيه :

- وأنت ما رأيك يا دكتور عمران ؟

سكت برهة قبل أن يقول :

- أتذْكُر يا شوقي حين جئتني هنا تطلب رأيي في ملخص بحثك كمشروع ماجستير واقترحتَ أن أكون المشرف على رسالتك ؟
- نعم .
- هل تذكر ما قلته لك يومها ؟
- أنا في الحقيقة اعتبرته كمجاملة لي منك .
- أبدا أبداً لم أكن أجاملك ، فقد كان مشروعك بالفعل كما قلت لك يومها ، أكبر من مشروع ماجستير ، ونصحتك في أن تطوره فوراً ككتاب نقدي ..
- حصل يا دكتور واقتنعت برأيك فعلاً وأصدرته في كتاب ولك الفضل في ذلك.
- تلك كانت رسالتي إليك .. لكنك عملت بها في هذا الكتاب وحده .. وبعد ذلك أخذت تبدد طاقتك الهائلة كفنان وناقد في أمور السياسة وصراعات المثقفين ، رغم أنني قلت لك في ذلك اليوم أنه لن يبقى منك في النهاية غير لوحتك وكلمتك فركِّز عليهما فقط ..
- وإذن ؟ .. هل ترى تناقضاً بين ذلك وبين ما نحن بصدده الآن ؟
- أنا ما زلت عند رأيي القديم .. فلو ركزت طاقتك في الفن والنقد لكان لك بدل الكتاب عدة كتب .. وبدل المعرض عدة معارض .. وذلك أهم لك ولنا من كل المعارك التي تخوضها .. وهي صراعات يغذيها موظفون بلا مواهب حقيقية .. وسيذهبون دون ان يتركوا وراءهم بصمة .. فحرام أن تذهب مثلهم رغم كل ما تستطيع إضافته من بصمات .. هذا رأيي .

سارعوا جميعاً بتأييد رأي الدكتور عمران . وقد وجدوا فيه مخرجاً من مطبّ وقعوا فيه، لكن شوقي أخرج البيان المعد للتوقيع وأحاطهم بالغرض منه وبأسماء كبار الكتاب الموقعين عليه وسألهم :

- هل أطمع في توقيعاتكم ؟

لم يتقدم منهم أحد للتوقيع ، ورفع أحمد خليل نظارته السميكة إلى أعلى وقال :

- إن هذه المسائل لا تحل بالبيانات ، بل بالمفاوضات وجلسات التفاهم .. وأنت تقول أن الأمر وصل إلى المحاكم .. وطريقها يتطلب سنين .. ولو وقعنا لك سنقضي على أي فرصة للقيام بدور الوساطة بينكما .. فهل تسمح بأن نقوم بهذا الدور كاقتراح منا وليس منك ؟

نهض من مجلسهم وشكرهم بدون أن يصافحهم وقد خيم عليهم صمت ثقيل .. وقبل أن يصل إلى السلم المؤدي إلى فناء الكلية سمع من يناديه .. التفت فوجد بسيوني.. المعيد الصامت طوال الجلسة :

- أحب أن أقول لك يا استاذ شوقي أنني متضامن معك ومستعد للتوقيع على البيان وجمع التوقيعات من المعيدين والمدرسين الشباب بالكلية وخارجها .

وقف مندهشاً وسأله بعد تردد :

- لم أسمعك تقول شيئاً بالداخل .
- صدَّقني لم أكن استطيع .. إنهم أساتذتي .. وهناك اعتبارات اخرى .
- مفهوم .. عموماً أنا أقدر مشاعرك .. لكني لا أود ان أسبب لك أية مشاكل.
- لا مشاكل إن شاء الله .. سأحاول مع الشباب فهم أكثر جرأة وليس عندهم حسابات كثيرة يخافون عليها .

سلمه شوقي عدة نسخ من البيان، مع صورة من توقيعات كبار الكتاب على نسخة أخرى ، وسأله إن كان لديه أصدقاء بكلية التربية الفنية للاستعانة بهم ، وذكر له اسم المعيد محمود عبدالعاطي هناك للتعاون معه .. وتبادلا أرقام التليفونات المنزلية للتواصل ، ثم شكره بقوة وانصرف من الكلية غير آسف .

(٤٥)

انتهى من إعداد الشاسيهات الثلاثة وتجهيزها للرسم ، بعد أن قام بتحضيرها بالأمس ببطانات متباينة الألوان ، وبملامس بارزة بالسكين على أسطحها بشكل عشوائي ، فأضفَت عليها حالة من التوتر الملمسي والتباين اللوني ، بما يسمح بترك بعض الأماكن أثناء الرسم وكأنها تشف عن ثورة باطنية من تحت الخطوط والمساحات . كان وجود الاسكتشات الأولية بالحبر الأسود المحتشدة بقوة التعبير عاملاً مساعداً على اختصار الزمن لإنجاز اللوحات الثلاث دفعة واحدة وليس لوحة بعد أخرى ، وكذلك على خلق وحدة هارمونية بينها ، وقرر الاعتكاف بالشقة عدة أيام حتى ينتهي منها معاً في أقرب وقت ، لهذا اشترى ما يكفي من مؤن غذائية للأيام التالية ، وانطلق يعمل محتشداً بأضعاف طاقته المعتادة في مرسم المسافرخانة. حتى في الأوقات التي كان يستعد فيها لمعرض جديد .. واكتشف أثناء العمل بُعداً درامياً جديداً لم يجربه من قبل ؛ وهو الحركة من خلال بطانات السطح الجياشة بالانفعال ، حيث تُحدث جدلاً بين العناصر التشخيصية والمساحات التجريدية المنبثقة ، فبدت كدوامات لونية أو كتمزقات ملمسية توحي بالتوتر وتجعل من الفراغات البينية أشكالاً معادلة للعناصر المجسمة للمشخصات ومتداخلة معها ، سواء كانت إنساناً أو حصاناً أو طائراً أو سوراً ، وهكذا فإن تحديه للظروف غير المناسبة للرسم في الشقة منحه قدراً من التفوق على الأسباب التي اضطرته إلى ذلك، فجعل من الضيق انتصاراً على المشكلة ، ووسط حالة الاندماج تلك ، كانت تطل من حين لآخر صورة فريدة وهي تبدو راضية ومشجعة ، وبقدر ما كانت تمنحه إياه من طاقة إيجابية ، فإن « أحلام » كانت تطل بين الحين والآخر بطاقة سلبية تفصله عن الإندماج وما يصاحبها من متعة ، حيث تتمثل أمامه وهي تضحك شامتة بلذة الانتقام ، وفي أحيان أخرى تتمثل أمامه بمرسمه تحصي باستمتاع أشلاءه وحطام لوحاته في كشوف أرادت أن تحتفظ بها . لتذكرها كلما اطلعت عليها بالانتصار عليه .

انتهى إلى ضرورة أن يحرمها من هذه المتعة ، باسترداد بقايا المرسم ، لكنه وقف عاجزاً أمام معضلة توفير المكان لحفظها ، بعد أن سلب منه خطاب نادية الأمل في فتح الغرفة المغلقة التي كان ينوي استغلالها لحل هذه المعضلة . و يأخذه وصوله إلى هذه النقطة إلى ضرورة تنفيذ الاتفاق الذي تم مع والده ببيع قطعة صغيرة من الأرض وخصمها من نصيبه في الميراث .. لكنه يجابَه بعائق آخر أمام هذا الحل في حالة اقتناع الوالد به والشروع في تنفيذه وهو : هل من السهل العثور على مشترٍ لهذه القطعة الصغيرة التي لا تفيد إلا جاراً ملاصقاً لها يكمل بها أرضه؟ وإذا وُجد فهل يكون جاهزاً بالمال ؟ .. إن فرص البيع والشراء للأرض أصبحت ترتبط بعودة العاملين بدول الخليج من أبناء البلدة في الأجازة الصيفية ، وهو يذكر أن جارهم في الأرض يعمل مدرساً في دولة خليجية .. وهكذا فإن عليه في كل الأحوال الانتظار لحلول الصيف اللهم إلا إذا حدثت معجزة .. فما جدوى المال إذا جاء متأخراً عن الوقت الذي تحتاجه فيه ؟ .. وماذا سيفعل إذا تعذر وصوله الآن لحل مشاكله المؤجلة .. بين مصاريف القضايا وتكاليف المعيشة لثمانية أشهر وإقامة المعرض الذي انتقل إلى مرتبة الضرورة ؟

عندما كانت تداهمه تلك الخواطر في الأيام الماضية كان يضع كل همه في تجهيز اللوحات ، وأغلبها كان يتم بحركة شبه آلية لا تحتاج إلى تركيز كامل ، فيما عدا المرحلة الأخيرة التي كان يحضَّر فيها أسطح اللوحات بالألوان والملامس الخشنة بسكين المعجون ، وحتى هذه المرحلة فإنها كانت تتم بدرجة من العنف ساعدت على امتصاص شحنة الغضب ، ولكنها لا تنصرف إلا باستحضار وجه فريده الذي يطيّب خاطره ويدعوه للصبر قائلاً : إن الفرج قريب بإذن الله .

رن جرس التليفون . كان المتحدث هو بسيوني المعيد بكلية الفنون الجميلة ..

- أهلا يا بسيوني .. ماذا عندك من أخبار ؟
- لقد أكملت التوقيعات على ثلاثة كشوف .. أين آتيك بها ؟
- ما أروعك ! .. من أين حصلت عليها ؟

- لن تصدِّق .. أغلبها من كلية التربية الفنية .. ومحمود عبدالعاطي في الحقيقة جمع وحده توقيعات كشفين من الثلاثة ، وأنا وزملائي جئنا بتوقيعات من كلية الفنون التطبيقية والقليل من الفنون الجميلة .
- معنى ذلك أنه حتى شباب الفنون الجميلة لا يبالون بما حدث لي ؟
- المسألة ليست كذلك .. كل ما هناك أن الأساتذة يحشدون الشباب لفوز د. قدري في النقابة بحجة أنه إبن الكلية .
- يعني شباب الكليتين الأُخريين متعاطفون معي ؟
- لا .. بل كل ما يعنيهم هو إسقاط د. قدري لأنه منافس لمرشح كلياتهم .
- وكم عدد التوقيعات ؟
- حوالي سبعون تقريباً .
- هذا شيء رائع .. اشكرك من كل قلبي .. وغداً نلتقي في السابعة مساء بالأتيليه .. إذا كان ذلك يناسبك .
- لا مانع .. وهناك أمر آخر أود أن أخذ رأيك فيه غداً .. فقد تم فتح باب التقدم للاشتراك في معرض الخريف الذي سيقام بعد أسابيع .. أريد أن أريك نموذجاً من لوحاتي التي أفكر في الاشتراك بها .. وأتمنى أن تشترك فيه أنت أيضاً .. أنا أرى ذلك شيئاً مهماً جداً بالنسبة لقضيتك .. فوجودك بالمعرض فرصة لإثارتها وسط حشد كبير من الفنانين .. ألديك أعمال جاهزة ؟

شعر بحماس شديد لهذا الاقتراح ، بل كان يتمنى مثله فجاء في الوقت المناسب بعد أن أوشك على الانتهاء من اللوحات الثلاث .. لكن هناك مشكلة قد تواجهه رأي أن يصارحه بها فقال :

- وهل تظن أنه سيسمح لي بالاشتراك في ظل هذه الظروف ؟
- من هذه الناحية لا تقلق ، لأن الجهة المنظمة للمعرض ليست هيئة الفنون . بل هي جمعية خريجي الفنون الجميلة .
- عموماً سنتكلم غداً في التفاصيل .. وأكرر شكري لك ولكل الزملاء .

لكنه لم يصبر في انتظار الغد ، كان الخبر مثل طاقة نور انفتحت له وسط الظلمة، ليس خبر التوقيعات السبعين التي جمعها رغم أهميته ، إنما هو خبر معرض الخريف .. إنه فرصة هبطت من السماء وكأنها جاءت من أجله وحده .. ونظر إلى اللوحات وهي في انتظار اللمسات الأخيرة والإطارات اللازمة .. ظل يتأملها بشغف وكأنه يرها بعيون جديدة : في الأولى تتسيَّد الفراغ نسور جارحة تنقض على شاب عاري الصدر يعقد يديه خلف رأسه مهوَّش الشعر ، يتحدى بعينيه المفتوحتين عن آخرهما بنظرة ثابته تلك النسور المنقضة بمناقيرها المعقوفة كخطاطيف حديدية ، وبأجنحتها التي تبدو كأجنحة طائرات مُغيرة . ونفس الشاب في اللوحة الثانية بوضع جانبي للرأس وبوضع المواجهة للصدر كرسوم الجداريات المصرية ، وهو يواجه رأس حصان يشبه التنين وهو يمتطيه ويقبض بقوة على خصلة من عُرفه غزير الشعر محاولاً ترويضه ، ورأس الحصان بلون أخضر ، وخطمه مفتوح يصهل ، فيكشر عن أسنان كبيرة كالأنياب المفترسة . وفي الثالثة تكوين لطفل عارٍ يتشقلب واقفاً على يديه وقدماه في الهواء، قابضاً بفمه على سكين التقطها بأسنانه من فوق حجر أحمر يعطي الإحساس بملمس الحجر ، ويُرى الطفل من منظورين بصريين متناقضين في وقت واحد ؛ فالجسم في وضع مقلوب . والوجه في وضع طبيعي يواجه المشاهد والسكين في فمه بعينين جاحظتين تملأهما نظرة اتهام لحلقة المتفرجين الملتفة حوله، ونَرى الأشخاص – من منظور عين الطائر – كتلة غائمة متماوجة بغير تفاصيل موحية باللامبالاة .. تراءت له اللوحات كثلاث حركات موسيقية في سيمفونية واحدة، تجمع بينها إيقاعات وألوان مشتركة .

هكذا استمد من إقامة المعرض في وقت قريب دافعاً إضافياً للانتهاء من اللوحات في أسرع وقت ، لم يبق إلا البحث عن في حل لوضع براويز مناسبة لها ، لكنه لم يشأ أن يفسد هذه اللحظة السعيدة بالتفكير في البحث عن هذا الحل .

(٤٦)

أسرع للقاء الأستاذ الهلالي حاملاً الكشوف الأربعة وظهورها مليئة بالتوقيعات، ليزف إليه الخبر السار بوجود أسماء نجوم الأهرام على رأسها ، فإذا به يعاجله بخبر غير سار وهو يفتح مجلة الأسبوع المصور على تحقيق صحفي تحت عنوان ضخم يمتد على صفحتين « المسافرخانة .. من مجد التاريخ إلى وكر للتخريب! » ومزوَّد بصورة لمبنى القصر ولرئيس الهيئة ومرسي الحسيني ومصطفى مسعود ، كرد على المقالين المنشورين بمجلة روز اليوسف ، لكن بدون إشارة إليهما، وتلى العنوان الأكبر عناوين ببنط أصغر موزعة بين الصفحات :

- « حريق دار الأوبرا ومظاهرات الطلبة تم التخطيط لها بداخل القصر » .
- « مدير القصر يعقد اجتماعات سرية بمرسمه تهدد أمن الدولة » .
- « رئيس هيئة الفنون : هدفنا تطهير المسافرخانة ورد الاعتبار للفنانين الشرفاء» .
- « مدير المعارض : سنفتح المسافرخانة للمعارض لنواجه الارهاب بالجمال ».
- « المدير الجديد : الفنانون يد واحدة مع الهيئة .. والدولة توفر الظروف للإبداع » .

جلس شوقي محاولاً استمرار القراءة ، والسطور تتراقص أمام عينيه ، حتى استطاع أخيراً الإمساك بطرف الجملة التالية لديباجة الموضوع .. راح يقرأ :

« .... وكان المشرف على القصر معروفاً بتاريخه العقائدي كشيوعي على جميع المستويات ، وتحول قصر المسافرخانة إلى خلية شيوعية تجري فيها التجمعات واللقاءات وتدبر المخططات ، ليس بهدف ضرب الحركة الفنية الجادة فقط ، ولكن بهدف التخطيط لكل التحركات المخربة على مستوى الدولة ، وفي القصر الهادئ عُقدت لقاءات مريبة قبل وأثناء مظاهرات طلبة الجامعة في سنوات القلق قبل انتصار حرب اكتوبر المجيدة ٧٣ ، وتم التخطيط لمواجهة الحرائق التي حولت أحد معالم حركتنا الفنية إلى أنقاض وهي دار الأوبرا ، وأحرقت معالم فنية وأثرية هامة ، منها قصر الجوهرة ومسرح البالون ومسرح المسافر ، وعُقدت اجتماعات مريبة قبل

إضراب عمال هيئة النقل العام ، وأصبح قصر المسافرخانة يضيق بمن يحيكون المؤامرات في الظلام » .

ظل صامتاً ينظر إلى الأستاذ الهلالي في إحباط ، كأنه يستنجد به ، ثم قال ساخراً :

- إن السجن المؤبد ليس كافياً لمن شارك في ارتكاب هذه الجرائم ، لأن خلاصتها هي جريمة الخيانة الوطنية ، أما العقوبة التي يستحقها من خطط لارتكابها فهي الإعدام !

قال الأستاذ وهو واقف كما اعتاد عند الحديث عن الأمور الخطيرة ، ربما بالتعود على المرافعات أمام المحاكم :

- ولا يهمك ! .. الآن نضيف قضية ثالثة .. وأعدك بأننا سنكسبها من أول جلسه .. لقد انتهينا من كتابة العريضتين لكل من قضيتي النقل التعسفي والاعتداء على المرسم واللوحات ، وسنبدأ في الثالثة لطلب التعويض ضد المجلة ومحررها .
- ألا ترى أنه من الضروري الآن الرد في المجلة نفسها ؟
- طبعاً .. لابد أن ترسل الرد فوراً .. وبالمناسبة .. أنا واثق من أنهم لن ينشروه .. وهذا أفضل لكسب القضية .
- كيف ؟
- لأن ذلك سيكون أحد أركان ثبوت الاتهام والحق في التعويض .
- الأهم من التعويض بالنسبة لي هو رد الاعتبار إليَّ بكشف الأكاذيب وإعلان الحقيقة .. اليوم قبل الغد .
- هذا ما سنفعله بمختلف الوسائل .. لابد من نشر البيان بالتوقيعات في الصحافة بأي طريقة .. وأظن أن روز اليوسف لن تمانع .. وأيضاً « صباح الخير» .. حاول كذلك الاستفادة من الحملات الانتخابية القادمة بنقابة الفنانين ونقابة الكُتَّاب . وأظن أن الانتخابات فيهما ستجري قريباً .
- ومن سيكتب الرد على المجلة ؟
- ومن غيرك ؟ .. ولابد أن تعتبر نفسك خط الدفاع الأول في قضيتك .

- العفو يا أستاذي .. أنا أتعلم منك .
- لأنك أدرى مني بموضوعك .. أكتب وبعدها نقرأ ونناقش .
- هل يصل بهم الجنون أن يحملوني مسئولية حرق مصر كلها ؟
- صدقني .. إن ذلك لا ينم إلا عن ضعف .. إن ما فعلته بهم كشف عوراتهم أمام الجميع فأصبحوا مفضوحين .. ولم ينفعهم الطغيان والبلطجة لإخراسك .. ومن قبل ذلك لم تنفعهم محاولات شرائك .. فوجدوا أن الحل هو الإبلاغ ضدك لأمن الدولة للخلاص منك بالسجن ، وهي وسيلة للاحتماء من العاصفة التي أطلقتها عليهم فباتت تهدد بالإطاحة بهم .. هذا دائماً شأن الطغاة !
- ألسنا ضعفاء أيضاً يا أستاذ ؟
- بمعنى ؟
- إننا لا نملك شيئاً إلا القانون .. والصبر .. وهم معهم كل شيء .. السُلطة والنفوذ والمال الذي يشترون به حتى النفوس !
- نسيت أننا نملك أهم شيء يفتقرون إليه : وهو العقيدة .. بأنا أصحاب الإرادة لانتزاعه منهم .. بالقانون والصبر كما قلت أنت .. وأضف إليهما سلطة الرأي العام .. وهو ما تبنيه الآن طوبة طوبة .
- كثيراً ما أتعرض في ذلك للخذلان حتى ممن أدافع عن قضيتهم .

وحكى له شذرات مما دار في كلية الفنون الجميلة .

رفع الأستاذ بيده كشوف التوقيعات التي سلمها له قائلاً :

- وهذه .. ألا تزيح إحساسك بالخذلان ؟ .. أليست تعبيراً عن إرادات قوى الحق؟ .. هيا إلى البيت فوراً لتكتب الرد .. إشتر نسخة من المجلة وأجلس لتكتب بإيجار ردا على المنشور نقطة نقطة .. إبعد عن العبارات الإنشائية والبلاغية وسجل الحقائق فقط .. وأنا في انتظارك.

تأهب للانصراف . ولكنه ظل صامتاً مترددا في كيفية نطق ما يريد قوله ، وأخيراً حسم تردده قائلاً :

- ألا يمكن تقصير مدة التقاضي ولو في قضية النقل التعسفي ؟
- ليس الأمر بيدنا .. القضية تأخذ دورها في الرول .
- كنت أقصد أن نجعلها قضية مستعجلة .
- وما وجه الاستعجال ؟ .. هذا ما تبني عليه المحكمة قرارها بقبول الطلب أو رفضه .
- الحقيقة .. وكما ذكرت لك بعد مقابلتي للأستاذ سعد الدين وهبة .. أنني لن أتقاضى مرتباً طوال ثمانية أشهر من أول الشهر القادم .. وأخشى أنني لن أجد ما أنفق منه طوال هذه الفترة .
- أغلب الظن أن المحكمة لن تقتنع .. لأن بإمكانك استلام العمل بإدارة التنظيم والحصول على مرتبك .. (وصمت وهو ينقر على زجاج المكتب وسرح لفترة ثم قال) على العموم دعني أبحث عن تكييف قانوني للمسألة .. وهذا سيستدعي تغيير عريضة الدعوى التي كتبناها لو وُفّقنا إلى مخرج قانوني.
- ليتك تستطيع يا أستاذي .. فقد حاولت كثيراً إيجاد حل ولم أوفق .. أنا آسف!

ربَّت الأستاذ على كتفه بأبوَّة وهو يقول : ربنا يسهل .

في طريق العودة إلى البيت نزل في محطة ميدان رمسيس واشترى نسخة من مجلة الأسبوع المصور ، ثم عرَّج على مقر جمعية خريجي الفنون الجميلة القريب من الميدان ، ركب المصعد إلى الدور الثالث عشر ، ووقع على استمارة الاشتراك في معرض الخريف كما أتفق مع بسيوني عندما حضر إلى الأتيليه لتسليمه كشوف التوقيعات قبل أن يذهب بها إلى الأستاذ الهلالي ، واصطحبه ليفرِّجه على لوحته المعروضة بصالون الأتيليه وتناقش معه حولها . وشجعه على الاشتراك بمعرض الخريف بلوحة أو اثنتين بنفس الأسلوب الذي يبدو فيه قريباً من عالم عبدالهادي الجزار بحس بدائي يجمع بين السريالية والوجدان الشعبي ، وأخبره أنها من اللوحات القليلة التي شدت انتباهه عندما زار المعرض أول مرة ، لكنه لم يركز على الاسم آنذاك ، ولفت نظره إلى بعض الملاحظات في التقنية حتى يتجنب تكرارها في لوحته

بمعرض الخريف ، وأخبره بأنه سيأخذ بنصيحته ويشترك هو أيضا في معرض الخريف بأعمال جديدة .

واستقل المترو الأزرق من محطة كوبري الليمون بميدان رمسيس إلى محطة روكسي ، وأكمل الطريق إلى منزله سائراً على قدميه .

(٤٧)

جلس أمام المكتب قبل أن يغير ملابسه أو يتناول عشاءه الذي أحضره في طريقه إلى المنزل ، وأخذ يعيد قراءة التحقيق الصحفي بمجلة الأسبوع المصور بتركيز شديد ، ويسجل ملاحظاته على أوراقه بالقلم الرصاص ، ثم يمسح ويغير ويضيف ويحذف ، ونسي الوقت وهو يقرأ ويكتب ويملأ الصفحات ، حتى قرصه الجوع وقد تجاوز الليل منتصفه . قام وخلع ملابسه وارتدى البيجامة ، وتناول عشاءه المعتاد ، وعندما حاول العودة إلى المكتب ليكمل كتابة الرد شعر بثقل رأسه وبالرغبة في النوم ، حيث لم ينل كفايته منه ليلة أمس بسبب اندماجه في الرسم إلى ساعة متأخرة ، فقام إلى سريره وهو يقول :

- النهار له عينان .. والدنيا لن تطير حتى الصباح ..

وبينما هو مغمض العيني بين اليقظة والنوم تذكر أن لديه موعدا شديد الأهمية بالمسافرخانة .. كان ميدان الحسين كتلا متلاحمة ومتماوجة من البشر كموجات بحر في يوم عاصف . تذكر أن « الليلة الكبيرة » لمولد الحسين تحل يوم غد. الخيام منصوبة لإقامة المريدين القادمين من شتى أنحاء البلاد ، بنسائهم وأطفالهم ومعيزهم وخرفانهم التي سيذبحونها وفاءً لنُذورهم في الغد ، وأمام الخيام حلل الفول النابت وقطع اللحم من أضحيات النذور ، وحلقات الذكر تتطوح فيها أجساد الرجال في هستيريا حتى ترتمي على الأرض دائخة أو فاقدة الوعي ، وانسد أمامه الشارع الرئيسي نحو المسافرخانة (بمرجيحه) هائلة الحجم مزينة بالزخارف ، يركب في أحد قاربيها صبي بجلباب ريفي مقلَّم يتشبث بالعمودين الحديديين ويندفع به

طائراً إلى السماء بشكل عمودي وكأنه لن يعود إلى الأرض ، لكنه يطير في وضع معكوس ؛ فقدماه إلى السماء المظلمة ورأسه إلى الأرض ، حتى يتقابل مع القارب الثاني للمرجيحة عند الذروة المظلمة في جوف السماء الصماء ، ثم يتبادلان المواقع بنزول الفتى الأول إلى الأرض في نفس اللحظة التي يصعد فيها الثاني ، عبر حركة بندولية تثير الدهشة والرعب خشية سقوط أحدهما أو انطلاقه نحو السماء والغياب في أعماقها المخيفة بلا عودة . يحاول شوقي المروق من كتل البشر المتضاغطة في اتجاه درب الغلام خلف جامع الحسين للنفاذ منه إلى شارع قصر الشوق ليصل إلى حارة الطبلاوي ، فيجد الدرب مكدساً بكَمّ أكبر من البشر ، وقد تراصت بجوار الحائط منصات متلاصقة ملأى بتلال الحمص والحلوى يجلس فوقها الباعة وقد التمعت وجوههم السمراء تحت أضواء « الكلوبَّات » التي تعمل بالجاز وهي معلقة في صفوف متراصَّة أو قائمة فوق المنصَّات بعمود معدني ذي فرعين لكل منها ، فتجعل الليل نهاراً متوهجاً بشموس يصعب النظر إليها لفرط توهجها . يحاول الخروج إلى الساحة الخلفية للجامع فيجدها ممتلئة بعربات اليد الصغيرة لبيع الترمس والبطاطا والفشار ومشروبات الخروب والتمر هندي والسوبيا المثلجة ، وهي مزدانة بزخارف شعبية ملونة ذات وحدات هندسية ورسوم لأصص الورد بأغصان تعلوها العصافير ، وغير بعيد كان ينتصب مدفع محمل بأثقال حديدية على شكل اسطوانات في صفوف متصاعدة حسب قدرة كل لاعب على الدفع بأقصى قوته فوق القضبان ليصل إلى المصدّ في نهايته فيحدث فرقعة عند اصطدامه بكرات البمب المثبتة في مقدمته ، وبالقرب منه خيمة المداحين والمغنين الشعبيين وأمامهم الكراسي مكتظة بالزبائن من مختلف الطبقات والأزياء ، ومن بعده خيمة السيرك الكبيرة وعلى واجهتها رسوم ضخمة للراقصات ولفتاة شُقت إلى نصفين ، وأخرى واقفة بالمايوه وسط دائرة من السكاكين المرشوقة في الحائط حول رأسها دون أن يصيبها اللاعب وهو يسددها إلى نحرها .

يعاود شوقي البحث عن طريق آخر إلى المسافرخانة من ناحية شارع المعز، وينجح بصعوبة شديدة في النفاذ منه إلى ميدان بيت القاضي ، فيعترض طريقة موكب لأصحاب الطرق الصوفية ، حاملين البيارق واللافتات ، ويمتطي الفرسان

خيولهم بأزياء غريبة من العباءات والحرملات بحمالاتها الخضراء المتقاطعة عند الصدر ثم تمتد إلى الكتفين فوق جلاليب بيضاء ، وعلى الرؤوس عمائم سوداء أو خضراء أو بيضاء، حسب الطريقة الصوفية التي يمثلها . وهم يرفعون السيوف بيد والأعلام بالأخرى ، والخيل من تحتهم مطهمة ومكسوة بكسوات مزركشة ومذيلة بشراشيب جلدية ومدليات ذات أجراس ، فيما تدق الطبول بدوي يرهب القلوب ، وسط صرخات المجاذيب والدراويش قائلين : « حَيّ حَيّ! » .. ثم يحاولون أن يفسحوا مكاناً لمجذوب يرقص رقصة التنورة مائلاً برأسه المرفوعة إلى السماء على أحد كتفيه .. دائرا حول نفسه مغمض العينين ، تنتفش تنورته الواسعة المربوطة عند وسطه بحزام عريض أخضر ، ويعبئ الهواء التنورة مع الحركة العنيفة حتى تنتفخ كالمنطاد فيفك رباطها ويلقيها لتظهر تحتها أخرى بلون مختلف ويزيد من سرعة الدوران وهكذا يبدل واحدة تلو أخرى وهو يدور بدون أن يفقد اتزانه وتبدو تنّورته كدوامة عاصفة بألوان قوس قزح ..

يجتاز بوابة بيت القاضي ذات العقدين المتقاطعين ، وهناك يتقابل مع وفود من السائحين بأزياء تمثل كل الجنسيات من أنحاء العالم شرقاً وغرباً، والكل يسأل بمختلف اللغات عن الطريق إلى المسافرخانة ، فيقول لهم بلغة لا يتذكر ما هي : اتبعوني فأنا ذاهب إلى هناك . وفي الوسعاية عند مدخل حارة الطبلاوي قبل مقام سيدي مرزوق رأي حلقة زار عند ذروة اشتعالها بقيادة « الكودْية » ، والنسوة تنتفض وتتمايل وتتساقط في غيبوبة وسط ضربات الدفوف الهستيرية ، وتظهر وسطهن عرائس حامد ندا الفرعونية تتمايلن في سلطنة الرقص ، أو تطرن هائمات بغير أجنحه .. تلفَّت بحثاً عن وفود القادمين من بلاد الله لخلق الله .. فوجد أغلبهم قد سبقوه إلى المسافرخانة .. مرّ إلى جواره عجوز ذو مهابة بلحيته البيضاء الطويلة سائراً ببطء شديد مُتكأّ على عصاه ، ومع ذلك لاحظ أنه يسير بنفس سرعة الهرولة التي يسير بها الآخرون دون أن يبدو عليه أي إجهاد .. دهش شوقي .. كيف يتأتى له ذلك ! وقال له :

– أأنت ذاهب أيضاً إلى المسافرخانة يا جدِّي ؟

- نعم .
- هل لديك موعد هناك ؟
- أنا لا أعرف أحداً هناك .
- ولماذا أنت ذاهب إذن ؟
- يابني .. نحن على سفر دائم نعبر من محطة إلى أخرى .
- وإلى متى تبقى في المسافرخانة ؟
- هي استراحة قصيرة ثم نستأنف السفر إلى المحطة التالية ، نبحث هناك عن مسافرخانة أخرى .
- ومتى تصلون إلى المحطة الأخيرة ؟
- نحن لا نسأل هذا السؤال .. لأنه لا يوجد من يعرف المحطة الأخيرة !

عندما بلغا بوابة القصر سُمح للرجل العجوز بالدخول هو ومن بقى معه من القادمين، وحاول شوقي الدخول في إثرهم ففوجئ بفحول ذوي عضلات مفتولة وشماريخ طويلة يعترضون طريقه وكبيرهم يقول له : لا يمكنك الدخول . ولما سأله عن السبب رد قائلاً : كل الأماكن محجوزة . صاح غاضباً : أنا عندي موعد بالداخل .. أفسحوا الطريق . قهقهوا ساخرين ، وظل هو يصرخ حتى وجد نفسه ينتفض جالساً في فراشه وقد تصبب عرقاً !

(٤٨)

استيقظ في الصباح على رنين جرس التليفون الذي امتد بلا انقطاع ، بما يعني أن المكالمة « ترنك » من خارج القاهرة . أسرع للرد في قلق وخوف ، فليس من المعتاد أن يتلقى مكالمة من خارج القاهرة في مثل هذا الوقت ، وخشى أن تحمل إليه خبراً غير سار ، فإذا بصوت والده يقول :

- أنت لسَّة نايم يا أستاذ ؟ .. صح النوم بقينا الضحى !
- صباح الخير يا بابا .. إزيك وازي نينه واخواتي ؟
- كلنا بخير والحمدلله .. وأنت ازي أحوالك ؟ .. مفيش أخبار جديدة ؟

- لسَّه .. المحامي حيرفع القضايا بعد ما نجهز كل المستندات وندفع الرسوم .. وأنا مستني حضرتك تقولي عملت إيه في موضوع الأرض زي ما وعدتني .
- شوف يا سيدي .. الحل بتاعك مع الأسف مش حينفع .. لأن المستأجر للأرض مش حيسلمها إلا بعد ما يجمع محصول الزرعة .. وده من حقه .. يعني احنا مش حنقدر نبيعها قبل أول الصيف .. نبقى ما عملناش حاجة.
- طيب والحل ؟
- مفيش غير أني أديلك ثمن جهاز أختك زي ما قالت والدتك ..
- لا يا حاج دا ما يخلصنيش .. حرام نكسر بخاطر فايزة .
- طيب في إيدينا إيه تاني نعمله ؟
- إذا كان ولابد .. يكون الرأي لها هي مش رأي نينه .. ومن غير أي ضغط عليها .
- يا بني هي مش محتاجة ضغط عليها لأنها بتحبك ومالهاش غيرك من بعدنا.. لكن موافقتها مش معناها أنها راضية .. ده فرحها اللي بتحلم به زي أي بنت .. غير إن منظرنا حيكون سيء قدام نسايبنا لو أجلنا الفرح.
- معاك حق .. ودي حاجة مترضينيش .. خلاص نخلي الموضوع على ربنا يحلها بمعرفته.

قال الأب بشعور بالقهر :

- والله يا بني مانا عارف أقولك إيه.
- ما تقولش حاجة ولا تحمل هم .. إن شاء الله حتفرج .

أراد أن ينهي المكالمة بأي شكل إشفاقاً على والده من هذا الشعور بالعجز ، إلى جانب أن استمرار الحديث أصبح عذاباً له أيضاً ، فحمّله السلام لأمه وأختيه . ولم يملك الأب غير الدعاء له بأن يزيح عنه الغمة .. ثم ودّعه بصوت مخنوق .

جلس ليكمل كتابة الرد على المجلة ، لكن خواطره تزاحمت وتبعثرت ، وسيطر عليه هاجس وحيد : أن العجز بات أقوى من إرادة التحدي .. لقد حسب ما تحتاجه رسوم القضايا والأتعاب فوجدها لا تقل عن خمسمائة جنيه .. أما براويز

اللوحات وكتالوج المعرض ونفقات الحياة الضرورية طوال الشهور الثمانية القادمة فتصيبه بالهلع .

زوَّده إحساسه ذاك بشحنة إضافية من الغضب ، لكنه قرر أن يحيلها إلى شحنة للتحدي . قال : فلأجلس فوراً إلى مكتبي لأستأنف الكتابة ، فأنا لا أكتب فقط من أجل إنقاذ الوظيفة والمرتب والمرسم واللوحات ، بل من أجل النجاة من دخول السجن ، فما تضمنه مقال المجلة ليس إلا تسليم مباشر لي إلى السجن ، وأتوقع طرقات البوليس على باب الشقة في أي لحظة وتفتيشها قبل اقتيادي إلى ليمان طره!

فجأة قفزت إلى ذهنه أوراق محمد جاد .. « ستكون هي الهدية المشتهاة لهم لو وقعت في أيديهم » .. انتفض كالملسوع فأخرجها من درج المكتب وذهنه يشتعل بحثاً عن مخبأ لها .. فكر في غرفة النوم ، ثم استبعدها على الفور ، فهي –عادة– ثالث هدف يتجهون إليه بعد هدفيْ المكتب والمكتبة ، وسوف يقلبون كل شيء فيها رأساً على عقب : دولاب الملابس .. الكومودينو .. تحت السرير .. بل والمرتبة فوقه، وقد يمزقونها ليبحثوا داخل حشوها .. فأين يذهب بخبيئة عمنا محمد جاد الرب ؟ .. هل يحرقها ؟ .. لا .. فلن يغفر لنفسه هذا الفعل طوال العمر .. إنها أمانة استأمنه عليها دوناً عن كل أصدقائه ، وهذا يعني له الكثير جداً .

من حجرة النوم اتجه إلى البلكونة الصغيرة .. لا .. لن تكون البلكونة بمنأى عن توقعاتهم .. استند إلى سورها المطل على الفناء الخلفي للعمارة بأرضه الترابية التي كانت يوماً مشروعاً للزراعة بعد تقسيمها إلى أحواض صغيرة للخضروات ، لكنه عَدَل عن الفكرة ، بل فكر في إمكانية القفز من سور البلكونة إلى الفناء .. انطلق في الحال لتجربتها ، فأتى بكرسي خفيف وحبل طويل ، ربط أحد طرفيه بمسند الكرسي وربط الطرف الآخر بحافة السور ، ثم أنزل الكرسي إلى أرض الفِناء ملاصقاً للجدار ، على مسافة متر ونصف تقريباً من حافة السور ، وقام بتجربة ليرى إمكان تنفيذ الفكرة ، فتسلق حافة السور ونزل بأمان إلى الكرسي في الفناء .. عندئذ عاد إلى الشقة ، فأحضر سكينة المعجون التي يستخدمها في تحضير اللوحات ، وحمل معه الكيس الذي يطوي الأوراق ، وعاد فنزل إلى أرض الفناء ،

واختار مكاناً أسفل الجدار على بعد خطوات من البلكونة ، وحفر بالسكينة ذات الحافة العريضة حفرة تكفي لدفن الكيس على عمق يضمن حمايتها من أية مخاطر ، ثم أهال فوقها التراب وسوَّاها بالأرض ، وعاد إلى البلكونة عن طريق الكرسي ، ثم جذبه بالحبل وأنزله حيثما كان . وقال لنفسه متحدياً ضباط المباحث :

- « إبقوا قابلوني لو وصلتم إلى الخبيئة ! » .

وقبل إن يدخل الشقة لمح في ركن البلكونة عموداً خشبياً قديماً بطول مترين وسُمْك ٦ × ٦ سم . لم يجده قبل ذلك مناسباً لاستخدامه في عمل الشاسيهات . انبثقت في ذهنه الآن فكرة استخدامه لعمل إطارات بسيطة للوحات ، بتقسيمه إلى ست شرائح رفيعة بسمك سنتيمتر واحد في طول مترين للشريحة الواحدة ، بذلك تكفي شريحتان لكل لوحة ، وما عليه إلا التوجه إلى ورشة شق الأخشاب وتقطيع العمود ثم « تنعيم السدايب » بالماكينة ، أما الباقي فأمره سهل وهو تثبيت الشرائح حول اللوحات ، بدلاً من البراويز المذهبة باهظة الثمن ، الذي لا يملكه أساساً !

عاد إلى الصالة حاملاً عمود الخشب ككنز ثمين ، ودخل الحمام فاغتسل . وتذكر أنه لم يتناول إفطاره بعد ، فانتقل إلى المطبخ بخفة العصفور ، فخوراً بأنه سيحمل اللوحات بعد يومين إلى قاعة العرض حسبما تم إبلاغه ، حيث سيكون الافتتاح المرتقب بعد عشرة أيام من الآن .

(٤٩)

قال الأستاذ الهلالي بعد أن قرأ مسودة الرد الذي كتبه شوقي :

- عظيم !

وأرسل في استدعاء عبدالناصر المحامي ، وعندما حضر طلب منه اختصار الكلام للنصف إن أمكن . واستبعاد الكلمات والجمل التي قد تؤخذ على أنها سب وقذف ، مع تركيز المقال على النقاط الواردة على لسان المحرر والمتحدثين في التحقيق الصحفي .

قال عبدالناصر لشوقي أثناء خروجه :

- سأنتظرك بمكتبي حين تنتهي مع الأستاذ .

كان الهلالي يقف مستندا بيديه على زجاج مكتبه كأنه سيترافع :

- شوف يا سيدي .. أظن أنني وجدت تكييفاً للقضية يسمح برفعها مستعجلة .

أحس شوقي بأنه انتشل من بئر سحيق ..

- بشَّرك الله بالخير .. كيف ؟
- بشرط واحد .. أن تأتيني بشهادة من طبيب نفسي تثبت أن القرار تسبب في إصابتك بحالة اضطراب نفسي تمنعك من تنفيذ النقل التعسفي ، وقد تؤدي إلى أزمة اكتئاب مزمنة لو أُجبِرتَ على تنفيذه ، باعتبار أنه يحط من شأنك، كونه (ركنة على الرف) بدون عمل كاحتياطي لمن يحتاجك وأنت الفنان ذو المشاعر المرهفة والمدير لمرفق ثقافي مهم ، بمعنى أن تنفيذ النقل هو عملية قهر نفسي قد تؤدي إلى حالة فصام .
- ومن أين آتي بهذه الشهادة ؟
- لقد دبَّرت الأمر ، وسأعطيك عنوان الدكتور فكري ميخائيل ، وقد شرحت له حالتك ، فاتفق معي على إمكان تعرضك فعلاً لمثل هذه الأزمة نتيجة شعورك بالاضطهاد والقهر . وهو صديق وإنسان شريف ، ولن يكتب شيئاً إلا بعد الكشف عليك فعلياً وليس شكلياً ، حتى يتأكد من احتمال وصول حالتك إلى الدرجة التي تحول دون تنفيذك للنقل .
- هذا ما أعانيه بالفعل يا أستاذي وكأنك دخلت أعماقي .. فلن أنفذ النقل حتى ولو فصلوني .
- لقد جرَّبت شخصياً مثل هذا القهر في المعتقل ، لكن الحديث عن مثل هذه الشهادة وقتها في المعتقل كان يستدعي السخرية ، بل أذكر أن أحد الرفاق مات فعلاً في المعتقل ليس فقط بسبب إحساسه بالقهر وتفاقم مرضه النفسي ، بل بسبب مرض عضوي كان يدعو لنقله إلى المستشفى بشهادة طبيب

السجن نفسه ، الذي أكد رأي الأطباء المعتقلين من رفاقنا ، ولم تتم الاستجابة لطلبهم، وترك حتى توفى هناك ونحن عاجزون من حوله .

- يا لها من قسوة ! .. ومع ذلك سمعت أنكم كنتم تهتفون هناك بحياة الزعيم عبدالناصر حتى وأنتم تحت التعذيب .
- كانت هناك خلافات شديدة بين فصائل المعتقلين والمحكوم عليهم ، لم نكن جميعاً على أرضية فكرية واحدة . المشكلة تكمن في التنظير الحاكم للمواقف على الأرض ، فمن كانوا يهتفون للزعيم وهم يتعرضون للتعذيب كانوا صادقين فعلاً وليسوا منافقين ، حيث كانوا أولا واثقين من أن الرئيس لا يعرف بما يحدث لهم ، وثانياً كانوا يستندون في تحليلهم السياسي إلى أن ما بينهم وبين النظام ليس تناقضاً رئيسياً بل تناقض ثانوي ، بالمقارنة مع التناقض الرئيسي مع الاستعمار والرأسمالية والرجعية ، كما أنهم كانوا مؤيدين للنظام القائم في سعيه لتحقيق العدالة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية ، وفي تَبَنِّيه لقضايا التحرر الوطني للشعوب المناضلة للاستقلال ، فيما كانت فصائل أخرى ترى في الممارسة الدكتاتورية للنظام وغياب الحرية والديمقراطية تناقضاً رئيسياً بينهم وبينه لا يقل على التناقض مع الاستعمار والرأسمالية والرجعية .. لذلك من الخطأ التعميم في الحكم على المواقف .

ثم جلس خلف المكتب وهو يتنهد ، وغيَّر موضوع الحديث .

- عموماً دعنا نَعُد إلى موضوعنا ، فتلك مسائل يطول شرحها .. والآن من الأفضل أن تنزل حالاً لمقابلة الدكتور فكري بعد أن تنتهي مع عبدالناصر في كتابة الرد.

نهض مودعاً ، وفي قرارة تزداد هامة الأستاذ ارتفاعاً ، واتجه إلى مكتب عبدالناصر، الذي بادره بمجرد جلوسه :

- على فكرة الأستاذ شديد الإعجاب بك ، يحبك كثيراً .
- ليس أكثر من إعجابي به وحبي له .. والله يشهد .

- لكننا ندفع ثمن إنسانيته الزائدة يا أستاذ .. دخل المكتب لا يتكافأ مع حجم القضايا التي يتولاها .. لأن الكثير منها يتم بشكل مجاني أو ما يشبه ذلك ، تعاطفاً مع ظروف العمال الفقراء .. مكتبنا له اسم كبير جداً ويمكن أن يحقق أضعاف ما يحققه من إيراد ، ولو كنت أعمل في مكتب آخر لكنت الآن في وضع مختلف تماماً .

استشعر شوقي أنه المقصود بتلميح عبدالناصر على نحو ما ، لكنه لم يكن بوسعه أن يعلق بشيء ، فهو بالفعل ممن ينطبق عليهم كلامه ولا يستطيع أن يدافع عن موقفه مما ضاعف ألمه ، ففضل أن يأخذ الحديث إلى جهة أخرى فقال :

- لكن ألا تكفي الخبرة والأستاذية وكذلك الاحترام الكبير الذي يُنظَر به إليكم وسط المكاتب الأخرى ؟
- أتفق معك بكل تأكيد .. لقد تعلمت الكثير هنا.. وهذا ما يجعلني أواصل العمل في هذا المكتب .

أراد شوقي أن يقول له بأنه ليس مخلصاً لمبادئ الأستاذ ، بل يخلص أساساً لمصلحته الشخصية ، لكنه فضل الاحتفاظ برأيه لنفسه ، فهو الذي سيباشر قضيته الخاصة بالتعويض ، وعليه النظر إلى كلامه كرسالة موجهة إليه ، بغض النظر عن موقف الأستاذ .. سيكون ذلك في اعتباره ولاشك عند الحكم في القضية . انتهى من مراجعة الرد على المجلة معه ، ثم غادره متجهاً إلى الأتيليه ، حيث كان على موعد مع مجموعة من الفنانين الشباب الذين وقَّعوا على البيان وتحمسوا لاستمرار حملة التوقيع بجهات مختلفة مثل معاهد أكاديمية الفنون ، وكان شغوفاً بالتواصل مع الشباب في هذه الجهة بوجه خاص ، لارتباطها بفريدة وإن لم يكونوا يعرفونها كمعيدين وطلبة بمعاهدها الفنية المختلفة ، ومن ثم يسعده أن تكون هي الرباط بينهم وبينه ، وكان يشعر بأنها تطل عليه من عالمها وتتابع ما يقوم به خطوة بخطوة ، فمنحه ذلك قدراً من الطمأنينة والرضا .

كانت حصيلة التوقيعات تتزايد ، ودائرة الاهتمام بالقضية تتسع ، حتى أصبحت موضوعاً يُنفِّس من خلاله كثير من الشباب عن ضيقهم بالأوضاع التي تفرز شخصيات مثل قدري كرموز للفساد في مختلف المواقع الثقافية ، فاتخذ هؤلاء الشباب من شوقي أيقونة يلتفون حولها ويعتبرونه رمزاً للمقاومة والصمود .

تسلم منهم الكشوف الجديدة بالتوقيعات ، ولاحظ في الكشف الذي استلمه من أحد المعيدين بكلية التربية الفنية وجود أسماء بعض الأساتذة المعروفين ، حيَّاه على نجاحه في إقناعهم فقال :

- في الحقيقة لم أبذل مجهوداً في ذلك لأن أغلبهم أصدقاء لك ومتعاطفون معك منذ البداية ، وقد أكدوا لي رفضهم لترشح قدري لمنصب نقيب التشكيليين .

أدرك شوقي أن ذلك هو السبب في توقيعهم ، ليس تضامناً معه بل رغبة في إسقاط قدري في الانتخابات ، لكنه قال لهم إن وقوفهم إلى جانبه بهذا الحماس هو مكسبه الحقيقي من هذه المأساة – إن كانت لها مكاسب– فقد عرَّفته بهم ومنحته الثقة في الشباب والأمل في المستقبل ، بعد أن رأى أسماء ورموزاً كثيرة تتهاوى من أبناء جيله أو الجيل السابق له . واتفق معهم على اللقاء في افتتاح صالون الخريف بعد أيام ، وشملت الجميع حالة من الاستثارة لرؤية رد فعل لوحاتهم وتماثيلهم التي يشاركون بها في المعرض لأول مرة ، كما كانوا في شدة الشغف لرؤية أعمال شوقي الجديدة التي انتجها في ظل ظروفه العصيبة .

(٥٠)

تجمع الفنانون أمام القاعة الكبرى بمبنى الاتحاد الاشتراكي ، في انتظار حضور الوزير د. جلال العليمي لافتتاح المعرض ، لكنهم ظهروا عن قرب كحلقات صغيرة تتجاذب الحديث دون ائتلاف ، واهتم الكثيرون منهم بمتابعة أخبار المسافرخانة، واستطاع الحصول على عدد لا بأس به من التوقيعات على البيان ،

وأغلبهم وقَّع مجاملة دون ان يقرأه ، وعندما جاء الوزير أخيراً وقصَّ الشريط الحريري على باب المعرض تعالى تصفيقهم ، قبل أن يدخلوا متزاحمين . ولمح شوقي رئيس الهيئة قدري إلى جانب الوزير ، فتعكر مزاجه ، مع أنه كان يتوقع مجيئه بالرغم من أن المعرض ليس تحت إشرافه . لكن مزاجه سرعان ما اعتدل عندما رأى لوحاته الثلاث معروضة في أحد الأركان ، ووجد صورة لإحداها منشورة في كتالوج المعرض الضخم ومن تحتها بضعة أسطر عن تاريخه الفني كما قدمها في طلب المشاركة.

كانت كثافة عدد الفنانين ملفتة ، لأن المعرض استهلال لموسم فني جديد ويعد المهرجان الجماعي الأول لهذا الموسم الفني ، وذكَّرته نشوته بهذا العرض ، بأول مرة عرض أعماله بقاعة باب اللوق منذ ثماني سنوات في معرض جماعي قام بافتتاحه د. ثروت عكاشة وزير الثقافة آنذاك قبل شهور من مغادرته المنصب ، يومها أبدى إعجابه بلوحتيه المعروضتين قائلاً :

- كان لابد من تفرغك بالمسافرخانة لتخرج علينا بهذه الاعمال.

وبالرغم من زحام الجمهور يومئذ فقد حرص الوزير على سؤاله عن نشاطه الثقافي بالقصر مثلما كان يفعل أيام الثقافة الجماهيرية.

عندما اقترب موكب الوزير وبجواره قدري انقبض صدره لدرجة أنه فكر في الابتعاد عن الركن الذي تعرض فيه لوحاته حتى يبتعد الموكب ، حيث لم يكن مطمئناً إلى رد فعله حين يواجه قدري أمام الوزير ويرفض مصافحته .. وأخيراً حزم أمره على البقاء ، ليكون اشتراكه في المعرض وتواجده بجوار لوحاته الجديدة بحد ذاته هو التحدي الحقيقي الأبلغ من أي صدام !

وجاء عمر البرعي ومعه بعض العاملين معه حاملين باقة ورد تعلوها بطاقة باسم إدارة الاعلام .. وضعها في الركن شاكراً تحت اللوحات مباشرة ، واعتذر لعمر عن تغيبه خلال الأيام الماضية عن الحضور ، فطمأنه بألا يشغل باله بالحضور فهو « مظبط » كل شيء .. وفجأة وجد الوزير في مواجهته وسط موكبه وعلى رأسه رئيس الهيئة . وفَّر عليه الوزير الموقف الحرج للمصافحة وهو يقرب نظره الضعيف

من الجدار الذي تُعرض عليه لوحاته ليتمكن من قراءة اسمه تحت اللوحات وقد رفع نظارته السميكة فوق حاجبيه مدققاً ثم سأل :

- شوقي نعمان ؟! .. يبدو لي أنني سمعت هذا الاسم يتردد في الفترة الأخيرة.

تقدم شوقي إليه مقدماً نفسه :

- هذا أنا يا افندم .

وقف الوزير وهو يزرّ عينيه تحت إلحاح خاطر ما وقال :

- أهناك شخص غيرك بهذا الاسم ؟ .. يبدو أنني قرأت عنه كشخص مشاغب صانع للمشاكل (قالها بالإنجليزية) لكني نسيت ما هي ..

تراجع قدري خطوتين إلى الخلف وقد تهكرب الموقف .. بادر شوقي :

- أنا نفس الشخص سيادتك .
- أنت ؟!

قالها الوزير بدهشة أقرب إلى الاستنكار ، ثم تأمل اللوحات بتركيز ، متنقلاً من لوحة إلى أخرى ، ووجَّه نظرة متسائلة إلى قدري الذي تشاغل بالحديث همساً مع مدير مكتبه حسن السكري ، ويبدو أن الوزير تذكر ما قرأه عنه فسأله بمزيد من الاستنكار:

- ألست أنت الذي كتبوا عنه في مجلة الأسبوع المصور ومجلة روز اليوسف؟
- نعم أنا شخصياً .
- عجيبة ! .. لوحاتك تدل على أنك فنان جيد .. وقد تصورت مما قرأته أنه شخص أقرب إلى الفتوة أو صاحب سوابق عتيد ، لكنك هنا تبدو عكس ذلك تماماً .. شاب رقيق ومهذب .. وفوق ذلك فنان جيد .. ما رأيك يا قدري بيه؟

أسقط في يد قدري وهو يشبك يديه خلف ظهره وقد ازداد وجهه احمراراً ، وابتسم ابتسامة مرتبكة وهو يقول بصوت باهت :

- الرأي لسيادتك .. لكنني أُذكِّر سيادتك بأن لديك موعداً آخر بعد قليل ولازلنا في منتصف المعرض .

- طبعاً طبعاً .. لكن أليس الموضوع مما يخصك ؟
- أي موضوع يا افندم ؟
- موضوع المسافرخانة فيما أذكر .. أليس كذلك ؟
- هو كذلك يا سيادة الوزير .. وإذا شئت أن أشرح لكم ملابساته فيمكن لسعادتك تحديد موعد لآتي إليكم واوضح لكم كل شيء .

التفت الوزير نحو شوقي وسأله :

- ما رأيك يا فنان ؟
- في أي شيء يا افندم ؟
- فيما يقترحه قدري بيه .. تأتيان إلىَّ في الوزارة ونجلس معاً جلسة مصطبة وتقبلان مشورتي باعتباري كبير العيلة كما يقول رئيسنا السادات .
- سيادته اقترح أن يأتي إليك وحده .
- أنا الذي أدعوك الآن لنجلس معاً جلسة ود ومصالحة بعيداً عن الصحافة والمحاكم .. فأنتما في النهاية فنانان .. وقدري بيه قلبه كبير .. وأنا واثق من أنه سيقبل اعتذارك .
- أتعرف سيادتك ما فعله معي ؟
- ليس ذلك هو المهم الآن .. المهم هو أن نجلس بنفوس مستعدة للمصالحة .
- لو عرفت سيادتك ما فعله لكان لك رأي آخر .. فكيف أتصالح معه وقد تم تحطيم مرسمي ولوحاتي .. وأُبعدت من وظيفتي وتم تصويري في الصحافة كإرهابي ومتآمر على الوطن .. واسمح لي أن أعبر عن دهشتي .. فسيادتك رجل قانون ، بل وصاحب مصطلح سيادة القانون .. فكيف تساوي سيادتك بين الجاني والمجني عليه في جلسة ودية أو قعدة مصطبة على طريقة كبير العيلة ؟!

توتر الجو .. وتزاحم عدد كبير من الحضور يتابعون الحوار غير المألوف وقد خيم الصمت ، وبدا الوزير متردداً بين مغادرة المكان في استياء من سلوك شاب أرعن. وبين الشعور بواجبه كرجل قانون .. أخيراً قطع الصمت قائلاً :

- إسمع يا بني .. كما قلت أنت .. أنا من صك مصطلح سيادة القانون .. وأنا بنفسي من يقول لك الآن : هناك قبل القانون « أستك » يمسك بطرفيه شخصان متخاصمان .. كل منهما يحاول أن يشده إلى ناحيته أكثر من الآخر ، لكن من يشد هذا الأستك فوق قدرته على التمدد هو الذي سيُلسع بضربته حين يفلته الطرف الآخر من يده ، والحكيم هو من يمسك بشعرة معاوية بن أبي سفيان .. وأظنك تعرف مقولته الشهيرة .. إسمع كلامي يابني .. سكة القانون طويلة وغير مضمونه .
- أشكرك على نصيحتك ياسيادة الوزير .. لكني مؤمن بمصطلح سيادتك وهو سيادة القانون .. وواثق من أنني سأسترد به كل حقوقي .

شوح الوزير بيده في الهواء نافد الصبر ، واندفع مهرولاً لاستكمال جولته بالمعرض ، ووراءه يهرول موكبه وقد عاد الضجيج – الذي توقف خلال المناقشة – إلى سابق عهده.

أصبح ذلك هو حديث الساعة في أوساط المثقفين ، مما ساعده على الحصول على عشرات أخرى من التوقيعات على البيان ، وحرص على الحضور كل ليلة إلى المعرض ، وفوجئ بان نسبة مشاهدة لوحاته ، وطلبات الكثيرين التصوير معه أمامها ، أصبحت لا تتوقف ، لكنه في نفس الوقت تعرض لانتقادات كثيرة من بعض الفنانين والمثقفين لرفضه عرض الوزير عليه ، لأنه كان عرضاً سخياً من وزير شجاع وعملي ، وأنه من مدرسة الرئيس السادات ، بل ربما من مستشاريه المقربين ، والتقطت أذنه من بعيد قول أحدهم إن هذا التمادي في الخصومة لا يستهدف الحق بل يستهدف الشهرة ، ويمكن أن ينقلب على صاحبة فيخسر كل شيء بسبب هذا العناد.

ووسط هذا اللغظ جاءه أحد الزوار ، وبعد أن وقف طويلاً يتأمل لوحاته قدم نفسه إليه باسم رفقي سالم ، وسأله عن أسعارها ، وفي الحقيقة أنه لم يكن متحمساً لبيعها رغم شدة احتياجه لذلك في ظروفه الراهنة ، ذلك لأنها صارت بالنسبة له أكثر من مجرد لوحات فنية كغيرها من أعماله السابقة ، بل أصبحت تجسيداً حياً لمعادلة

وجودية في لحظة يكون فيها أو لا يكون لا تساويها أية أموال ، لذلك أجاب على رفقي بسعر يعتبر تعجيزياً بالنسبة لمستوى أسعار المقتنيات بوزارة الثقافة لمتحف الفن الحديث أو حتى في القاعات الخاصة ، فطلب مائة جنيه للوحة الواحدة ، فإذا بالرجل يوافق على الفور ويطلب شراء اللوحات الثلاث !

لم يصدق أذنيه ، وقال لرفقي :

- يبدو أنك متخصص في الفن .
- إطلاقاً .. أنا مجرد متذوق .. لكني أفهم ما وراء سؤالك .. إن ما أعجبني في اللوحات .. (صمت قليلاً يبحث عن كلمات) .. أنها تمثل في مجملها حالة عشتها شخصياً في فترة ما وعبرتها والحمدلله .. فرأيت فيها نفسي في ذلك الوقت .. ولعلمك .. لقد كنت أتابع قضيتك في الصحافة وتمنيت أن أتعرف بك .. فجئت اليوم هنا متوقعاً أن أجدك .. وسمعت حوارك أيضاً مع الوزير فازداد تقديري لك .

جاشت نفسه بمشاعر قوية عبر عنها بقوله :

- هذا موقف رائع لرجل محترم .. وإذا كنت ترى في السعر الذي ذكرته بعض المغالاة فليس عندي مانع من إعادة النظر فيه ..

سارع رفقي بالرد :

- لا إطلاقاً .. إنها تستحق أكثر من ذلك .. وأنا قادر عليه والحمدلله .. ولا تظن أنني أساعدك بشرائها .. بل إنه في الأساس اعجابي بها كأعمال فنية .
- حسن .. لكنني أستأذنك في طلب واحد .. هو أن تبقي اللوحات معروضة هنا حتى نهاية المعرض .

فأبدى رفقي موافقته في الحال ، ودفع ثمن لوحة واحدة كمقدم يثبت جديته ، وتبادلا أرقام التليفون والمواعيد .. وصافحه بحرارة قبل أن ينصرف ، وهو يشعر نحوه بكثير من الامتنان ، وفي داخله صوت يقول مبتهجاً :

- « الحمدلله .. نبوءة فريدة بالفرج بدأت تتحقق ! » .

(٥١)

في الصباح اشترى العدد الجديد من مجلة روز اليوسف ، يملأه الفضول لمعرفة رد الفعل للتحقيق الصحفي بمجلة الأسبوع المصور ، وصدق توقعه ، حيث وجد خبراً مطولاً تحت عنوان ملفت عن البيان وحملة التوقيعات عليه التي بلغت المئات . ونشرت المجلة أسماء مشاهير الكتاب والفنانين الموقعين عليه ، مع ملخص للبيان ، ثم وجد مقالاً بقلم الكاتب المسرحي علي سالم ، يجري فيه مقابلة افتراضية ساخرة بين شوقي وبين الاتحاد السوفيتي شخصياً وهما يتجولان في ميدان العتبة وقد تأبط الاتحاد السوفيتي ذراع شوقي متجهين إلى ميدان الأوبرا ، فأشار له إلى مبنى دار الأوبرا وأمره بإحراقه ففعل ، واستمرا إلى شارع ٢٦ يوليو وهو يعزم عليه بالسجاير ويحرضه على قطع التيار الكهربائي من كشك الكهرباء الذي يغذى المنطقة كلها حتى تغرق جميع المحلات التجارية بالمنطقة في الظلام ويهجم عليها الجياع وينهبون البضائع منها لتقوم بعد ذلك ثورة الجياع .. ففعل شوقي ما أمره به ، وعندما فرغ من ذلك استكملا السير معاً إلى شارع عماد الدين فقال له الاتحاد السوفيتي : ألا ترى هذا الشارع مسفلتاً نظيفاً ؟ .. هيا .. قم بحفر الحفر في كل مكان حتى لا يجد الناس طريقاً للسير فيه فيعلنون الثورة على الحكومة ، وشوقي ينفذ التعليمات صاغراً ، وعندما وجد الاتحاد السوفيتي أنه بدأ يتكاسل أغدق عليه بالسجائر وراح يشعلها له كصديقين حميمين ، فلما وصلا إلى مسرح الحكيم قال له: أرنا يا بطل ماذا ستفعل : وكان شوقي قد تمرس في عمله بخبره ممتازة ، فدخل المسرح على الفور واتجه إلى خشبة المسرح وأشعل عود ثقاب في الستارة الحمراء ، وانطلق إلى خارج المسرح قبل أن يلاحظ وجوده أحد .. واستمرا يفعلان مثل ذلك في بقية شوارع القاهرة ثم عبرا كوبري الزمالك إلى مسرح البالون في العجوزة حيث قام شوقي بإحراقه كما فعل في دار الأوبرا ومسرح الحكيم .

كان هذا ملخص المقال وهو يكشف « المؤامرة الأجنبية » على مصر بقيادة الاتحاد السوفيتي وأتباعه فيها بأسلوب على سالم المسرحي المشوق .. وعندما ذهب شوقي بالمجلة إلى مكتب الأستاذ الهلالي علم أن المقال صنع دوياً هائلاً في

الأوساط السياسية جعل الجميع يضحكون على ما نشرته مجلة الأسبوع المصور الذي يرمي إلى اتهام اليسار بتنفيذ مؤامرة لتخريب البلد بتوجيه من قوى خارجية ، فكان تأثير المقال الساخر أقوى من تأثير المقالات الجادة .

لكن الخبر الأهم الذي زفه إليه الأستاذ ، هو أن قضيته الخاصة بالنقل إلى إدارة التنظيم تحددت لها جلسة مستعجلة للمرافعة بعد أسبوع ، في ضوء المستندات وكشوف التوقيعات على البيان والشهادة الطبية ، وجميعها قُدمت إلى المحكمة مع عريضة الدعوى ، وقال له الأستاذ أن من المنتظر أن يصدر الحكم في نهاية الجلسة . أصر شوقي على تسديد رسوم القضية في الحال برغم اعتراض الأستاذ ، الذي اقترح عليه التقدم فوراً بطلب إلى هيئة الفنون لتسليمه لوحاته التي صرح رئيس الهيئة في حديثه المنشور بمجلة الأسبوع المصور بأنها سليمة ومحفوظة بوكالة الغوري كأمانه تسلم إليه حين طلبها . أبدى شوقي دهشته من هذا الإجراء لمعرفته بأن اللوحات تم تدميرها بالمسافرخانة، فكيف يتسلمها على أنها سليمة ؟! .. ألا نهدم بذلك القضية الثانية للمطالبة بالتعويض التي نستعد لرفعها فنضيّع حقنا فيها ؟ .. فوق أنه في حال استلامها سيكون في ورطة جديدة لعدم توفر مكان لتخزينها فيه .. فماذا يفعل بها ؟ .. رد الأستاذ مبتسماً :

- إنك في الحقيقة لن تستلم شيئاً ، لسبب بسيط : هو أن الأعمال تالفة كما قلت ، وبالتالي فهي غير مطابقة لكشوف الجرد المزعوم والمذكور فيه أن الأعمال سليمة ، وسنثبت ذلك بعد المعاينة على الطبيعة في المحضر الذي سيحرر عند تسليمها إلينا، وعندئذ سنرفض الاستلام ، ويكونون بذلك قد قدموا إلينا الدليل القاطع على جريمتهم لنقدمه بدورنا إلى المحكمة ، مع عريضة الدعوى ، وسيكون ذلك المستند سيّد الأدلة .
- فماذا لو رفضوا تحرير هذا المحضر ، خاصة في وجود محامي الهيئة الذي يعرف بالطبع هدفنا من الحصول عليه ؟
- سيضعهم الامتناع في مشكلة ، حيث سيعطينا ذلك الحق في رفع دعوى مستعجلة لتمكيننا من استلام الأعمال ، وسوف تلزمهم المحكمة بتسليمها إلينا

بموجب محضر استلام سنصل من خلاله إلى نفس الهدف . هذا فقط سيأخرنا بعض الوقت .

- الله ينور عليك .

قالها شوقي من قلبه وتناول ورقة وقلما وأخذ يكتب ما يمليه عليه الأستاذ كصيغة للطلب الذي سيتقدم به إلى مدير عام الشئون المالية والإدارية بالهيئة لتسلُّم أعماله. ثم راح يستعرض معه خطته للمرحلة القادمة ، ويستشيره في أمر محاولته الندب إلى الثقافة الجماهيرية ، فطلب منه الأستاذ المداومة على الحضور والتوقيع يومياً في دفتر رسمي ، لاتخاذه وثيقة تُضم إلى حافظة المستندات في القضية ، وبذلك نبطل حجتهم حول انقطاعه عن العمل ، كمسوِّغ لاعتباره مستقيلاً ، ومن ثم لإصدار قرار بقبول استقالته ، ثم استدرك الأستاذ قائلاً :

- لكني في الحقيقة غير مطمئن لهذا العمل ، لأن استمرارك في الحضور يومياً في الثقافية الجماهيرية بدون قرار رسمي باستلام العمل بناء على موافقة هيئة الفنون على الندب لا يمنعها من اعتبارك منقطعاً عن العمل بها.
- وإذن ؟
- في رأيي يلزمنا القيام بإجراء احتياطي ، مثل استلام قرار النقل والتظاهر بتنفيذه ، والتقدم بطلب أجازة اعتيادية أو بدون مرتب .

صدمته العبارة وكأنها إعلان استسلام ، وأبدى اعتراضه قائلاً :

- مستحيل يا أستاذ .. الفصل النهائي أكرم لي .
- هي مجرد مناورة لكسب الوقت حتى يصدر حكم المحكمة بعد أسبوع ، وبدون ذلك سيظل عنقنا تحت سكينتهم لو لم نكسب القضية لا قدر الله ، وبوسعنا بهذا الاجراء الموقت إبعاد هذا السكين .
- يبدو ما تطلبه مني مستحيلاً ، وهو بالفعل ما حذرَتْ منه شهادة الدكتور ميخائيل .
- عموماً فكّر في الأمر وأنت تتقدم إليهم بطلب استلام متعلقاتك غداً .

* * *

حين ذهب إلى الثقافة الجماهيرية هنَّأه عمر البرعي ومن معه بإدارة الإعلام على النجاح الكبير بالمعرض ، لكنه استشعر في لهجة عمر تغييراً جعله يبدو أقل حماساً مما كان عليه ليلة الافتتاح . همس له عمر بأن الأستاذ سعد وهبه سأل عنه ويريد مقابلته ، واستأذنه للدخول إليه ليرى إن كان مستعداً للقائه الآن ، وعاد بعد قليل ليدعوه إلى الدخول برغم ازدحام حجرة الاستقبال بمكتبه بعدد كبير من المنتظرين مقابلته ، ولاحظ أن ملامح وجه عمر قد اكتست فجأة بقناع من الحيادية بما يوحي بوقوع أمر جلل .. سأله بقلق :

- هل هناك شيء ؟

طمأنه عمر بابتسامة مغتصبة محاول بها طمأنته قائلاً :

- سنتحدث بعد أن تخرج .

استقبله الأستاذ سعد بمودة وهنأه على المعرض ثم التزم الصمت فترة ضاعفت قلقه. ركز نظره على وجه الأستاذ سعد في انتظار أن ينطق ، وأخيراً قال بنبرة تنم عن خطورة الأمر :

- ما الذي حدث في افتتاح المعرض ؟

تأكد من أنه علم بما دار بينه وبين الوزير . توجس أن يكون غاضباً منه بعد علم الوزير باستلامه العمل في الثقافة الجماهيرية . حكى له باختصار ما دار في الحوار ثم سأله :

- هل أبلغك الوزير باستيائه من ذلك ؟
- الوزير غاضب جداً .. ليس منك بل مني أنا .. لأنه فوجئ بأنني سلمتك العمل هنا بدون استئذانه .
- ولكنني لم أستلم العمل رسمياً .. ولن يتم ذلك كما قلت سيادتك إلا بعد رد هيئة الفنون على خطابك بالموافقة على الندب .. وهي لم ترد حتى الآن .
- الوزير يرى أنني وضعته في موقف حرج يوم افتتاح المعرض ، لجهله بوجودك عندنا ، فجعلته بذلك آخر من يعلم ، لأن قدري بيه أبلغه بالأمر بعد

المناقشة العبثية بينك وبين الوزير ، وكانت هذه فرصته لإحداث أزمة بيني وبينه، قائلاً إنني آويت عندي شيوعياً ووفرت له الحماية من وراء الوزير بالمخالفة للقانون، حتى عرف بالصدفة بعد أن تعرض للإهانة منك .

- أنا آسف جداً يا فندم لما حدث .. لكن ما هو خطئي بالضبط ؟
- ما كان يجب إحراج الوزير في المعرض بهذه المناقشة العقيمة .. هل كان لها أية ضرورة ؟ .. بالعكس تماماً .. لقد أضَّرت بالجميع .. وقطعت علينا الطريق للوصول لأي حل .. بل إنك حتى رفضت الحل الودي الذي عرضه عليك الوزير .
- أنا لم أفتح مناقشة مع الوزير ، بل هو الذي فتحها وعرض الاقتراح بأن نجلس ونحل المسألة ودياً بعد أن أقوم بالاعتذار لقدري بيه .
- كان يمكن أن تعتذر بلباقة أو أن تعده بأنك ستفكر في الأمر بدلاً من إثارة موضوعات مثل « الأستك » وكبير العيلة وسيادة القانون وما إليها .
- لست أنا الذي أثرتها ، بل سيادته هو الذي فعل ، وكنت أرد فقط .
- لكنني للأسف الذي دفعت الثمن !
- أكرر أسفي يا افندم .. جميلك لن أنساه .. لكني فهمت أنك تعاطفت معي كموقف مبدئي وليس لشخصي.
- نعم كان موقفاً مبدئياً .. لكنه في نفس الوقت تعاطف شخصيّ معك .
- حسناً .. أنا مستعد لسحب طلبي بالندب فوراً إذا كان هذا يحل المشكلة.

أطرق الأستاذ سعد وكأنه يدير الأمر في رأسه بعد أن وجد أن عرض شوقي بالانسحاب هو الحل ، ثم قال بلهجة هادئة ومتفهمة لظروفه لأول مرة في هذا اللقاء:

- وماذا ستفعل ؟ .. هل ستنفذ قرار النقل إلى إدارة التنظيم بالهيئة ؟
- لا طبعاً .. عموماً عليَّ أن أواجه مشكلتي بأي طريقة .. لا تقلق .. وأكرر اعتذاري .

ونهض مستأذناً في الانصراف .. قال الأستاذ سعد .

- إجلس قليلاً .. سنحاول الوصول إلى حل .
- سأترك الأمر لسيادتك لتفعل ما تراه مناسباً .. وفي كل الأحوال سيظل تقديري واحترامي لك وللثقافة الجماهيرية قائما .. بعد إذنك .

ومضى إلى خارج المكتب وسط نظرات استياء الجالسين في انتظار الدخول .

وجد عمر في انتظاره والقلق يعصف به ، وبادره بالسؤال عما حدث ، فأحاطه بما دار باختصار ، بدا عليه وكأنه كان يتوقع ذلك ، فهوَّن عليه الأمر قائلاً:

- لا تتسرع بسحب طلبك .. الرجل يحبك بالفعل ومتعاطف معك كما قال .
- أنا متأكد من ذلك .. لكن ليس لدرجة أن يضحي بمنصبه من أجل خاطري !

وصافحه وخرج قائلاً :

- سنكون على اتصال .

(٥٢)

أمام مبنى الهيئة بأكاديمية الفنون سمع من يناديه ، التفت فوجده الأستاذ طلَّال المحامي بالإدارة القانونية بالهيئة . كان يعلم أنه المكلف بملف قضيته منذ البداية . كان شوقي في عجلة من أمره للدخول وتقديم طلب لاستلام متعلقاته بوكالة الغوري ، ورغم احتقاره له وقف بفضول لمعرفة ما يريد منه ، فقد تفيده أي معلومة يخرج بها منه حول القضية . قال لنفسه : فلأشترِ منه ولا أبيع !

سلم عليه طلَّال بحرارة وكأنهما صديقان وسط اندهاش شوقي الذي رد بفتور، فقال طلال :

- أعرف أنك تعتبرني خصمك .. ولك العذر طبعاً .. لكنني أوكد لك بأنني وجميع زملائي المحامين بالإدارة القانونية كنا معترضين على قرار نقلك إلى إدارة النظيم باعتبار أنه قرار يمكن الطعن عليه بأنه جزاء تأديبي يخفض من مستواك الوظيفي الذي وصلت إليه منذ سبع سنوات بالهيئة ومن قبلها كمدير

لبعض قصور الثقافة ، وسوف ينتهي بالإلغاء أمام محكمة القضاء الإداري في أول جلسة لو رفعت قضية لإلغائه . ولما سألني رئيس الهيئة كم من والوقت تستغرق القضية حتى يصدر فيها الحكم ؟ .. قلت له قد تستغرق عدة شهور .. فقال : يكفيني ذلك لتأديبه و« مرمطته » في المحاكم ليرجع بعد ذلك ورأسه في الأرض .. مما جعلني أراه رجلاً ظالماً ومفترياً لا أمان له .. وشعرت بالذنب لتنفيذي ما طلبه مني بإعداد هذا القرار .

- وماذا بعد ؟
- أريد فقط أن أكفر عن ذنبي بعمل شيء من أجلك .
- مثل ماذا ؟
- علمت برغبتك في استلام لوحاتك من وكالة الغوري .. وأنصحك بأن يكون معك محاميك ، وبألا تقوم باستلام شيء إلا بعد تحرير محضر يثبت حالتها الفعلية التي أعرفها جيداً .. وستجد إقرارا بتوقيع مدام أحلام وهي صاحبة مرسم بوكالة الغوري ، وقد وقَّعته أمامي وأعرف كل ملابساته ..
- ما الذي تعرفه ؟
- أعرف أنها لم تكتب الإقرار .. بل كتبه حسن السكري مدير مكتب الريَّس .. ووقَّعته دون أن تقرأه تقريباً ..
- ولماذا تفعل ذلك ؟
- لا أعرف .. لكني شعرت بأن في نفسها شيئاً من ناحيتك .. يمكنك القول بأنها كانت توقّع لحسابها الخاص وليس لحساب الهيئة .. وقد حذرتها من مسئولية ذلك عليها فردت بأنها تعمل لمصلحتك .. حيث تراك كحصان جامح وقد تؤذي نفسك بهذا الجموح .. وتريد كبح جماحك بإنقاذ ما بقي من أعمالك التي أرادوا تدميرها كاملة .. وقالت أنها ستفعل ذلك مهما كان الثمن الذي ستدفعه .. وأثار ذلك استغرابي حتى الآن .. لكنني أؤكد لك أنني متضامن مع موقفك ومستعد لمساعدتك من خارج وظيفتي بالهيئة .. وقد قررت فعلاً الاستقالة منها .. وسيكون ذلك قبل نهاية هذا العام .
- هل أنت مستعد لأن تشهد بذلك أمام المحكمة لو طلبتك؟

تردد وبدا عليه الارتباك ثم قال :

- كشاهد أمر صعب .. لأن موقفي سيحمل شبهة التواطؤ معها .. لكني أستطيع مساعدتك بما تحتاجه من معلومات .. إلى أن أتفرغ كمحامي حر بعد الاستقالة .

وأعطاه بطاقة بأرقام تليفوناته ، وقال إنه يسعده التعاون معه . ورغم ما بدا من صدقه فقد استمرت ريبته فيه ، فربما كان دسيسة عليه . لكنه أعطاه رقم تليفونه بناء على طلبه .

استقبله الأستاذ عبد المتعال بحفاوة أدهشته ، فهو الذراع الأيمن لقدري عثمان كوكيل للوزارة للشئون المالية والإدارية ، لكنه يستمد قوته من طاعته العمياء لرؤسائه، منذ أن كان في شبابه يخدم كموظف في الجيش بشهادة متوسطة ، ثم كسكرتير لأحد كبار الضباط الذي تولى منصباً مهماً بوزارة الثقافة ، فاستدعاه ليستمر مساعداً له في خدمته المدنية ، واستمر في ترقِّيه من وظيفة إلى أخرى تحت رئاسة عدة قيادات ، وكانت طاعته العمياء وخبرته الإدارية التي اكتسبها هما اللتان أهَّلتاه للوصول إلى منصب وكيل الوزارة ، بل والحصول على استثناء لمد العمل بالخدمة بعد سن التقاعد عاماً بعد عام. كان يحمل ملامح أبناء جنوب الصعيد ببشرته السمراء الداكنة ، وقد بدت عليه بوضوح مظاهر الشيخوخة العميقة ، بشعره الذي اشتعل شيباً ، وبضعف بصره الشديد الذي أدى إلى مضاعفة حلقات الزجاج في نظارته الطبية حتى لم تعد العينان تظهران من ورائها ، قال الرجل بمودة فياضة:

- أهلا يا حبيبي .. رجعت بيتك ومطرحك .

سلمه شوقي طلب استلام لوحاته ومتعلقاته المتحفظ عليها بوكالة الغوري ، فقرَّب الورقة من نظارته حتى أوشكت على ملامستها وقرأها بتمعن ، وابتسم قائلاً :

- موافق جداً جداً .. وها هي موافقتي يا سيدي ..

وكتب تأشيرته وهو ينطقها بصوت مرتفع : السيد مدير عام وكالة الغوري .. موافق وتتخذ الإجراءات القانونية ، ثم طلب له قهوة رغم اعتذاره بشدة عن شربها .. وقال بأريحية :

- والآن أظن أنه آن الأوان لاستلامك قرار النقل .. وبيني وبينك كان هناك من يضغط عليَّ لإصدار قرار بفصلك لتجاوزك المدة القانونية للإنقطاع عن العمل ، لكنني رفضت تنفيذ ذلك ، فأنت زميل فاضل ، وخلاف الرأي لا يفسد للود قضية ، والود عمره سنوات طويلة منذ عملت معنا في الهيئة .. مكانك شاغر في انتظارك .

أغرته النبرة الودودة والأبوية بأن يعيد التفكير في اقتراح الأستاذ عبد المتعال فسأله:

- لو استلمت العمل اليوم هل يمكنني الحصول على أجازتي السنوية ؟
- طبعاً يمكنك .. لم لا ؟ .. من حقك الحصول على شهر لو أردت .. هل ستقوم باستلام القرار الآن ؟
- ألا تخبرني أولاً أين سيكون عملي ؟
- ستكون معي هنا بصفة مؤقتة حتى نختار لك مكاناً مناسباً ، والمسألة لن تزيد عن عدة أيام . (ثم خفض صوته وقال بلهجة أقرب إلى الهمس وكأنه سيدلي باعتراف) شوف يا أستاذ شوقي .. (ومد يده إلى فمه فخلع طقم الأسنان الصناعية المركّب به وأكمل) أسناني الطبيعية سقطت من كثرة ما رأيته في حياتي من هموم وما حصلته من دروس .. وأولها هو أن المياه لا تصعد في العالي .. فعرفت قدر نفسي ولم أدخل في صراع وأنا الطرف الضعيف فيه .

وصلت إليه الرسالة من وراء تلميحه ، فقال مناوراً ، عملاً بنصيحة الأستاذ الهلالي:

- لذلك جئت اليوم يا أستاذ عبد المتعال :
- الله ينور عليك .. أدخل الآن إلى الأستاذ محمود السيد مدير عام شئون العاملين في المكتب المجاور لي ، ستوقع باستلام القرار ، وسيخبرك بما تفعله بعد ذلك .

وعند انصرافه قام الوكيل واقفاً لمصافحته وقال بلهجة حنونة ذكرته بأبيه :

- شرَّفت بيتك ومطرحك !

جعلته هذه اللهجة الصادقة يفكر بجدية فيما نصحه به الأستاذ الهلالي ، وقد شعر بأنه ليس أمامه خيار آخر بعدما حدث هذا الصباح بمكتب الأستاذ سعدالدين وهبة.

استقبله محمود السيد بنفس الترحيب الذي لقيه من رئيسه عبد المتعال ، بل اندهش حين سمعه يردد نفس الجملة .. « شرفت بيتك ومطرحك» وكأنهما متفقان عليها ككلمة السَّر بينهما ، وهما على علم بحضوره اليوم . سلمه محمود قرار النقل الذي سبق حصوله على نسخة منه دون أن يوقع باستلامه وذلك للطعن عليه في المحكمة ، فوقَّع عليه بيد مرتعشة وكأنه يوقع على إقرار بالهزيمة ، وألحَّ محمود عليه ليدعوه لشرب فنجان قهوة كما فعل عبد المتعال ، لكنه صمم هذه المرة على الاعتذار ، وقبل أن ينصرف وجه السؤال إليه :

- ما الإجراء المطلوب الآن لتسلمُ عملي الجديد؟

وقف حامد بجسده البدين ووجهه الطفولي قائلاً :

- بعد بكره إن شاء الله الساعة الواحدة ظهراً ستجد قرار رئيس الهيئة مطبوعاً في انتظارك .
- أهناك ضرورة لصدور قرار جديد ؟
- لازم .. لإزالة آثار تخطيك أيام الانقطاع عن العمل أكثر من خمسة عشر يوماً ، فكأنما نفتح صفحة جديدة ونقول : عفا الله عما سلف !

غادر مبنى الهيئة وقد حط على قلبه حجر ثقيل ، ولأول مرة يطل عليه وجه فريدة شاحباً مقطب الحاجبين مثل المرات التي كانت تهاجمها خلالها نوبة الاكتئاب .

اتجه مباشرة إلى مكتب الأستاذ الهلالي بباب اللوق . كان من الضروري أن ينقل إليه أحداث اليوم . لم يكن الأستاذ قد عاد من المحكمة فدخل إلى مكتب عبدالناصر وأبلغه ما جرى فلم يعقب ، فلما سأله عن رأيه قال أنه سبق أن نصحه بذلك لكن الرأي الأخير للأستاذ نبيل . وطالما نصحك بما قمت به فهو بالتأكيد أدري

بظروف القضية . ثم تواعدا على اللقاء بوكالة الغوري في الغد ليباشرا إجراءات استلام اللوحات أو محضر الجرد الذي سيتم تحريره ، وانصرف وقد تزايد الثقل فوق قلبه ، فيما يتملكه شعور فادح بارتكاب الخيانة لنفسه ، وتمنى لو كان الأستاذ حاضراً لينقذه من هذا الشعور ، بتبيان ما إذا كان قد أخطأ أم أصاب .

(٥٣)

تسلم الأستاذ عفيفي مدير عام وكالة الغوري الطلب المؤشر عليه من وكيل الوزارة الأستاذ عبد المتعال بتسليم متعلقات المرسم وهو يكرر ترحيبه بشوقي وبعبدالناصر ، بما يوحي بأنه تلقي توجيهات بحسن استقبالهما ، ثم قال أنه يفضل تأجيل التسليم لحين حضور السيدة أحلام فوزي ، حيث تم الاتصال بها فعلمنا أنها مسافرة خارج القاهرة ولن تعود قبل أسبوع . قال شوقي محتجاً .

- وما شأنها ؟
- هي رئيسة اللجنة التي قامت بالجرد ، كما أن الأعمال في عهدتها الشخصية.

قال عبدالناصر :

- عهدتها الشخصية بأي معنى ؟ .. هذه مسئولية الهيئة في النهاية، وإلا لكانت تأشيرة السيد وكيل الوزارة قد وجهت إليها وليست إلى سيادتك كمدير عام وكالة الغوري .

وإزاء إصرارهما أجرى عفيفي اتصالاً تليفونياً بوكيل الوزارة ليأخذ بتعليماته في ضوء عدم وجود أحلام فوزي ، واستمر فترة يستمع إلى كلامه وهو يردد :

- اللي تشوفه سعادتك .. تمام .. حاضر .. حاضر .

كان من الواضح تلقيه تعليمات مشددة بتيسير المهمة من خلال لجنة رسمية، وهو ما شرع فيه عفيفي على الفور باستدعاء « صالح » مدير الشئون الإدارية وتكليفه بتشكيل لجنة ثلاثية لهذا الغرض . وفي غضون نصف ساعة تقريباً كانت اللجنة في

انتظار فتح المخزن ، وصالح يفتح الحجرة رقم ٨ بالممر فوق الأرضي ، وتحت إبطه ملف لجنة الجرد السابقة .

كانت الحجرة عبارة عن قبو منخفض شديد الظلمة والرطوبة ، تتبعث منه رائحة عفن غريبة ، وعندما أضيئت لمبة الفلورسنت كشفت عن كمية من الركام بغير ملامح واضحة ، حتى أن الأستاذ عفيفي أبدى دهشته لما يراه ، معلناً أنه لم يكن مسئولاً عن الوكالة فترة هذه الأحداث ، وطلب من مدير الإدارة إخراج كل محتويات الحجرة إلى الممر لمطابقتها على كشوف الجرد السابقة .

كانت اللوحات القماشية مبقورة البطون بالأحذية فيما يبدو وممزقه في أماكن مختلفة ، ومن الواضح أنه تم استخدام أداة حادة في تمزيقها ، وأخرى في تحطيم إطاراتها ، أو كما قال شهود من الفنانين أنه تم إلقاؤها من نافذة المشربية إلى أرض الفناء ، فضلاً عن اللوحات الصغيرة بالألوان المائية على الورق ، فقد تحطم زجاج أغلبها وتمزقت في مواضع شتى إلى جانب الفازات وأدوات الرسم . أما قطع الأثاث بما فيها مسند اللوحات فقد تفسخت قوائمها الخشبية بضراوة .. قال عبدالناصر :

- كيف واتاهم الضمير ليصفوا ذلك كله بأنه في حالة سليمة ؟
- أنا لم أكن هنا أصلاً في الحقيقة وإلا لما سمحت بذلك .. عموماً يمكنكم ألا تقوموا باستلامها وأن تسجلوا ما يتراءى لكم في المحضر ، ثم تطالبوا السيدة أحلام فوزي بما هو مثبت في الكشوف على أنه بحالة سليمة ، وذلك حين تعود من سفرها .

قال عبدالناصر :

- لن نسأل أحداً .. بل هذا واجب الإدارة أن تسألها أو أن تسأل من تشاء .
- لا دخل للإدارة بذلك كله .. فهي عهدتها الشخصية .
- ماذا تقصد بعهدتها الشخصية ؟
- هذا ما أقرت به بخط يدها .

وأخرج من الدوسيه الذي تناوله من صالح ورقة كتبت في أعلاها كلمة « إقرار» ، وموقَّعه باسم أحلام فوزي . الحائزة على مرسم بوكالة الغوري ، تقول فيها أنها تسلمت جميع اللوحات كاملة وفي حالة جيدة ، وتشهد بأنها بنفس حالتها عندما رأتها مراراً حين كانت تزور مرسمه في المسافرخانة ، وأنها قد تسلمت جميع اللوحات كاملة وفي حالة جيدة ، وأنها قد تسلمتها كأمانة شخصية لتسليمها إليه حال طلبها.

قال عبدالناصر :

- ستوقعون معنا على محضر معاينة وإثبات حالة يتضمن وصفاً لحالتها الفعلية التي هي عليها الآن ، مع نسخة من إقرار السيدة أحلام ، ومن كشوف الجرد .

أعترض صالح – المدير الإداري – على التوقيع قائلاً بأن الوكالة غير مسئولة وليست طرفاً في النزاع أصلاً ، بل هي مجرد مكان لحفظ الأعمال .

- طالما كان المكان تابعاً لكم كجهة حكومية مسئولة عن كل ما فيه فلا مجال للتنصل من مسئولية ما أودعته في أحدى حجراتها ، بل واحتفظتم ضمن سجلاتها بدوسيه هذه الوديعة ، وواضح من كشوف الجرد أن اعضاء اللجنة عاملون بوكالة الغوري وسيادتك أحدهم وتوقيعك عليها .. أليس كذلك ؟

واستمر الجدل طويلاً ، وتحت تهديد عبدالناصر بالعودة إلى وكيل الوزارة لحسم الخلاف وافق المدير العام ومدير الإدارة أخيراً على التوقيع على محضر المعاينة كإثبات حالة لا أكثر ، مع إخلاء مسئوليتهما عما لحق بمحتويات الحجرة ، وقام المحامي بصياغة المحضر متضمناً وصفاً دقيقاً لحالة كل قطعة كما رآها الموقعون أدناه من واقع المعاينة على الطبيعة .. وقام مسئولا وكالة الغوري والموظفان المكملان لعضوية اللجنة بالتوقيع على المحضر وتم ختمه بالخاتم الرسمي للهيئة.

وحال انصراف شوقي وعبدالناصر ، كان الأخير يثرثر مزهواً بالإنجاز التاريخي الذي قام به ، فيما كان شوقي يلتزم الصمت المطبق وهو في داخله ينتحب بدموع تحجرت في مآقيه ، فيما تنشب غُصَّة بأظافرها في حلقه .

(٥٤)

في الموعد المحدد كان شوقي يطرق باب مكتب الأستاذ محمود السيد مدير عام شئون العاملين . قام من وراء مكتبه مرحباً ، وأبقى على يده يهزها بقوة بمبالغة واضحه فيهتز معها كرشه الكبير ، فيما لمعت صلعته التي تحتل كل رأسه عندما اقترب من لمبة النيون في مواجهته ، وقبل أن يجلسا أخرج مظروفاً صغيراً أصفر وسلمه إليه وهو يحاول أن يداري إرتباكاً لأمر ما . طلب منه الجلوس ليعزمه على مشروب تحية له ، فاعتذر كسباً للوقت كي يتجه بالقرار الجديد إلى مكتب المحامي ليرى ما هو فاعل به ، وهل يصلح لضمه إلى ملف القضية ، فصافحه على عجل ، وفي طريقه إلى شارع الهرم أخرج المظروف وفضّه ليقرأه لأول مرة رغم علمه بمضمونه ، وبعد الديباجة القانونية الطويلة (بناء على المواد ... ولما كان ...) قرأ : « المادة أولاً : تُقبل استقالة السيد / شوقي محمد نعمان من عمله بالهيئة العامة للفنون والآداب بعد انقطاعه عن عمله فترة تزيد عن خمسين يوماً متصلة . المادة ثانياً : على الجهات المعنية تنفيذ القرار ونشره على الإدارات المختصة... » .

تسمَّر في مكانه كالمصعوق ، وعاد ليقرأ القرار مرة إثر أخرى وهو يقول لنفسه: هناك خطأ ما .. أكيد هناك خطأ ما .. ربما ألتبس الأمر على محمود السيد فسلمه قراراً قديماً قبل أن يأتي أول أمس ويوقع على القرار السابق بنقله من المسافرخانة إلى إدارة التنظيم . عاد يقرأ التاريخ المكتوب على رأس القرار بجوار رقمه الإداري ، فإذا به بتاريخ اليوم .

جُنَّ جنونه واستدار عائداً إلى الهيئة مهرولاً بأقصى طاقته ، ثم انطلق يجري بالفعل وهو يشعر بأنه مُغفل وقع ضحية خديعة كبرى ، حتى وصل إلى مكتب محمود وهو يلهث . دفع الباب دون أن يطرقه . اندفع داخل الغرفة ملوحاً بالقرار في يده ، وقبل أن ينطق بحرف وقف محمود رافعاً يديه وذراعيه مستسلماً وقد شحب لونه وهو يقول :

– والله مالي شأن بهذا القرار يا أستاذ شوقي .. أنا مجرد عشماوي ! .. كان كل دوري أن أُغمِّي عينيك وأعلق الحبل حول رقبتك وأفتح الطبلية .. أقسم بالله

ما كنت أعرف بما سيفعلونه بك عندما حددت لك الموعد .. لقد فوجئت به اليوم فقط .. وحياة أولادي .. لم يكن أمامي إلا التنفيذ !

صرخ شوقي :

- يا زبالة ! .. عصابة حقيرة بدون شرف .. نجحتم في استدراجي وكنتم تنتظرونني .. بعد أن تم تدبير المؤامرة من فوق .. من أعلى سلطة في الوزارة إلى أدناها .. لكنني المغفل لأنني صدقتكم .. أقسم بالله لن تفلتوا بجريمتكم .. وأنا وأنتم والزمن طويل !

واندفع خارجاً مشتعلاً بالغضب ، وجرى ينهب الطريق إلى شارع الهرم ، وأستقل أول حافلة عامة إلى ميدان التحرير .

عندما اقتحم حجرة الأستاذ الهلالي كان بها عدد من الموكلين ، لم يلق التحية وهو لا يزال في سورة غضبه . مدَّ يده بقرار الفصل إلى الأستاذ بلا كلمة ، فسأله عما به .. رد وهو يلهث :

- تفضل اقرأه بنفسك .. قرار فصلي .
- إجلس واسترح أولاً .

قام محرجاً بتعريفه بالحاضرين كصديق ومناضل وفنان كبير ، كي يلتمسوا العذر لسلوكه المندفع غير اللائق .. وواصل :

- إهدأ أرجوك حتى تستطيع أن تتكلم ثم نتفاهم .

استشعر الحاضرون الحرج فقاموا للانصراف ، ويبدو أنهم كانوا على وشك ذلك قبل حضوره مباشرة ، فقام الأستاذ بتوصيلهم إلى الباب وأكمل معهم توضيح الترتيبات الأخيرة بشأن قضيتهم ، وما أن انصرفوا حتى عاد إليه قائلاً بلهجة هادئة :

- يا راجل يا طيب .. ما الجديد في هذا القرار ؟ .. ألم نكن نتوقعه ؟ .. منذ يومين فقط كنت أحدثك بأنني غير مطمئن لحالة الصمت التي تكتنف موقف الهيئة وعدم ردها على طلب الثقافة الجماهيرية لانتدابك .. بل حذرتك من

موقف الثقافة الجماهيرية نفسها لأنها تسمح لك بالعمل بها وهي لا تملك مستندا لذلك طالما لم تتلق موافقة من الهيئة .. أليس كذلك ؟

- نعم .. وقد حاولت العمل برأيك في استلام قرار النقل مع عدم اقتناعي الكامل به لأنه يتناقض مع قضيتنا المرفوعة لإلغائه .. فكان ردك أنه إجراء احتياطي حتى لا نخسر القضيتين معاً .. وأنك كيفت الدعوى على أساس عدم قدرتي نفسياً على تنفيذ النقل .. فإذا بي أذهب إليهم برجليَّ كالمغفل مقدماً إليهم الحبل الذي شنقوني به .
- لم يكن ذلك هدفي بالطبع .. وعلى كل حال فقد أزيل الآن هذا التناقض الذي تحدثت عنه .. بصدور قرار الفصل أو كما يسمونه قبول الاستقالة ، فأصبح موقفنا أقوى في القضية ، حيث أكدوا بذلك قرارهم التعسفي الأول بقرار آخر أشد تعسفاً .. كل ما نحتاجه الآن خطاب أو تقرير من الثقافة الجماهيرية يفيد بأنك كنت تمارس العمل فيها يومياً فترة الخمسين يوماً التي اعتبرتك الهيئة منقطعاً فيها عن العمل ، إلى جانب صورة خطاب رئيس الثقافة الجماهيرية إلى هيئة الفنون الذي يطلب منها فيه الموافقة على ندبك .. فكلا الخطابين من باب القرائن على قيامك بالعمل بنفس الوزارة مع محاولتك النقل بعيداً عن اضطهاد الهيئة ، لكنها أمعنت في ذلك بتجاهلها الرد .. بغرض جعلك رهينة في قبضتها ، وهو ما يسمى استبداداً بالسلطة ونوعاً من الإقطاع الوظيفي ، مما ضاعف من أزمتك النفسية حتى اقتربت من حالة الاكتئاب .. فما حدث إذن كان لابد أن يحدث ولم يكن من سبيل لمنعه .

كان الأستاذ يتابع تأثير كلماته على شوقي ، فبدا له في هدوئه أقرب إلى الاستسلام إن لم يكن إلى الانكسار .. فاستمر محاولاً انتشاله من هذه الحالة .

- ولعلمك .. فإن القرار الذي صدر اليوم بإنهاء خدمتك سيفيدنا أكثر مما يضرنا .. لأنه أبلغ دليل على نية العصف بك ، ففي اليوم الذي ذهبت بحسن نيه لتنفيذ النقل ، كانوا يدبرون في الخفاء بسوء نية للتخلص منك نهائياً حتى يفاجئوك بهذا القرار .

رفع شوقي رأسه بعد إطراق طويل وقد استعاد شيئاً من هدوئه وأدرك تهوره فقال :

- عموماً أنا أقدم اعتذاري عن اندفاعي باقتحام المكتب .. فأرجوك تسامحني وتقدر حالتي النفسية .. فأنا في طاحونة تسحقني بلا رحمة .. وأتلقى الضربات من كل اتجاه .. وآخرها شعوري بالخيانة لنفسي.
- هوِّن عليك يا رجل .. لقد ذهبت بعيداً في جَلد ذاتك .. والآن دعنا نفكر بهدوء في الخطوة التالية .. عليك أولاً إحضار الخطابين المطلوبين غداً من الثقافة الجماهيرية .. وعلينا هنا إضافة القرار الجديد بإنهاء الخدمة إلي صلب المذكرة التي ستقدم إلى المحكمة أثناء الجلسة بعد تكييفها القانوني الجديد .. وأمامنا شغل ثقيل في قضية التعويض الخاصة بمجلة الأسبوع المصور .. إلى جانب ما يبذله عبدالناصر من مجهود ممتاز في قضية المرسم واللوحات .. وقد أحاطني بما قمتم بإنجازه اليوم بوكالة الغوري وهو عمل رائع .

ازداد شعور شوقي بالذنب لظهوره في صورة غير المقدر لكل هذا العمل الضخم بالمجان ، وفوقه صبر الأستاذ على ما يسببه له من توتر ، فقال :

- أعدك بان أحاول السيطرة على انفعالاتي في الفترة القادمة .. وأظن أنها فترة الذروة في المعركة .. وأستأذنك الآن في الانصراف .. لأن اليومين الماضيين كانا شديدي الوطأة على نفسي .. وسأذهب الآن لأنال بعض الراحة .
- لا بأس .. سوف تكون أفضل بالتأكيد .. إذهب واسترح .. مع السلامة.

(٥٥)

شرح الأمر لعمر حول ضرورة حصوله على الخطابين اللذين كلفه بهما الأستاذ الهلالي ، فطلب منه كتابة مذكرة بذلك إلى الأستاذ سعدالدين وهبة . وما أن انتهى من كتابتها حتى دخل بها عمر إليه ، ولم يستغرق بالداخل سوى دقائق قليلة عاد بعدها بالموافقة مع التوجيه إلى شئون العاملين بالتنفيذ حالاً . وخلال ساعة كان

يتوجه بالخطابين معتمدين من وكيل الوزارة للشئون الإدارية ومختومين بختم الثقافة الجماهيرية ، وأسرع لتسليمهما للأستاذ نبيل الهلالي ، ولما لم يجده قد وصل إلى مكتبه سلَّمهما – مع ما توفر لديه من كشوف التوقيعات على البيان– للأستاذ سعد حماد المحامي والشريك في المكتب والساعد الأيمن للأستاذ الهلالي .. وسأله :

- هل يمكن للمحكمة قبول إضافة لما سبق تقديمه مع عريضة الدعوى من مذكرات ومستندات جديدة مثل هذه التي أحضرتها الآن وبالأمس؟
- إنها ستقدم في ذات الجلسة عند المرافعة باعتبارها عناصر مكملة وأساسية في التكييف القانوني ، وهذا ما سنفعله يوم الجلسة ، ونأمل أن يتاح الوقت للنظر في المستندات الجديدة قبل النطق بالحكم .

وفيما كان يتأهب للانصراف قال الأستاذ حماد وهو يعرض عليه عدد صحيفة الأخبار مشيراً إلى مقال في الصفحة الأخيرة :

- على فكرة سنضم إلى حافظة المستندات أيضاً هذا المقال الذي كتبه عنك الأستاذ بيكار.

مد يده بلهفة ليتناول الصحيفة وهو يقول :

- عني أنا ؟! .. كيف لم أره؟ .. تذكرت ! .. لأنني لم أخرج من البيت الجمعة الماضي لأشتري الجريدة .. وهو اليوم الذي ينشر فيه مقاله الأسبوعي .
- مقال رائع .. كان يشيد بلوحاتك في المعرض .. وتطرق بذكاء إلى قضيتك دون أن يتورط صراحة في الهجوم على رئيس الهيئة .. يقول : (وأخذ يقرأ من الصحيفة مباشرة) .. « إن هناك حديثاً أسود يدور في الوسط التشكيلي حول الاعتداء على هذا الفنان الشاب وتحطيم مرسمه ولوحاته بقصر المسافرخانة .. ويبدو أنها عملية انتقامية من جانب البيروقراطية ، يريد أصحابها فرض هيمنتهم على مرؤوسيهم ، بما يتنافى مع كل القيم الأخلاقية والحضارية التي يجب أن يتحلى بها المسئولون عن الفنون ، ويكشف عن فشل بعض الأجهزة في أداء دورها المفترض ، فلم تُفرَّق بين موظف وفنان ،

فالكل تحت العقاب إذا اعترض على استبدادها أو مسَّ بمصالحها .. إن الفنان ضمير أمته وحارس قيمها وحضارتها ، لذا فإن الاعتداء عليه وعلى أعماله اعتداء على هذه القيم »

وسمح له الأستاذ سعد بالاحتفاظ بالجريدة وقد لاحظ قدر السعادة الذي أضاء وجهه، وقال إن المكتب يحتفظ بصورة ضوئية منه لضمها إلى مستندات القضية .

وعندما غادر المكتب لم تكن الدنيا تسعه من فرط السعادة والامتنان للناقد والفنان الكبير حسين بيكار ، لأنه استطاع وسط حالة الانبطاح السائد بين كبار الفنانين أمام المؤسسة والنظام ، أن يظل محافظاً على شرف الموقف واحترام المبدأ ورفض الانضواء تحت مظلة الطامعين في ذهب المعز والخائفين من سيفه ، بفضل حالة الاستغناء والاستكفاء بما يملكه من ملكات وقناعة عن أية مكاسب زائلة . وأسف لأنه لم يَرَ المقال إلا الآن ، فعليه أولاً أن يشكره ، وثانياً أن يستنسخ عدة نسخ منه ويوزعها في كل الأماكن المتاحة ومنها مدخل سراي النصر بالجزيرة ، بحيث يواجه به قدري بمجرد دخوله إلى المبنى وقبل صعوده إلى مكتبه ، ثم استدرك قائلاً لنفسه : إن الفرصة لا تزال قائمة على أي حال ، فماذا يمنع أن يقوم الآن بهذه المهمة .

اتجه على الفور إلى مكتب لتصوير المستندات ، واستخرج مجموعة من النسخ المكبرة من الفقرة الخاصة به في المقال ، وقبل أن يتصل بأحد الشباب الذين ساعدوه في جمع التوقيعات على بيان المثقفين ، رأى أن الأهم الآن هو الاتصال بالأستاذ بيكار ليشكره على مقاله وموقفه الشجاع . أخرج رقم هاتفه من دفتر تليفوناته الصغير وطلبه ، جاءه صوته الهادئ النحيل بمودة واحترام ، وبادره بإبداء أسفه على ما حدث معه .. وإزاء ما قدمه شوقي من كلمات الشكر والعرفان ، رحب الأستاذ بأن يستقبله في بيته في أي وقت ليستمع منه إلى كافة التفاصيل .

وبعد انتهاء المكالمة فكر أن يتصل بصديقه الشاب بسيوني المعيد بكلية الفنون الجميلة ، ليطلب منه أن يقابله في الأتيليه مساء اليوم ومعه زملاؤه عبدالعاطي والآخرون ، لكنه أرجا ذلك حتى يعود إلى البيت فيقوم بالاتصال به من

هناك حتى يضمن رجوعه إلى منزله ، ثم قرر أن يتناول غداءه بوجبة كباب بأحد مطاعم باب اللوق ، ليحتفل مع نفسه بمناسبة المقال الذي سيدخل ساحة القضاء نموذجاً للكلمة الشريفة من الناقد والفنان.

وعند خروجه من المطعم ، فكر في تبديل خطته حول الذهاب إلى البيت ثم العودة ليلاً لمقابلة الشباب ، وذلك بأن يقضي فترة ما بعد الظهر في أحد المقاهي ، وهي فترة لا تزيد عن ثلاث ساعات سيضيع أغلبها في المواصلات ، والباقي لن يكفي لعمل أي شيء في البيت ، وهي فرصة للجلوس مع نفسه وتأمُّل ما جرى وما هو آت ، بعيداً عن حالة اللهاث المستمرة .

غادر المطعم واتجه إلى مقهى الحرية بالميدان وقد بلغت الساعة الثالثة والنصف وفي الطريق أجرى اتصالاً من أحد الأكشاك بمنزل بسيوني ، فرد عليه بنفسه . سأله عن إمكان لقائهما بمعرض الخريف في السادسة مساء لأمر هام . رحب بسيوني بالحضور ، فطلب منه الاتصال بعبدالعاطي وزملائه في حملة جمع التوقيعات لرغبته في لقائهم .. فوعد بذلك .

اختار مكاناً قصياً بداخل المقهى الشاسع ليكون نائياً عن ضجيج لاعبي الطاولة والدومينو ودخان الشيشة ، وهو المكان الذي اعتاد الجلوس فيه من وقت لآخر ، ليس حباً فيه ، بل لقربه من وسائل المواصلات ووجوده في مواجهة قاعة باب اللوق للمعارض الفنية حيث يخرج منها مع بعض الفنانين إلى القهوة لاستكمال لقائهم .

شعر باسترخاء شديد يثقل جفنيه وبغريه بالإغفاء ، ربما بتأثير وجبة الكباب ، فطلب فنجاناً من القهوة ليساعده على اليقظة ، وقرر أن ينصرف بعد الانتهاء منه في حوالي الساعة الخامسة لزيارة المعرض المقام بقاعة باب اللوق . ويبدو أن فنجان القهوة كان ذا تأثير عكسي ، فقد ثقل رأسه أكثر مما كان قبل أن يحتسيه ولم يستطع مقاومة الرغبة في النوم ، حيث لم ينم ليلة أمس إلا ساعات قليلة بسبب حالة الأرق التي أصبحت تلازمه كل ليلة تقريباً ، ورأسه تدور في ساقية الأفكار والهواجس بغير توقف ، فجعل من ساعديه وسادة وضع رأسه عليها فوق المائدة ،

وراح في إغفاءة عميقة ، ولم تَخْلُ من أضغاث أحلام أو شظايا صور متناثرة بغير سياق أو معالم تَثْبُت في الذاكرة .. ولا يدري كم من الوقت مر ، لكنه انتفض فزعاً فوجد أن الساعة قاربت على السادسة ، فقام ودفع حساب المقهى ، واتجه سيراً على قدميه إلى معرض الخريف وقد نسي أمر المعرض الذي كان ينوي مشاهدته بقاعة باب اللوق .

(٥٦)

وجد الشباب في انتظاره بالمعرض ، وفوجئ بأن أغلبهم قرأ مقال بيكار منذ يومين ، وقال محمود عبد العاطي إن الناقد عبَّر عما يجيش في نفوس أغلب الشباب ، ويبدو أنه قرأ البيان الذي جمعوا التوقيعات عليه رغم أنهم لم يذهبوا إليه للحصول على توقيعه ، بما يعني أن البيان خلق أصداء قوية وصلت إليه . فاتفق معهم على نشر صور من المقال على أوسع نطاق ممكن ، وركز على مبنى سراي النصر بالجزيرة ، وقد وصلتهم الرسالة من اختياره لهذا المكان فضحكوا وهم يستحسنون الفكرة ، سلمهم مجموعة من النسخ ، وأخبرهم بموعد انعقاد جلسة المحكمة للمرافعة والنطق بالحكم ، فأبدوا حماسهم للحضور وعمل مظاهرة في المحكمة ، فرجاهم بأن يحضروا مع التزام الهدوء وإلا أمر القاضي بحبسهم ، واستغرقوا في الضحك وهو سعيد بهم .. وفجأة رأى عامر البحراوي أمامه .. لم يصدق عينيه ، وبعد الأحضان والتعبير عن الأشواق بادره مازحاً :

- ما الذي أتى بك ولم تكمل هناك عدة أسابيع ؟ .. هل اكتشفوا أنهم غلطوا بدعوتك ؟
- لا.. بل أنا الذي اكتشفت غلطتي بالذهاب إليهم .
- ماذا حدث ؟

حكي له بإيجاز كيف أنه لم يستطع التكيف مع الجو هناك :

- تقصد الطقس أم الناس أم ظروف العمل ؟

- كل ذلك معاً .. لكن الأهم من كل ذلك هو الشعور بالغربة .
- أي غربة يا رجل ولم تبعد عن مصر عدة أسابيع !
- كانت بالنسبة لي عدة سنين .. اكتشفت أن مصر ليست بلداً .. بل قد أموت لو لم أتنفسها ، حتى لو كانت مليئة بالتراب والتلوث .. كنت أحلم يومياً بوكالة الغوري وشارع الأزهر والحسين والغورية والجمالية والمسافرخانة .. ونسيت أكوام الزبالة أمام الوكالة وخناقات سوق التبليطة .. وكنت أعرف أنني سأعود لأعاني من كل ذلك ومن الظروف المالية التي دفعتني أصلا للسفر ، ومن العجز عن إقامة المشروع الذي كنت أحلم به .. لكني لم أستطع الاستمرار.
- أعلم أن المصرين هناك لا يُعدُّون .. ألم تجد بينهم من يخفف غربتك ؟
- المصريون هناك مجرد آلات حاسبة للنقود بلا مشاعر .. ليسوا من صنفنا .. حتى لو كانوا يعملون في مهن مثلنا .. وقد يسخرون منك لو حدثتهم في مثل هذه الأشياء ..

كانت مجموعة الشباب قد وقفت بعيداً عنهما في انتظار فرصة يستأذنون فيها من شوقي حين رأوه مشغولاً بصديقه ، ولما طال الحديث تقدم إليه بسيوني وأستأذن نيابة عنهم في الانصراف ، فقام بتعريفهم بعامر ، قال بسيوني أنهم يعرفونه جيداً كفنان . وحكى له شوقي الدور الرائع الذي قاموا به في التضامن معه ، فرد بأنه كان يتابع القضية في الصحافة المصرية أثناء وجوده بالخارج ، ويشعر بضرورة أن يكون إلى جوار صاحبه ، وصافحهما الشباب وانصرفوا .

اصطحب شوقي صديقه إلى الركن الذي تعرض فيه لوحاته .. فقال عامر :

- لقد شاهدتها بالطبع وأصبت بدهشة شديدة .
- تقصد أن تقول بصدمة شديدة !
- بالعكس .. أقصد أنها نقلة ساخنة في أسلوبك .. قد تأخذك إلى سكة جديدة تماماً .

- صدقني أنني لم أكن أفكر في الأسلوب بهذا المعنى التقني .. ويمكنني القول أن الأزمة هي التي أخذتني إلى هذا الطريق .. وتركت نفسي لتأثيرها.. وتكفل العقل الباطن بالقيام بأغلب المهمة .
- المسألة ببساطة أنك كنت ترسم نفسك وأنت تطل إلى أعماقك ، فخرجت النتيجة بهذا الصدق .. وأنت تعرف رأيي في أعمالك من زمان .. ودائماً كنت أقول إنك ترسم من ذهنك وبصرك .. لكنك اليوم تغمس ريشتك في قلبك وبصيرتك !

ضحك شوقي قائلاً :

- أأعتبر ذلك مديحاً أم وصماً بالرومانسية ؟
- أما المديح فلستَ في حاجة إليه .. وشهادتي عنك مجروحة لأنك تعرف كم أحبك مهما فعلت .. وأما الرومانسية فهي طبع أصيل فيك لا تستطيع إنكاره حتى في أعمالك العقلانية .. وهذا مكمن التناقض بداخلك .. كما أن الرومانسية لم تكن يوماً وصمة ، إنما المشكلة هي عندما تتحول الرومانسية إلى « رطرطة عاطفية » .. وأنت لا تفعل ذلك .

ربّت شوقي على كتفه ممتناً وقال :

- إذا كنت قد شاهدت بقية المعرض فهيا لأعزمك على الشاي في مقهى ريش.

في الطريق إلى المقهى قال له عامر بجدية شديدة :

- أريد أن أحدثك عن أحلام .

صدم شوقي بهذا التحول في الحديث ، وشعر بعكارة مفاجئة غيرت مزاجه ، وكان يعرف من زمان أن عامر يحبها حباً صامتاً ، وكان غير قادر على مصارحته به لشعوره بأن الأمر بالغ الحساسية والحرج ، كونه شخصياً العقبة التي تحُول دون تبادل المشاعر بينها وبين عامر ، لتأكده من أنها متورطة في حبه هو ، بنفس قدر تأكده من أنها علاقة مستحيلة بالنسبة لكليهما، كونهما – عامر وأحلام– متزوجان .. سأله شوقي بصوت حاول أن يكون محايدا :

- مالها ؟
- البُنَيَّة تعبانة جداً !
- لماذا ؟
- بسببك طبعاً .
- وماذا فعلت لها ؟
- لقد علمت بذهابك مع المحامي لاستلام لوحاتك من الوكالة .. وقطعَتْ سفرها إلى الساحل الشمالي .
- وماذا في ذلك ؟
- أنت تعرف ما يمكن ان يحدث لها لو دخل الموضوع في سكة المحاكم .. سيتخلى عنها الجميع .
- وماذا كنت تنتظر مني أن أفعل ؟ .. أن اتسلم لوحاتي أشلاء ممزقة وأخلى مسئوليتها ؟
- يا شوقي أنت تعلم أن البنت تحبك .. وكل ما فعلته كان رد فعل لتجاهلك لها .. تصرفت كأنثى جريحة .. صدقني لو قلت إنها لم تكن تريد إيذاءك ، بل كانت تريد أن تثبت لك أنها قادرة على تحديك والوقوف نداً لك ..هذا غباء بالتأكيد .. بل جنون دون شك .. لكن .
- من الآخر يا عامر أسألك : ماذا تريدني أن أفعل ؟ .. أن أعود إلى امرأة تخلت عن زوجها وهو على فراش الموت وهو يتوسل إليها ان تبقى بجواره حتى يجري عملية قد لا يعود منها فرفضت .. هل لمثلها أمان ؟
- العشق يفعل أكثر من ذلك .. ألا تقرأ صفحة الحوادث كل يوم ؟
- إسمعني جيداً يا عامر .. هذا أمر انتهى من زمان وقمنا بدفنه .. والموتى لا يعودون .. وما حدث في المسافرخانة جريمة مكتملة .. وأحلام ضلع فيها .. صحيح أنها كانت مجرد أداة استخدمها المجرمون ثم ألقوا بها بعد أن حملت وزرهم . لكنهم تركو جثة القتيل – وهو أنا– في حوزتها وأيديهم نظيفة من دمي .. فهل يبرر لها حبها لي – كما تقول – خيانة ضميرها قبل خيانتي ؟

.. والآن هي تدفع ثمن خيانة نفسها قبل ثمن خيانة الأمانة .. فهل أكافئها على ذلك ؟

كانا قد دخلا شارع طلعت حرب واقتربا من مقهى ريش ، وفجأة توقف عامر فوق الرصيف قائلاً :

- سامحني لن أستطيع الذهاب معك إلى المقهى الآن .. أشعر بإرهاق شديد ولابد أن اعود إلى البيت .. تصبح على خير .

وانطلق عائداً إلى ميدان التحرير بخطى سريعة ، دون أن يترك فرصة لشوقي لإقناعه بقبول دعوته .

(٥٧)

إنتظر شوقي مع الأستاذ الهلالي منذ التاسعة صباحاً في الطرقة شحيحة الضوء ، لم يجد مقاعد خالية أمام قاعة المحكمة ريثما يأتي الدور على قضيته ، أوشكت الساعة الآن على الحادية عشرة ، وانضم إليهما عدد من شباب الفنانين كما سبق أن وعدوه . كان « رول » القضايا يضم أكثر من ثمانين قضية ونودي على أكثر من نصفها ، حيث يستغرق بعضها عدة دقائق ثم تؤجل لأي سبب ، وقد يستغرق البعض الآخر أكثر من عشر دقائق .

كانت حالة شوقي تتأرجح بين القلق والاضطراب الشديد ، وبين دقيقة وأخرى يسأل الأستاذ وهو يراه لأول مرة بروب المحاماة غريباً عليه :

- لماذا يعملون بهذا البطء؟

أو يسأل عن عدد التوقيعات على بيان المثقفين فيخبره بأنه تجاوز المائتين ، إضافة إلى المقالات الصحفية .. فيعود ويسأل :

- حضرتك متأكد أن الحكم سيصدر اليوم ؟
- الدعوة أصلاً محجوزة للحكم .. لكن قد يتم تأجيلها أحياناً لو أُدخلت مذكرة جديدة أو مستندات تغير مسار الدعوى أو طالت المرافعة أكثر من المعتاد ..

وفجأة لمح وجه طلال محامي الهيئة على مقربة منهما . تجاهل النظر إليه وكذلك فعل هو ، تشاغل طلال بالحديث مع أحد الأشخاص ، أما الشباب فكانوا في حالة استغراب لجو المحكمة ، إذ يختلف عما يظهر في الأفلام والمسلسلات التليفزيونية .. فهنا زحام كثيف بلا هيبة أو قداسة ، وممرات كئيبة معتمة ، وجميع الواقفين في الانتظار يتكلمون في نفس الوقت فيصنعون ضوضاء مستمرة .

وفجأة نودي على رقم القضية وعلى إسمه ، وقد التقطهما بصعوبة وسط الضوضاء . شق شوقي والأستاذ الهلالي طريقهما وسط الزحام حتى دخلا قاعة المحكمة بمشقة ، بينما منع الحارس الشباب من الدخول .

كان القضاة الثلاثة فوق المنصة بأوشحتهم الخضراء غارقين بين أكوام من الملفات ، لا يكادون ينظرون أمامهم إلى المتقاضين أو المحامين ، مركزين أبصارهم في الأوراق . استعرض الأستاذ الهلالي في مرافعته وقائع الدعوى مستشهداً بمستند أو أكثر لكل نقطة ، حريصاً على الاختصار الشديد في تبيان أوجه الاستبداد بالسلطة في قرارَيْ رئيس الهيئة وعنصر النية المبيتة للعدوان ؛ أولهما النقل التعسفي المهين بتقليل المستوى الوظيفي لموكله من مدير قصر لمدة عشر سنوات إلى « لا وظيفة » بوضعه كاحتياطي تحت الطلب في إدارة التنظيم ، بما يشكل نوعاً من العقاب التأديبي دون أن يسبقه تحقيق يثبت مخالفة يستحق عنها العقاب ، وما ترتب على هذا التعسف والاستبداد من أزمة نفسية لفنان مرهف المشاعر له مكانته في الحركة الفنية وهو لا يملك أسلحة إلا فرشاته وألوانه وأحاسيسه الرقيقة ومقالاته الهادفة للنهوض بالفن والفنانين . مما أدى إلى إصابته بحالة نفسية تهدده باكتئاب مرضي حاد لو أُرغم على تنفيذ النقل الظالم .. وبالنسبة للقرار الثاني بفصله من الخدمة تحت زعم قبول استقالته فهو أنكى وأشد استبداداً وظلماً ، فموكله لم ينقطع يوماً عن العمل بالثقافة الجماهيرية التي احتضنته كأحد رواد العمل بقصورها الثقافية إلى حين تسوية انتدابه إليها بواسطة وكيل أول وزارة الثقافة ورئيس قطاع مكتب وزير الثقافة ، الذي أرسل إلى الهيئة يطلب موافقتها على انتدابه إلى الثقافة الجماهيرية كوضع مؤقت لحين نقله بصفة نهائية إليها ، فلم ترد الهيئة على الطلب

سواء بالإيجاب أم بالرفض، مما يظهر أن النية كانت مبيتة لما أقدمت عليه مؤخراً ، في الوقت الذي كان موكله قد ضغط على نفسه وعرض على الهيئة استعداده لتنفيذ قرار النقل حين استشعر نية الغدر به ، فإذا به يفاجأ وهو يمد يده بالسلام بقرار آخر بقبول استقالته .. وقد أتت كل هذا التداعيات على خلفية تعرُّض مرسمه ولوحاته بل وحياته ذاتها– وهو الذي يقوم بالأشراف على القصر – لاعتداد همجي مدبَّر من قبل الهيئة بالاستعانة بأشقياء محترفين ، كما يتضح من محاضر الشرطة المودعة محاضرها بحافظة المستندات .. وهو الاعتداء الذي وصفه مئات الكتاب والفنانين والمثقفين ، في بيان أصدروه ووقعوا عليه ، بالبربرية والتخلف الحضاري ، كما يتضح من المستندات المعروضة أمام عدالة المحكمة . وطوى الأستاذ الهلالي أوراقه، وبدا وكأنه انتهى من مرافعته ، لكنه وضع يديه فوق حافة المنصة وقال في نبرة عميقة مؤثرة :

– « حضرات القضاة الأجلاء .. أرجو ان تسمحوا لي بدقيقتين من وقتكم الثمين .. ماذا بوسع إنسان حاصرته النيران بعد أن أجهزت على بيته وفلذات كبده إلا أن يحتمي بأقرب بيت إليه ، لينقذ آخر ما تبقى له .. وهي روحه ؟ .. فما بالنا إذا كان هذا الإنسان فناناً مرهف الشعور ، وإذا كان أولاده الذين قضى عليهم الغدر هم لوحاته وحصاد عمره ! .. أيحاسب إذا رفض اللجوء إلى من دمر بيته وقتل أبناءه ؟ هذا يا حضرات القضاة هو ما فعله موكلي باللجوء إلى بيت الثقافة الجماهيرية هرباً من بيت الطاعة بهيئة الفنون والآداب ، وكلاهما تحت مظلة واحدة وهي وزارة الثقافة ، وانظروا إلى هذه المفارقة : فهيئة الفنون والآداب المنوط بها – حتى من أسمها – أن تكون الحامية له ولقيم الجمال والإبداع ، هي بعينها السكين الذي ذبحه وذبح فلذات إبداعه ، ضاربة عرض الحائط بكل تاريخ الحضارة الإنسانية لتعود بنا إلى عصر الغاب.

حضرات القضاة المحترمين .. إن العدل والرحمة هما روح القانون وجوهر نصوصه، فألتمس منكم النظر إلى موكلي بعيونهما قبل نصوصه .. أي النظر بروح القانون ، مقدرين دواعي رفض موكلي الامتثال لاغتياله للمرة الثانية ؛ فالمرة الأولى كانت

اغتيالاً مادياً بتدمير لوحاته وبيت إبداعه وأعني به مرسمه الخاص ، أما المرة الثانية فكانت اغتيالاً معنوياً ، بانتزاعه عُنوة كأسير مُهان إلى بيت الطاعة، ليكون عبرة لمن تسوَّل له نفسه الاعتراض على فساد .

لذا أطلب من عدالتكم إلغاء قرار رئيس الهيئة بفصل موكلي من الخدمة تحت مسمى استقالته ، وكذلك إلغاء القرار السابق بنقله إلى إدارة التنظيم بالهيئة ، لإنقاذه من القهر والاغتيال المعنوي الذي يؤدي إلى إصابته بأزمة تنذر بمرض بالغ الخطورة ، فتدمر رمزاً للقيم الحضارية وللضمير الإنساني .. والسلام عليكم .

سأل أحد القضاة الأستاذ الهلالي عن الدافع للهيئة إلى ممارسة هذا العدوان على موكله ، فأحاله إلى المستندات المقدمة ، ومنها التحقيق الصحفي بمجلة الأسبوع المصور الذي يحمل اتهامات مباشرة إلى موكله على ألسنة رئيس الهيئة وقياداتها وهي تدور حول أسباب سياسية ، بما يدل على أن الدوافع سياسية لديهم ولا علاقة لها بطبيعة عمله ، مما استنفر ضمائر كبار الكتاب والصحفيين للدفاع عنه في صحف ومجلات محترمة تابعة للدولة ، وأظهر الأستاذ للقاضي صوراً مما نُشر في مجلة روز اليوسف وصحيفة الأخبار .

طوال المرافعة خيم الصمت على القاعة في جو أقرب إلى الخشوع ، ولم يتعرض لأي مقاطعة من أحد القضاة ، وكانوا أثناءها يتبادلون النظر في المستندات التي يقدم المحامي كلاً منها في النقطة التي يذكرها خلال المرافعة .

والتفت رئيس الجلسة إلى طلال محامي الهيئة وسأله :

- أتريد أن تقول شيئاً ؟

فرد بقوله :

- شكراً يا سيادة الريس .. كل ما أود قوله موضح في المذكرة المقدمة لسيادتكم وليس هناك ما أضيفه .

تبادل رئيس الجلسة المشورة مع زميليه فوق المنصة ، ثم أعلن أن الحكم في نهاية الجلسة ، ونادى على القضية التالية .

خرج شوقي من القاعة المزدحمة في أعقاب الأستاذ الهلالي ، فشكره بحرارة قائلاً :

- يسلم لسانك .. كانت مرافعة تاريخية !

والتقيا في الممر الخارجي بشباب الفنانين الذين أسرعوا إليهما في لهفة متسائلين عن النتيجة ، كانت حالة الرضا البادية على وجهي شوقي والأستاذ كافية للتعبير عن حالهما .. طمأنهم شوقي بأنهم في انتظار صدور الحكم في آخر الجلسة ، وأشار إلى أن القضاة أفسحوا صدورهم ووقتهم لمرافعة الأستاذ الرائعة .. وعلينا الآن الانتظار حتى يتم النظر في بقية القضايا ثم يعلن الأحكام بعد ذلك ..

وأخيراً انتهت القضايا المدرجة في « الرول » وخلت القاعة إلا ممن ينتظرون صدور الأحكام بعد انتهاء المداولات بين القضاة وراء باب غرفة مغلقة . مر الوقت بطيئاً شديد الوطأة على الجميع ، فيما عدا الأستاذ الهلالي الذي جلس هادئاً مطمئناً لاعتياده مثل هذا الموقف ، وكان يحاول نقل حالة الاطمئنان هذه إلى شوقي من حين لآخر . وقُرب الساعة الثانية نادي الحاجب بصوت جهوري :

- محكمة !

وخرج بعدها القضاة واتخذوا أماكنهم فوق المنصة . راح رئيس المحكمة يقرأ بسرعة الأحكام واحداً تلو الآخر ، وضربات قلب شوقي تدوي كالطبول في صدره ، حتى وصل القاضي إلى قضيته وذكر رقمها واسمه الرباعي ثم أعلن الحكم قائلاً :

« حكمت المحكمة بإلغاء قراري الهيئة العامة للفنون والآداب.. الأول بشأن نقل المدعي إلى إدارة التنظيم والثاني بشأن قبول استقالته من وظيفته كمدير لقصر المسافرخانة .. وينفذ الحكم بمسودته » .

اندفع الشباب في صرخة مدوية بفرحة النصر فاهتزت أركان القاعة شاهقة الارتفاع. ودق القاضي بمطرقته الخشبية صائحاً : « هدوء ! » .. حيث لا تزال أمامه أحكام في قضايا أخرى حتى ترفع الجلسة . اندفع شوقي واحتضن الأستاذ الهلالي والدموع تنهمر من عينيه . أمر القاضي بإخلاء القاعة ممن صدرت الأحكام بشأنهم واستأنف نطق بقية الأحكام . أسرع الأستاذ بالإشارة بيده إلى الشباب لمغادرة القاعة

محذرا من أي صوت ، وما أن غادروا القاعة حتى اندفعوا يحتضون شوقي بالجملة دون انتظار لأخْذ أدوارهم ، والتف حولهم عمال المحكمة مهنئين ومطالبين بـ « الحلاوة » ، فسارع أكثر من واحد من الشباب بإخراج ما بجيبه من نقود قليلة وتوزيعه عليهم . فوق ما منحه هو لهم بسخاء ، وواصل الشباب تعبيرهم عن الفرحة العارمة بالضحكات والتعليقات في مظاهرة مرحة حتى غادروا مبنى المحكمة . وعند السلم الخارجي سمع شوقي من يناديه ، التفت فإذا به طلال المحامي عن الهيئة . الذي صافحه مهنئاً : « مبروك » .. وابتسامة باهتة على فمه . تذكر الأستاذ الهلالي أنه رآه في جلسة المرافعة لثوان خاطفة . لم ينتظر طلال لسماع أي تعليق بل أسرع بالانصراف وسط دهشة شوقي والأستاذ .

(٥٨)

لم يسارع شوقي بالذهاب إلى شئون العاملين بالهيئة لتنفيذ حكم المحكمة ، فضل الانتظار بضعة أيام حتى يحصل على حيثياته مطبوعة على الآلة الكاتبة ليعلنها مدوية في كل مكان رغم لهفته الشديدة على رؤية وجهي عبد المتعال ومحمود السيد وهما يتلقيان منطوق الحكم : لكن الأهم هو أن يرى رد الفعل على وجه قدري بيه ، وبأية ألوان سوف يكتسي من الصدمة !

تمنى وهو في طريقه إلى منزله ، أن يصعد فوق مئذنة جامع المؤيد شيخ ليصيح معلنا انتصاره ، إنه المكان المناسب لأن تسمعه فريدة ، فهي الأجدر من أي شخص آخر بسماع هذا الخبر ومن هذا المكان بالذات ، ثم استدرك قائلاً : من المؤكد أنها عرفت به قبل الجميع ، فهي لم تبعد عنه لحظة منذ رحيلها ، ولعل روحها كانت تحلق فوق قاعة المحكمة وترى كل الحاضرين ولا يرها أحد .. لا يدري لماذا سيطرت عليه رغبة في إبلاغ « أحلام » بالحكم ورؤية رد فعلها ، ربما علمت برحيل فريدة ، وربما شعرت بالشماتة .. والآن ؟ .. دعنا ننتظر ! .. لم يأت بعد دورها لتدفع الثمن ، وها هو طلال المحامي الذي شهد على توقيعها على ذلك القرار باستلامها لكل اللوحات سليمة ، مستعد لبيعها والزج بها في السجن جزاء لتبديدها

الأمانة ، إنهما من فصيلة واحدة ، رغم التزامه الصمت اليوم عن الرد على مرافعة الأستاذ الهلالي عندما انطلقت كلماته النارية فكانت هي فصل الخطاب ..

« كان يراهن على استثمار انتصاري لصالحه بعد أن قرر الاستقالة من عمله في الإدارة القانونية بالهيئة ، فهو مثل المنشار (طالع واكل نازل واكل) ، واستثماره القادم سيكون في أحلام وفيَّ معاً ، كما أشار عند لقائنا بالهيئة عن استعداده للوقوف إلى جانبي بكافة المستندات والمعلومات التي لديه كمحام عن الهيئة ، وليس لذلك معنى إلا أن يتولى بنفسه قضية التعويض – ربما السجن– ضد أحلام ، وبذلك يضمن نسبته في التعويض » .

عندما وصل إلى البيت كانت خيوط الفكرة قد تبلورت في رأسه ، حاول إبعادها عن خاطره فلم يستطع .. « لاشك أن الانتقام غريزة أصيلة في الإنسان ، وقد يقل تحكُّمها فيه كلما كان أكثر تحضُّرا .. لكن هل من السهل قمعها والسيطرة عليها في مواجهة الشر المتجسد بالوحشية والخيانة ؟ .. وأليست العقوبات القانونية نوعاً متحضراً من الانتقام نيابة عن الأشخاص بأيديهم ؟ .. لكن القانون قد يكتفي في القضايا الإدارية بإرجاع الحق إلى من استلب حقه ، ولا يؤسس لتعويض عن استلابه ، وهو ما حدث معي أخيراً، وهذا ظلم في الحقيقة وقصور في القانون ؛ فهل يتحقق العدل بمجرد استرداد حقه ، وعفا الله عما أصابه من جرَّاء استلابه ثم يهتف: يحيا العدل ؟ .. إن الحكم الذي حصلْتَ عليه اليوم لا يعطيك غير حق العودة واسترداد ما اقتطع من مرتبك أثناء سريان القرار التعسفي عليك ، لكنه لا يعيد إليك حقك فيما سببه لك من أذى مادي ومعنوي » .

وتذكر نكتة رواها صديقه الشاعر أحمد فؤاد نجم في إحدى ليالي الزنزانة ، عن رجل كان عائداً إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل ، قابلته عصابة من اللصوص في منطقة مقطوعة من المارة ، فأمرته بتسليمهم حافظة نقوده تحت تهديد السكين ففعل ، ثم أمروه بتسليمهم ساعة يده ففعل ، ثم جردوه من ملابسه قطعة قطعة وهو ينفذ الأوامر صاغراً وهو تحت تهديد السكين ، حتى من « لباسه » الذي يستر عورته .. وعندما أطلقوا سراحه انحنى على قدم زعيمهم وَقَبَّلها ، مستعطفاً إياه

أن يترك لـه «لباسـه »ليستر عورتـه أمـام أهل الحـارة وأهل بيتـه ، فَرَقَّ قلبـه وأمسك «باللباس» قـائلاً : سنعطيه لك بشرط أن تلتزم الصمت وألا تسير من هذا الطريق مرة أخرى أو أن تخبر أحداً بما جرى لك ، وإلا فستكون نهايتك ، فحلف له برحمة أمه ألا يفعل ، وخطف «اللباس» وجرى عارياً وهو يلوح به في الهواء ويهتف فرحاً : يحيا العدل! يحيا العدل ! .

ورغم أن القانون يمكن أن يدين من اقترفوا جريمة تحطيم لوحاته من خلال قضية أخرى بعيداً عن القضاء الإداري ، فلن يكون ممكناً استعادة هذه اللوحات أبداً، وقد لا يستطيع معاقبة المجرمين الأصليين – قدري ومستشاريه – لصعوبة إثبات المؤامرة بالأدلة القاطعة عليهم ، فأقصاها أن يعاقب الأيدي القذرة التي قامت بتنفيذ المؤامرة ، وسيبقى المجرم الحقيقي حراً طليقاً بغير عقاب ، «وبفرض أن القانون أيدك في طلب التعويض المادي عنها فلن يدفعه إلا أحلام .. ولم لا .. ألم تتواطأ مع المجرمين ؟ .. فلتشرب من نفس الكأس التي سقتني إياه ! ».

كان أول ما فعله بعد وصوله إلى البيت هو البحث عن بطاقة الأستاذ طلال المحامي والاتصال به ، وعندما رد عليه شكره على موقفه في المحكمة بالتنازل عن حقه في المرافعة اكتفاءً بالمذكرة التي قدمها إليها . رد قائلاً :

- في الحقيقة أنا فكرت في التغيب عن الجلسة .. لكن ذلك كان سيعرضني للمساءلة القانونية ، فاخترت أضعف الإيمان بعدم التعليق على مرافعة الأستاذ الهلالي .
- لقد أثبت بموقفك هذا ما سبق أن ذكرته لي عندما التقينا في الهيئة بخصوص مدام أحلام ، وأعلنت خلاله استعدادك لمباشرة قضية تبديد لوحاتي وهي أمانة تحت يدها .. ألا يزال لديك الاستعداد للقيام بهذه المهمة ؟
- طبعاً .. لكنني مضطر مؤقتاً إلى عدم وضع اسمي على القضية كمحام ، بل سنضع اسم مكتب المحاماة الذي أعمل من خلاله بجانب عملي في الهيئة .
- لا بأس .. هل يمكن أن نلتقي للترتيب لهذا الأمر ؟
- أنا تحت أمرك .. متى تحب أن نلتقي وأين ؟

- السبت القادم بمرسم زميلنا الفنان عامر البحراوي بوكالة الغوري الساعة ١٢.
- ولماذا في الوكالة ؟. لا أفضل اللقاء هناك لحساسية موقفي .
- الأستاذ عامر صديق عزيز ومحل ثقة .. وسوف تدخل من باب الوكالة إلى باب مرسمه مباشرة وبدون المرور على الإدارة .. وحتى لو رآك أحد العاملين بها فما المشكلة ؟ .. إنه بعيد تماماً عن شئون الوكالة .. ولا يزال في إجازة رسمية بعد رجوعه من السعودية .. وسوف أسبقك في الحضور وكأنك ستفاجأ بوجودي عنده .. ثم نخرج من هناك إلى إي مكان آخر .

بعد فترة تفكير وتردد وافق طلال على الاقتراح ، وأخذ عليه عهداً بأن يبقى الأمر سراً بينهما في الفترة الحالية على الأقل إلى أن يستقيل من الهيئة ، وأنهيا المكالمة بمودة وكأنهما أصدقاء قدامى ، ثم قام بالاتصال بعامر بمنزله ، فرحب به وكرر اعتذاره عن تلبية دعوته على مقهى ريش ، أخبره شوقي بنبأ الحكم القضائي الذي صدر اليوم بعودته إلى عمله . على الجانب الآخر من الخط جلجل صوت عامر فرحاً ومهنئاً ، وأعلن أنهما يجب أن يحتفلا بهذه المناسبة التاريخية في مرسمه . سأله :

- أنت وأنا وحدنا ؟
- لا طبعاً .. سندعو كل الأصدقاء والزملاء .
- أنا أفضل أن تدعو شخصاً واحداً هذه المرة .. بعد ذلك نقيم احتفالاً موسعاً .
- من هو هذا الشخص ؟
- الحقيقة أنني أعدت التفكير في حديثك عند لقائنا الأخير عن أحلام فما رأيك؟

صمت عامر وأطال الصمت ، فأضطر شوقي للسؤال عما إذا كان لا يزال معه ، فقال عامر :

- هل أنت جاد؟ .. لقد كنت منذ يومين في خصومة صفرية معها حتى يئست تماماً من تغيير رأيك .. فماذا جرى ؟
- ما جرى هو قرار المحكمة اليوم .. فقد أعاد إليَّ التوازن النفسي الذي كنت أفتقده .. فقد رد اعتباري بشكل لا يدانيه أي انتقام ممن آذوني .. فوق

الاعتبارات الإنسانية القديمة لعلاقتنا .. وقلت لنفسي : بما أنها بحالة نفسية سيئة كما وصفتها فما المانع من أن نبدأ صفحة جديدة كزملاء فقط ؟

هلل عامر ورحب قائلاً :

- هذه خطوة شجاعة .. طيب متى وأين ؟

فاقترح عليه نفس المكان والزمان اللذين حددهما لطلال دون أن يشير إلى هذا الاتفاق ، وبعد أن وضع سماعة التليفون فرك يديه سروراً ، متجاهلاً في ذات الوقت صوتاً داخلياً يستنكر ما يخطط له ، لكنه قمعه في حسم معتبراً إياه صوتاً غير مرغوب فيه .. قائلاً لنفسه : من حق الشيطان الصغير بداخلي أن يأخذ فرصته ولو مرة !

(٥٩)

جاءت الصيغة الرسمية لحكم المحكمة التي استلمها الأستاذ الهلالي مفاجأة سعيدة لشوقي ، بعد أن التهمها بشغف وإمعان وهو جالس بمكتبه ، والحكم في مجمله يتبنى مضمون مرافعة الأستاذ في المحكمة بل يستخدم الكثير من تعبيراتها أو من الجمل الواردة في عريضة الدعوى وفي المذكرة اللاحقة بها ، مشيراً إلى مختلف مظاهر العدوان والاستبداد بالسلطة والتخلف الحضاري والاقطاع الوظيفي من قِبَل الهيئة ورئيسها ومدير مكتبه مما أثبته محضر شرطة قسم الجمالية ، بما يتنافى مع رسالة الهيئة في رعاية الفنانين والحفاظ على حقوقهم ، كما يشير إلى مسئولية رئيس الهيئة عن أفعال أحد مرؤوسيه الذي ادعى صلته بوزارة الداخلية كنوع من الترهيب للمجني عليه ، وبنى مسئولية رئيس الهيئة عن ذلك بحكم العلاقة بين التابع والمتبوع كمبدأ قانوني ، كما أشار إلى بيان الكُتَّاب والفنانين والمثقفين الذي أدان أفعال الهيئة وأثبت وقوفهم إلى جانب القيم الحضارية والأخلاقية التي تم انتهاكها بتحطيم المرسم واللوحات الفنية ، إلى جانب مقالات الرأي بالصحافة التي استنكرت هذه الأفعال الهمجية ضد المجني عليه ..

هب شوقي واقفاً وقد سرت في جسده شحنة كهربائية مضيئة ، وشعر بأنه خفيف الوزن قادر على أن يقفز ويطير ويحتضن كل الناس ، وقال للأستاذ :

- لو خيَّروني بين تعويضٍ ماليٍّ بملايين الجنيهات عما حدث وبين هذا الحكم لفضلته عليها بغير تردد ! .. أشعر الآن بقوة أستطيع بها مواجهة كل قوي الشر في العالم .. ماذا تقترح يا أستاذ للإعلان عن هذا الحكم ؟

ضحك الأستاذ قائلاً :

- معك الحق في كل هذه السعادة .. لكن قبل كل شيء ينبغي أن نقوم بتنفيذ الحكم في الصباح لتعود إلى عملك ومرسمك .
- عليَّ القيام بمهمة صغيرة قبل الذهاب إلى الهيئة .
- وهي ؟
- لا تتعجل .. سوف أقولها لك يوم السبت .. أي بعد غد .

قال الأستاذ باستغراب شديد :

- أهناك أهم من عودتك لعملك ومرسمك ؟
- بالمعايير النفسية نعم .. هناك ما يعادل هذا النصر .. لكن من الضروري الآن أن نفكر في كيفية نشر صيغة الحكم على أوسع نطاق .. سيكون دويُّه كالقنبلة .
- عليك بالأستاذ صلاح حافظ في روز اليوسف ، سيكون انتصاراً للمجلة أيضاً.
- سأتجه إليه حالاً ،. ثم نقوم بحملة لنشره في جميع الكليات والمعاهد الفنية ليوضع إلى جانب مقال الأستاذ بيكار .. والشباب جاهزون لذلك .
- مهلاً يا فنان .. هناك ما هو أهم ..
- تعنى أن ننشره في مكان آخر ؟
- لا .. بل أعني المذكرة التي ستقدم إلى المحكمة بجلستها التي تحدد لها موعد المداولة في الأسبوع القادم .. قضية التعويض ضد مجلة الأسبوع المصور .. إن الحكم الذي بأيدينا الآن أبلغ رد على ما إتهموك به .. وأقوى إثبات لما

ذكرناه بعريضة الدعوى .. وسوف نحتاج . إلى جانب ذلك – للشاهدين اللذين طلبنا استماع المحكمة إلى شهادتيهما وكلاهما ذو صلة بالموضوع .

- من هما يا استاذي .. أعذرني لأن الفرحة أنستني الكثير .
- الأول هو الأستاذ صلاح حافظ .. باعتباره كاتب المقال الشهير الذي فجر القضية في الصحافة .. والثاني هو الفنان صالح رضا الذي يمثل الفنانين بأتيليه القاهرة ، حيث كتب استنكارا لفعل الهيئة باسم مجلس إدارة الأتيليه وقد تم إرساله إلى العديد من الجهات بالدولة .
- عظيم .. الآن سأذهب إلى الأستاذ صلاح بروز اليوسف .. وفي المساء أذهب لمقابلة الدكتور صالح رضا في الأتيليه ..
- أواثق من حضورهما ؟
- أعتقد أنهما لن يمانعاً .. صحيح أننا مختلفان في التكتيك لكنه يتفق معي في القرارات المصيرية ، كما أنه سيعتمد عليّ حين تبدأ انتخابات النقابة ، التي سيتقدم لخوضها عند فتح باب الترشح .
- على بركة الله ..

* * *

تجمع المحررون الشباب بروز اليوسف في مكتب الأستاذ صلاح حافظ بناء على استدعائهم للاحتفال بحكم المحكمة ، واتفقوا على نشره بالعدد القادم بمكان مميَّز ، وتبدَّد الهدوء والوقار في المكتب وسط الصخب والتعليقات التي شارك فيها الأستاذ احتفالاً بنجاح الحملة التي تبنتها المجلة قبل القضية وأثناءها ، مما شجع شوقي لإبلاغ الأستاذ صلاح بموعد الجلسة في قضية التشهير به ردا على روز اليوسف ، وسأله محرجاً عما إذا كان مستعدا للشهادة معه في المحكمة أم لا .. فعلق ساخراً :

- سترجعني إلى المحاكم من جديد يا سي شوقي .. أكيد أن عمنا نبيل الهلالي هو الذي سلَّطك عليّ !
- لكنك ستذهب هذه المرة شاهدا لا متهما كالمرات السابقة !

وانطلقت الضحكات من قلوب صافية . وأوصى الأستاذ صلاح أحد المحررين بأن يذكره بموعد الجلسة في اليوم السابق له .

وعندما غادر المجلة سعيداً كان يستحضر صورة فريدة لتشاركه فرحته ، وفي طريقه إلى ميدان التحرير سيراً على قدميه ومنه إلى أتيليه القاهرة طفت على خاطره صورة الدكتور صالح رضا بملامحه الفارسية الصارمة أغلب الأوقات وهو يسمى ما يخوضه من قضايا : معارك مجانية بلا جدوى ولن يسمح النظام بهزيمته فيها . فسأله قائلاً بينه وبين نفسه : أتراها الآن معركة مجانية بلا جدوى ؟!

(٦٠)

قبل الموعد المحدد كان شوقي في مرسم عامر . وجد أحلام قد سبقته . سلم عليها بفتور ، فكان رد فعلها هو الترقب الحذر وهي تنظر نحوه متشاغلة بتقليب صفحات إحدى المجلات دون أن تقرأ شيئاً ، وعامر يوزع النظرات بينهما مستثاراً كمن يتوقع مفاجأة ما ، ويبدد الصمت بالحديث منفرداً ، بتعليقات بلا أهمية منه أو منها ، وعينا عامر تتابعهما باهتمام خاص لم يطمسه الاتفاق الصامت غير المعلن بينهما (عامر وأحلام) على إغلاق أي أمل في نشوء علاقة عاطفية بينهما ، ذلك الاتفاق الذي لم يعترف به عامر إلا تحت يقين عقلاني باستحالة قيام هذه العاطفة من جانبها على الأقل ، فيما يتخذ قلبه مساره المستقل بعيدا عن العقل وإن كان يعجز عن التعبير عما يختلج بداخله ، وهذا ما يؤلم شوقي إشفاقاً على صديقه من هذا الانشطار النفسي، فوق ألمه لأنه يقف بلا حيلة تجاه عامر .. فيما كانت هي تبدو مضطربة لإحساسها بالتورط في فعل هي غير مقتنعة بالمسئولية عنه ولا بأنه يدينها، لكنه يهددها ويجعلها عاجزة عن الخروج من مستنقعه أو حتى عن تبريره. سألها عامر رغبة في كسر حاجز الصمت :

- هل هنَّأتِ شوقي بكسب القضية ؟
- ألف مبروك يا شوقي .. كنت سأبارك لك حالاً .

وجدها شوقي فرصة لإطلاق أول سهامه :

- لكنك لم تطَّلعي بعد على حيثيات الحكم .
- أين هي ؟
- ها هي معي .. واسمحا لي بقراءتها لكما إذا لم يكن لديكما مانع .
- لا طبعاً ..

قالها عامر بحماس ، فيما غمغمت هي بالموافقة بغير حماس ، فأخذ شوقي يقرأ مقتطفات من حيثيات الحكم مؤكدا على مخارج الحروف ، وكأنه يخاطب جماهير غير مرئية ، ومن حين لآخر يختلس النظر إلى وجه أحلام ليرى رد الفعل للكلمات والجمل على ملامحها ، لكنه بدا كقناع محايد لا يفصح عن أي انفعال ، على عكس وجه عامر الذي كان يشع باهتمام شديد وعيناه تلمعان بالإثارة ، وابتسامة ثابتة على شفتيه تعكس الطرب بما يسمع ، وعندما انتهى شوقي من القراءة سألهما عن رأيهما ، فبادر عامر قائلاً :

- قنبلة ! .. هذا قاضٍ عظيم واستثنائي ... هل تعرف اسمه ؟
- بالطبع .. اسمه المستشار جمال الدين عُلَما.
- ينصر دينه ! .. ما رأيك يا أحلام ؟
- مش بطال !
- يا شيخة حرام عليك قولي الحق .. مع أنك قبل أن يأتي شوقي منذ قليل كنت تقولين عنه كلاماً يشرح القلب !
- أنا أجيبك عن سؤالك عن القاضي لا عن شوقي .. أما شوقي فرأيي فيه لم يتغير .. إنه صديق محترم ورجل مبادئ تحمَّل ظلماً لا يستحقه بلا شك، لكن كلام القاضي خطبة سياسية ليست موجهة لهيئة الفنون بقدر ماهي موجهه للرأي العام .

قال شوقي :

- هل ترين ذلك عيباً ؟

- لا .. لكنه متأثر باتجاهك السياسي واتجاه المحامي الشيوعي الذي كتب مذكرة القضية .. وأغلب الظن أن القاضي نقل منها كثيراً من العبارات .

قال شوقي :

- على فكرة .. لقد علمت أن هذا القاضي رجل وفدي قديم وليس ميالاً للشيوعية.

قال عامر :

- أيا كان فكره .. لكن ألا ترين أن هذه العبارات تنطبق على قدري وأعوانه؟
- ليس تماماً .. وعلى كل حال فإنه كان يكفينا منطوق الحكم بإلغاء قرار فصل شوقي وعودته إلى وظيفته .. وهو المطلوب إثباته .
- لا يا عزيزتي .. ليس هذا هو كل المطلوب ؛ بل لا يقل عنه أهمية فضح الفساد والإجرام الذي يحميه قدري ويشجعه .. وهذا أمر غير بعيد عن السياسة كما تقولين ، لكنه ضروري جداً في هذه المرحلة .

وقطعت المناقشة طرقات على الباب الخارجي للمرسم ، ذهب عامر ليفتح .. كان طلال على الباب ، فتعانقا وعامر يقول مهللاً :

- يا لها من مفاجأة سعيدة ! .. أهلا أهلا .. تفضل .

قال طلال وهما يعبران الممر المعتم المؤدي إلى الباب الداخلي للمرسم :

- كنت في منطقة الأزهر لقضاء شأن خاص ووجدت نفسي قريباً منك . فقلت أهنئك بالعودة من السعودية والاطمئنان عليك .

دخل طلال المرسم لكنه وقف متسمراً في مكانه فور اكتشافه وجود أحلام ، وراح عامر يقدمه إليها وإلى شوقي الذي بادر بالقول :

- أعرف الأستاذ طلال طبعاً .. وتقابلنا في المحكمة قبل أيام .. فقد كان هو المحامي عن الهيئة في القضية .. وقد دعوته للحضور اليوم ليحتفل معنا بصدور الحكم بعد إذن عامر .. وأعتذر لأنني نسيت أن أخبرك .

بدت الدهشة الشديدة على وجهي عامر وأحلام وهما يتبادلان النظرات معاً ثم مع شوقي وطلال ، ووقفت السؤال محشوراً في حلقيهما .. ماذا وراء ذلك ؟

جلس الجميع وخيم عليهم طائر الصمت وذهول المفاجأة ، فيما عدا شوقي الذي جلس مسترخياً وقال لطلال ببسمة مرحبة :

- أهلا يا استاذ طلال .. كان بودي أن أستقبلك في مرسمي حتى نتم حديثنا الذي لم يكتمل في التليفون .. وعلى كل حال فمرسم عامر بمثابة مرسمي .. والزميلة أحلام ليست غريبة عليك فيما أظن .

وقفت قائلة :

- طيب .. أستأذنكم في الانصراف لأتيح لكماً الفرصة لإكمال حديثكما .
- لا .. أنت لست غريبة كما قلت .. فضلاً عن أن الموضوع الذي سنتحدث فيه يخصك بالأساس .
- يخصني أنا ؟ .. من أي جهة ؟
- فقط إجلسِي لو سمحت .. سنتكلم حالاً .

قالت بتحفز :

- تحدثوا أنتم براحتكم .. فليس لي شأن بحديثكما .
- حسناً .. سنرى إذا كان لحديثنا شأن بك أم لا .. شُوفي يا ستى (وأشار إلى طلال الذي نكَّس رأسه وشحب وجهه) الأستاذ طلال جاء لمقابلتي للاتفاق معي على تفاصيل القضية التي سيقوم برفعها بتفويض مني لمطالبتك بتعويض عن لوحاتي التي قمتِ بتبديدها بعد استلامك لها كأمانة لحين تسليمها إليّ، وهو شاهد على توقيعك بالاستلام طواعية بعيداً عن أي ضغط أو إكراه .. وسيكون التعويض بمبلغ خمسين ألف جنيه .. إضافة إلى العقوبة الجنائية بسجنك لخيانة الأمانة ، فهل هذا يخصك أم لا ؟

كانت أحلام لا تزال واقفة .. فوضعت يدها في وسطها وهي تهز إحدى ساقيها متحفزة بشراسة في مواجهة طلال وقد ضيَّقت عينيها اللتين تطلقان شرراً :

- ومَن الذي دبَّر كل شيء ؟ .. ألست أنت يا سيادة المحامي ؟ .. ومَن الذي كتب الإقرار متضمناً أن جميع اللوحات سليمة بينما هي أمامه محطمة فعلاً .. أنا أم أنت ؟ .. وأين كلامك ساعتها بأن هذه الأعمال ليست عهدة أصلا لدى الهيئة وليس لها أصول جرد سابق ليتم مضاهاتها بها .. وأن الهيئة لا تحاسَب عليها .. وأن الإقرار الذي وقعتُهُ مجرد ورقة شكلية لن يطلع عليها أحد ولن تُضم إلى ملف أي قضية لو قام شوقي برفعها ضد الهيئة .. وأنك ورئيس الهيئة وحسن السكري وجميع المحامين بالهيئة لن تسمحوا بأن يمسني أي ضرر .. وهل نسيت ما قلتُه لكم ذلك اليوم بأنني سأوقع على استلامها كأمانة لسبب واحد هو الحفاظ على ما بقي منها .. وانا أرى الجميع يريد التخلص من آثارها بأي شكل .. وأنني كصديقة لشوقي لابد أن أنقذه حتى من نفسه ؟ .. هل تنكر كل ذلك ؟

كان طلال يجلس مشدوها طوال حديثها ، ثم اعتدل متحفزاً للنزال في وضع زاوية قائمة بين جذعه وفخذيه .. ورد بقوة :

- لا يا هانم .. أذكرك بما قلتيه ساعتها بالنص .. لقد قلتِ إن شوقي يتصرف كحصان جامح انفلت لجامه ويجب إيقافه بأي شكل .. وعندما وعدوك بمنصب مدير المسافرخانة لو قطعتِ منحة التفرغ ثمناً لتوقيعك قلتِ إنك مستعدة للقيام بالتوقيع بلا أي مقابل .. فيكفيكِ أن ينكسر هذا الحصان الجامح .

علا صوتها وزاد انفعالها وهي تصيح :

- ها أنت تعترف بأنني رفضت أي مساومة على شوقي مهما كان الإغراء بمنصب أو غيره .. أما الحصان الجامح فهذه قصة من خيالك المريض ، لتسيء تأويل خوفي علي أعماله من اندفاعه الأهوج حتى لو استخدمتُ وصفاً مثل الحصان الذي يمكنكم كسره لو استمر في عناده .
- لا زلت تغالطين .. فلو كانت نواياك صادقة ما كنتِ استلمتِ هذه الأعمال أصلا وهي محطمة ولا تصلح لشيء .. هل تستطيعين أن تقولي ما فائدة

الاحتفاظ بها لو أنه استلمها وهي في هذه الحالة ؟.. ولو كان ذلك ممكناً فلماذا وافقتِ على أنها كانت سليمة وبنفس حالتها التي رأيتِها عليها مراراً في مرسمه حين كنت تزورينه كأصدقاء ؟

- أنت كذّاب ومنافق .. فلم أقل مثل هذا الكلام .
- بل أنت الكذّابة والمنافقة .. فبعد أن كتبتِ ذلك تدَّعين أنك لم تقوليه .
- أنا لم أقرأ ما كتبته لأوقع عليه .. وأعترف بأنني كنت مغفلة .
- القانون لا يحمي المغفلين .
- لم أكن أعرف وقتها أنك حقير إلى هذا الحد .
- إسمعي يا ست أنت .. لو تطاولت مرة ثانية أو تجاوزت حدك بكلمة أخرى فسوف أريك الآن حقيقتك . فأنت أكثر من مجرد كذَّابة ومنافقة وحقيرة .. وأنا الآن أكثر إصراراً على رفع القضية ضدك .. ولن أكتفي بطلب التعويض .. أقسم بالله لأسجنك !

وفجأة قام شوقي وهو يضحك بهستيرية .. صمت المتقاتلان وهما ينظران إليه في ذهول .. فقال من بين ضحكاته مشيراً إليهما بسبَّابته من أعلى إلى أسف ومن اليمن إلى الشمال :

- أتعرفان ماذا أرى أمامي ؟ .. عاريين (ملط) في ماتش مصارعة حرة .. رجل وامرأة مزقًّا هدوم بعضهما البعض .. منظر مضحك لعاريين .. لماذا سكتُّما؟ هيا أكملا الماتش .. أما أنا فأعلن أني أخذت الآن مقدم حقي في القضية ضدك يا أحلام .. والباقي سآخذه بحكم المحكمة من أموالك أو بدخولك السجن. (ثم وجَّه كلامه لطلال) حظ شيء يا مِتْر .. لن تهنأ برفع القضية .. لأنك شريك مفضوح في المؤامرة .. وأنا أسف لك يا عامر .. أنت وحدك هنا من يستحق الاعتذار .. لكن قد تُخفف متعتك بعرض المصارعة من غضبك مني .. سامحني يا صاحبي .. سلام ..

وغادر المرسم وصفق الباب خلفه !

(٦١)

أتيليه القاهرة يبدو الليلة مختلفاً عن أغلب الليالي في هذا العام (٧٦)، بمجرد تعليق حكم محكمة القضاء الإداري في لوحة الإعلانات ، حيث طغى على ما عداه من حكايات ومناقشات وحفلات نميمة ، مصحوبة بضجيج عالي النبرة أو بهمسات وتلميحات .. اليوم ونحن في شهر نوفمبر – أصبح التلميح تصريحاً والهمس إعلاناً للمعارضة ، ووجد المثقفون في حكم المحكمة متنفساً وباباً يدخلون منه لمناقشة قضايا الفساد في مختلف المواقع .. هكذا وجد شوقي نفسه محوراً في حلقات النقاش بالأتيليه ، بعد أن تحول حكم المحكمة إلى منشور قام أصدقاؤه الشباب بتوزيعه.

وفي أحد الأركان جلس شوقي مع الأستاذ راتب صِدِّيق رئيس الأتيليه والدكتور صالح رضا السكرتير العام ، فطلبا منه الترشح في انتخابات الجمعية العمومية للأتيليه التي ستعقد الشهر القادم لتجديد ثلث أعضاء مجلس الادارة التسعة. كان الفنان راتب في المعتاد يجلس مراقباً ما يدور في الأتيليه في صمت ، ونادراً ما يشارك في الحوار بجمل موجزة ، ولا يعود للإضافة إليها أو النقاش حولها ، فيبدو في شيخوخته العازفة عن أي جدل أو صراع أقرب إلى الحكيم الزاهد ، لكنه اليوم على غير عادته بدا متحمساً لإبداء رأيه والتعليق على الأحداث ، وأيَّد اقتراح الدكتور صالح لترشح شوقي في الانتخابات القادمة ، حين أعلن صالح بصوته الهادر وانفعاله الدائم – على عكس الأستاذ راتب – حاجة المجلس إلى صوت ثوري قوي ، لكنه صوت مختلف عن اليساريين المعروفين بكثرة الأقوال وقلة الأفعال . شكره شوقي ووجدها فرصة ليطلب منه الحضور للشهادة في المحكمة ، فوافق بدون تردد ، وطلب منه أن يُذكِّره بصيغة البيان الذي أصدره الأتيليه بخصوص قضيته نظراً لانقضاء فترة أنسته ما كتبه آنذاك ، فأخرج شوقي من الدوسيه الذي لا يفارقه نسخة منه وقرأها بصوت عال:

« يعبر مجلس إدارة أتيليه القاهرة باسم الفنانين والكتَّاب والمثقفين أعضاء جماعة أتيليه القاهرة عن احتجاجهم واستنكارهم للاعتداء الغاشم على مرسم الزميل الفنان شوقي نعمان بقصر المسافرخانة وما لحق به وبلوحاته من إتلاف وتدمير ،

ويعتبرون أن ما تعرض له يتجاوز كونه اعتداء على شخص معين إلى اعتباره اعتداء على كرامة الفنانين جميعاً وتهديداً لكيانهم ، بما يجعلهم يتضامنون من أجل حمايته ورد الاعتبار إليه ، وهو بالتالي رد الاعتبار إلينا جميعاً »

١٩٧٦/١٠/١٨ عنهم د. صالح محمد رضا

سكرتير عام الأتيليه

قال الدكتور صالح :

- على فكرة .. هذا الحكم القضائي يعد نقطة ضوء في ظلام هذا العام التعيس .. فلم نسمع خلاله خبراً يدعو للتفاؤل بإمكانية نجاح أي حركة في الوقوف لمواجهة تيار الفساد الذي يستشري في كل مكان .. لقد كسرت الدائرة بهذا الانتصار ، وليته يكون دافعاً لغيرك من المناضلين ليقاوموا بالعمل لا بالخطب في المنابر التي يكثر الحديث عن تشكيلها الآن في الإعلام .
- هناك الكثيرون يعملون في صمت يا دكتور لكنك لا تعرفهم ، سترى أحدهم يشهد معك في المحكمة وهو الأستاذ صلاح حافظ .
- وبالمناسبة ما هو المطلوب مني في هذه الشهادة ؟
- سترد على أسئلة القاضي حول معرفتك بي وهل قرأت ما نشرته عني مجلة الأسبوع المصور من اتهامات وتأكدت من أنني المقصود بها وما مدى إساءتها إليَّ في الوسط الفني والثقافي من خلال موقعك بالأتيليه . والبيان الذي أصدره بهذا الشأن .. وأشياء من هذا القبيل .
- ماشي الحال .. أكتب لي فقط ورقة بالموعد ومكان المحكمة وسأكون معك بكل تأكيد .
- وما أخبار نقابة التشكيليين ؟
- وزارة الثقافة تستعد للإعلان عن عقد الجمعية التأسيسية لها وفتح باب الترشح للانتخابات . وعلمت ان « صاحبك » أول من سيتقدم لمنصب النقيب.

وضحك ضحكة ساخرة ففهم أنه يقصد قدري عثمان رئيس هيئة الفنون .. وأكمل د. صالح:

- لذلك ستكون هديتي له هي طبع حكم المحكمة الخاص بك وتوزيعه كمنشور انتخابي في حملتي ضده لتشجيع الناخبين على انتخابه !

وتعالت ضحكاته التي شاركه فيها الأستاذ راتب حتى اهتز جسداهما ، وعلق الأخير من خلال ضحكه : ملعوبة !! .. ثم تابع بطريقته التي تجمع بين الجد والسخرية موجهاً حديثه إلى شوقي :

- على فكرة جاءني ضابط من المباحث يسألني عنك وعن نشاطك في الأتيليه.. فقلت له : مثل نشاطي تماماً .. قال : لكنك لست شيوعياً مثله .. فقلت له : ما دمت تعرف ميوله فلماذا تسألني ؟ .. قال : لأحذرك من خطره على الأتيليه .. فرددت عليه : الأتيليه لا يرى فيه أي خطر عليه .. ربما كنت تقصد أنه خطر عليكم انتم .. أما إذا لم يكن كذلك فأطمئنوا من ناحيتنا ولكم جزيل الشكر .

وضحك الثلاثة عالياً ، مما شجع بعض الجالسين بعيداً عنهم على الانضمام إليهم للمشاركة في حديثهم الضاحك ، حيث من النادر أن يسمعوا للأستاذ راتب صوتاً ، فإذا بهم يسمعون ضحكاته بصوت عال .

أعطى شوقي قصاصة سجل عليها موعد الجلسة ومكانها للدكتور صالح كما طلبها منه ، وانصرف بعد أن ودَّعهما لإحساسه المفاجئ بالجوع .. وتذكر أنه لم يتناول غداءه حتى الآن .

(٦٢)

عاد السكرتير الخاص للأستاذ عبدالمتعال بعد دقيقة واحدة من انتظار شوقي، وأبلغه بأن سيادة وكيل الوزارة في انتظاره . استقبله الوكيل بحرارة الملهوف على اللقاء قائلاً :

- أهلاً يا حبيبي .. نوَّرت بيتك ومطرحك .
- تاني ! (همس بها لنفسه ثم قال بصوت مسموع) أظنك لن تقول لي كما قلت سابقاً تعال غداً .. لأجد في انتظاري قراراً جديداً بالفصل !
- لا يكن قلبك أسود يا رجل !
- العفو لا سمح الله (وقدم إليه حكم المحكمة ثم أكمل) لكني جئت هذه المرة لأستلم قراراً بتنفيذ حكم المحكمة .. هل لديك مانع ؟
- لا مانع على الإطلاق .. على الرحب والسعة .. (ورفع سماعة التليفون وطلب رقماً داخلياً) أستاذ محمود .. تعال من فضلك .

« أهلاً ! » قالها شوقي في سِره .. « الآن سوف يأتي عشماوي ليقف أمامي ، لكن ليس لوضع الحبل حول عنقي بل لينفذ في الحال ما أمليه عليه» .. قال لوكيل الوزارة :

- سوف يقوم الأستاذ محمود بإعداد القرار الآن .. أليس كذلك ؟
- حالاً ..
- ولكنني لن أعود للمسافرخانة ..
- طيب إلى أين ؟
- إلى وكالة الغوري .. مديراً لإدارة المراسم في كل من المسافرخانة والوكالة .. وبالتالي يخصص لي مرسم خاص هناك .
- ولكن قرار المحكمة جاء بإلغاء قرارَي النقل وقبول الاستقالة .. بما يعني العودة إلى وضعك السابق بالمسافرخانة في المنصب ومكان العمل والمرسم .
- أعلم ذلك .. ولكن إذا شئت ذلك فعليكم أولاً إعادة جميع لوحاتي سليمة .. كما كتبتم في محضر الجرد .. وأعدكم بالعودة إلى المسافرخانة فوراً .. فهل تستطيع ؟

بدا الرجل العجوز في مأزق حرج ، فراح يحرك فكيه الصناعيين بعصبية ، وبان خدَّاه غائرين نتيجة الفراغ الذي تركه الفكان الأصليان ، وبدا الوجه هضيماً يدعو للشفقة وهو يقول :

- يا حبيبي الوظيفة التي تقصدها المحكمة شيء .. والمرسم واللوحات شيء آخر .. دعنا أولاً ننتهي من موضوع الوظيفة ثم نرى موضوع اللوحات فيما بعد ..
- متأسف .. فإما أن تعيد الوضع كما كان ككل لا يتجزأ .. وإما ننتظر حكماً آخر بتسليمي لوحاتي سليمة .. ولنر كيف ستعيدونها بحالتها الأصلية .

دخل محمود ومد يده لمصافحته مرحباً ، تجاهلها وتركها معلقة ، أنزلها محمود إلى جانبه في مذلة وانتظر تعليمات عبدالمتعال ، الذي واصل كلامه إلى شوقي :

- يا حبيبي إن ما تطلبه أمر مستحيل .. فكيف نعيدها سليمة ؟ لك أن تطلبها من مدام أحلام وقد تسلمتها في حالة جيدة بإقرارها بأن تحتفظ بها بصفة أمانة لحين طلبك لها .. فلسنا مسئولين عن إتلافها .
- هذا الكلام تقوله أمام المحكمة .. فأنتم من سلمتموها إليها سليمة وأنتم من تسلمونها إليّ سليمة .. هذه مشكلتكم .. بغض النظر عن أنكم تتخلون عنها بعد أن قمتم باستخدامها كأداة وجعلتم منها كبش فداء لكم .. فإن هذا ليس من شأني .. ولن يجديكم القول بأن اللوحات لم تكن عهدة رسمية طرفكم .. فمحاميكم الذي كتب صيغة الإقرار يعرف جيداً أنها صيغة فاسدة لأنها تحت مسئوليتكم شئتم أم أبيتم .. فهل نحتكم إلى المحكمة ؟

تدخل محمود السيد متسائلاً :

- ما هي المشكلة يا سعادة البيه ؟
- المشكلة أن سيادته يريد قراراً بتعيينه مديراً لمراسم الفنانين بكل من الوكالة والمسافرخانة على أن يكون مقر عمله ومرسمه بالوكالة ، وإلا فعلينا أن نعيد إليه لوحاته سليمة كما كانت في مرسمه .. ويهددنا برفع قضية جديدة ضدنا في المحكمة .
- سنجد حلاً لتنفيذ طلبه إن شاء الله .
- إنه يريد القرار الآن .. أرني ماذا ستفعل يا ذكي .. أم ننتظر حكماً جديداً يطيح بنا جميعاً !

- بسيطة ! .. نصدر لسيادته القرار الذي يطلبه .. على أن يكتب لنا أنه استلم اللوحات مع التنازل عن حقه في مطالبة الهيئة بتعويض عن أية أضرار قد تكون أصابتها .

فكر عبدالمتعال في الأمر بإمعان ، وبدا له الحل معقولاً فقال في رجاء :

- ما رأيك يا أستاذ ؟
- متأسف يا بهوات .. يمكن فقط إرجاء استلام اللوحات بعض الوقت حتى تجدوا حلاً .. وذلك في حالة صدور قرار لي مديراً للمراسم في الجهتين كما قلت لكم ، مع تخصيص مرسم لي هناك .. هل تريدون فرصة للتشاور؟ .. ليس لدي مانع .. لكن إلى وقت معين .. وإلا فسأضطر إلى اتخاذ إجراءاتي في اتجاهين : الاتجاه الجنائي بالنسبة لتبديد اللوحات .. والاتجاه الإداري بالنسبة لرفضكم تنفيذ حكم المحكمة .. فماذا ترون ؟

طال وقت التهامس بين الوكيل ومدير الإدارة ، فابتعد شوقي عنهما متشاغلاً بالنظر من النافذة ، واستنتج أن عبدالمتعال لن يستطيع اتخاذ قرار كهذا إلا بالرجوع إلى قدري ، فاقترح عليهما أن يخرج وينتظرهما في حجرة السكرتير حتى يصلا إلى قرار، قاصداً إتاحة الفرصة لعبدالمتعال للاتصال تليفونياً بقدري ، وهو ما رحب به في الحال ، وطلب السكرتير تليفونياً وكلفه بإحضار القهوة لي في مكتبه ، فخرج شوقي إلى حجرة السكرتير ليجلس في انتظار دعوته .

استعرض وقائع مجيئه في المرة السابقة مقارنة بما يحدث اليوم ، فابتسم منتشياً بالنصر الذي كان يؤمن بقدومه ، فيما كان شيطانه الصغير يطل برأسه من داخله وقد تطاول عما كان في مرسم عامر وهو يشجعه على استكمال خطته ، لكنه ولأول وهلة خامره إحساس بالخوف من نفسه مع تنامي هذا الشيطان من مولود صغير مشاغب إلى قوة غاشمة .. وفكر أنه ربما لا يكون وليد اليوم بل كان كامنا بداخله وهو لا يدري ، فتحول خوفه إلى فزع .. فالطغاة لا يولدون طغاة ، بل يولدون بمثل هذه الشياطين الصغيرة الوسواسة ، وتظل كامنة بأعماقهم حتى تجد

الظروف المناسبة التي تنمو بداخلهم وتترعرع لتصبح في النهاية مَرَدَة في حجم قدري عثمان !

شرب القهوة باستمتاع وعلى مهل ، وتذكر مقولة « من يضحك أخيراً يضحك كثيراً » ، وتبين له أن هذه النتيجة لا تتحقق إلا بمقولة أخرى ابتكرها الآن لتوِّه ؛ وهي « إن القوة توجِد الحق ، لكن الحق لا يوجِد القوة » .. وقد تغير الآن ميزان القوى .. فأهلاً بهذا التغيير .. أليس التغيير الدائم هو ناموس الحياة ؟ .. فلِمَ تنزعج الآن من حدوثه ؟

خرج محمود السيد من مكتب عبدالمتعال يكسو الإشراق وجهه ، ودعاه باحترام شديد إلى الدخول :

- تفضل يا سعادة البيه .

قال لنفسه مبتسماً :

- ها قد أنعموا عليك بالبكوية فأصبحت « سعادة البيه ! » .. يا للفخر ! ودخل حجرة عبدالمتعال فبادره معتذراً !
- نحن آسفون جداً يا باشا .. لأننا جعلناك تنتظر بالخارج هذه المدة .. تفضل.

ازدادت السخرية بداخله قائلاً في سره : من البكوية إلى الباشوية هكذا في دقائق ؟!

- خيراً ؟
- خيراً إن شاء الله ، كل شيء سيتم كما أردت .. نصف ساعة على الأكثر ويكون القرار جاهزاً بتوقيعي عليه في يدك .. حتى تنتهي من قهوتك .
- لقد شربتها تواً .. ألف شكر .
- أطلب لك شيئاً آخر ..

اعتذر بشدة عن شرب أي شيء ، وأستأذنه في الخروج ليتمشَّى قليلاً حتى يتم إعداد القرار .. وقف عبدالمتعال ليصافحه فتجاهله متظاهراً بعدم رؤية يده الممدودة وغادر الحجرة.

لم يكن يعرف ماذا سيفعل بالخارج ، كان فقط يشعر بالاختناق من استطالة حصة التمثيل السخيفة التي فُرضت عليه ، وأراد أن يستنشق هواء نقياً بالخارج . سار على راحته وقد أطل وجه فريدة متجهماً . استمر في السير على غير هدى محاولاً إزاحة الجهامة عن وجهها قائلاً : هل رأيتِ كيف أنعموا عليّ برتبة الباشوية ؟ .. لكنها لم تبتسم .. فظل يسير والتكشيرة لا تفارق وجهها ، حتى اكتشف أنه وصل إلى شارع الهرم ومنه إلى محطة الأتوبيس ، وبلا تفكير وجد نفسه يستقل الحافلة رقم ٨ المتجهة إلى ميدان التحرير .

(٦٣)

ما أن نزل من الحافلة في آخر الخط أمام مجمع التحرير حتى اتخذ طريقه إلى ميدان باب اللوق ، ومنه إلى مكتب الهلالي . علم بأنه بالداخل مع بعض العملاء. جلس في الأنتريه الخالي في انتظار خروجهم . هنَّأه عم عبده ساعي المكتب على كسبه للقضية رغم تهنئته عليها مرات من قبل . أدرك أن النوبي العجوز يُلمِّح إلى أخذ « الحلاوة » وكان قد نسى أمرها ، فمنحه ما توفر في جيبه من نقود ، وانسحب ثانية إلى الجب الذي غاص فيه منذ أن غادر مكتب عبدالمتعال.

تذكّر شعوره آنذاك بلذة الانتقام وتشفِّيه فيمن أذاقوه الويل وهم يتساقطون أمامه ويتقربون إليه في هوان ومذلة ، وأُضيف إليه الآن شعور بأنه يدخل في دائرة جهنمية جديدة لا يذكر أنه وطئها من قبل ، من الرغبة الحارقة في الثأر ، وكلما رأى أحداً ممن آذوه يَخِرُّ مُطأطئاً رأسه ازداد رغبة إلى حد الهوس في رؤية المزيد ، وتذكر صورة أحلام وطلال بالأمس وإحساسه المجنون بالمتعة وهو يراهما عرايا مفضوحين ومجللين بالعار . إن لذة الانتقام تعادل لذة العدوان التي رآها في عيني حسن السكري وهو يمارسه بفجور امتلاكه للقوة والسلطة في حد ذاتهما ، فليس بينهما ما يدعوه شخصياً ليعامله بهذه الوحشية إلا عمالته المزدوجة لكل من سيده قدري ومباحث أمن الدولة ، «إن السلطة الفاجرة تعمي العقل والقلب وتطمس

البصيرة ، فتحيل الزميل في العمل إلى عدو ، حتى تتملكه الرغبة في سحقه بأي ثمن ، مدفوعاً بحالة بدائية من الكراهية غائرة في أعماق النفس ، وقد يكون الغل الذي يحركها نابعاً من شعور بالقهر والعجز عن امتلاك شيء بعيد المنال لكن في استطاعة الآخر منحه إياه كعاطفة .. أو غفران ذنب لكنه يضنُّ بهما عليه .. أليست تلك دوافع " أحلام " ؟ .. فلا شك أنها لم تكن تكرهك حين وضعت توقيعها على إقرار كاذب تستحل به حرق قلبك على أعز ما تملك وهي لوحاتك ، بل ربما كانت لاتزال تحبك وتعجز عن استعادتك ، فطمست شهوة الانتقام بصيرتها حتى أنستها أن هذه النار قد تحرقها أيضا في النهاية .. أليست هي نفس الدائرة التي دخلتَ انت فيها حين استدرجْتَها إلى الذبح المعنوي في مرسم عامر مع شريكها في الجريمة ؟.. ألم تكن لحظة الاستمتاع الجنونية بنجاح خطتك للانتقام منهما تعبيراً عن توحش غريزة الثأر الكامنة فيك ؟ .. بل أتختلف هذه الحالة كثيراً عن دوافع قدري عثمان للتآمر عليك بتلك الخطة الشيطانية ؟ .. ألم تكن انتقاماً لكرامته الجريحة بعد أن قمت بتعريته في لحظة ظن أنه امتلك قوة مطلقة حتى رفضتَ الامتثال لسلطته –أنت الضعيف الأعزل– فكشفت مدى ضعفه وتهافته ؟ .. فما الفرق الآن بينك وبينه إلا فرق اختلاف الأساليب وموازين القوى ؛ فهو استخدم أسلوب البطش والعدوان والاستعانة بالمباحث ، وأنت استخدمت أسلوب المقالات والتوقيعات باسم الرأي العام، واستعنت بالمحامي وبالمحاكم والقانون ؟! .. لكن لماذا لا تقول إنه الفرق بين الوحشية والتحضر؟ .. فهل يمكن للإنسان أن يجمع بينهما ؟ .. لم لا ؟ .. طالما وَجدَتْ بقاياها الغريزية ما يوقظها ويسمح لها بالنمو كما تفعله الآن للقضاء على قدري وأدواته وإن يكن بطريقة مشروعة متحضرة ، لا بطريقة الأخذ بالثأر في الصعيد التي تبيح لصاحبه اغتيال أبن خصمه الذي لا يعرفه ولا ذنب له فيما جناه أبوه أو أهله ».

هز رأسه يستنكر فكرة المقارنة بينه وبين أصحاب الثأر قائلاً لنفسه : « هل يستوي صاحب الحق مع من يعتدي على الحق ؟ .. أو الجاني مع المجني عليه ؟ .. أو من يتخذ من الإجرام والعمالة للشرطة وسيلة ومن يتخذ من القانون والشرعية سلاحاً للدفاع عن النفس ؟ .. »

أفاق على فتح باب حجرة الأستاذ وصوته يودع عملاءه عند انصرافهم ، وحين وقعت عليه عيناه رحب به مندهشاً :

- منذ متى وأنت هنا ؟
- ليس منذ مدة طويلة .. علمت بوجود موكلين عندك فجلست في انتظار خروجهم .

دعاه للدخول وسأله عن أخباره فقال إنه قادم من هيئة الفنون .

- عظيم .. إذن فقد استلمت العمل .
- لا ..
- لماذا ؟ .. ألم يتسلموا قرار المحكمة ؟
- نعم تسلموه .. لكني ..

وحكى له ملخص ما حدث ، فضرب الأستاذ كفاً بكف وهو يقول :

- ما هذه المثالية المفرطة يا فنان ؟ .. أبعد كل هذا الذي صنعناه تقول إنك كنت تلوي ذراعهم للحصول على مقابل لتحطيم لوحاتك ؟
- لأنني كنت أجري مقايضة للحصول على منصب أكبر مما كنت فيه .
- أظنك قلت لي مرة أنك لن تكون قادراً على احتمال العودة إلى المكان الذي شهد إهانتك والاعتداء عليك ، وأن وجودك فيه سيكون كابوساً يذكرك بكل ما حدث لك .. فمن حقك الانتقال إلى مكان لا يشعرك بذلك . وهو ما يستدعي رفعك إلى منصب يحميك طالماً لم تنتزعه من شخص آخر .
- لا .. فهذا منصب لم يكن موجوداً أصلاً .. إذ كان لكل مكان مدير مسئول عنه.
- إذن فأين المشكلة طالما استجابوا لطلبك ؟
- المشكلة فيَّ أنا يا ريَّس .. إنها خوفي من التحول إلى شخص يستثمر قوته التي حصلها باستثمار ضعفه ، فيصبح أسيراً لهذه القوة ودائرا مزمناً في دائرة الانتقام .

- ألم أقل إنك غارق في المثالية ؟ .. أنا أقدر بالطبع رهافة حسك كفنان وضميرك اليقظ كمثقف .. لكن الدفاع عن النفس حق مشروع .. بل واجب مقدس لا بأس أن تدعمه القوة طالما تكونت بطرق شريفة .. هوَّن عليك يا صديق ، فنحن لا تنقصنا الآن رفاهية تلك المشاعر ، ولا تزال أمامنا قضيتان ، هما ليستا لاستعادة حقك وحدك .. بل حقنا جميعاً ، وهو رد الاعتبار لكل فنان .. أنسيت ما تضمنه بيان المثقفين ؟ .. فلتكن صباح الغد هناك في الهيئة لاستلام قرار عودتك إلى عملك .. أتفقنا ؟

أيده شوقي بهزة من رأسه ، ثم أبلغه باتفاقه مع الشاهَدْين للحضور بعد غد .. فقال له :

- إن عبدالناصر سيكون معكم كمسئول عن القضية .. فلتذهب إليه لتقرأ المذكرة التي قمت بمراجعتها معه .. وترى إن كان لك ملاحظات عليها .

(٦٤)

من جديد في محكمة الاستئناف .. كان عبدالناصر المحامي أول الحاضرين، ثم وصل شوقي منتفخ العينين لقلة نومه في الليلة الفائتة ، وكان قد ألمح للأستاذين صلاح حافظ وصالح رضا بأن النداء على القضية قد يتأخر قليلاً ، فيمكنهما الحضور في العاشرة صباحاً بدلاً من التاسعة ، لكن عبدالناصر عاتبه على تشجيعهما على المجيء على راحتهما ، فربما يأتي دورنا مبكراً .. وسرعان ما حضر صلاح حافظ ومن بعده صالح رضا فشعر الجميع بالارتياح .

كان الأمر معتاداً بالنسبة للأستاذ صلاح ، فحكى بعض الوقائع عن مرات وصل إلى المحكمة متأخراً وسط هلع صديقه صاحب القضية ومحاميه ، ثم اكتشفوا أن الدور أتي بعد منتصف النهار ، لكنه كان حريصاً – اليوم خاصة– على الوصول مبكراً ، لأنه ينوي أن يجعل من الجلسة موضوع افتتاحية العدد القادم .. قال عبدالناصر :

- ولكن الحكم لن يصدر اليوم يا أستاذ صلاح .
- ليس هذا مهماً .. وربما كان ذلك أفضل ليظل الموضوع مثيراً وبه مادة جديدة من عدد لآخر ، والقضية أصبحت قضية رأي عام يتتبع القراء أخبارها ، وأخونا شوقي أصبح شخصية عامة بفضلها !

وضحك الجميع إلا صالح رضا الذي قال متجهماً :

- علينا ألا نغفل أن القضية سياسية في المقام الأول .. وترتبط بفساد الطبقة الجديدة التي خلقتها سياسة الانفتاح الاقتصادي .. وأصبح رموزها ، وخدم السلطة على رأس أغلب المؤسسات .
- إذن أين الاختلاف بيننا ؟
- الاختلاف في أن المعارك الصحفية عادة تميل إلى الإثارة بالأمور الدراماتيكية في موضوع شوقي على سبيل المثال .. بالتركيز على وقائع العنف وتحطيم المرسم واللوحات و.. و.. إلى آخره .. وأرى أن هذه أعراض للمرض ، وعلينا أن نسلط الضوء على أسبابه الجذرية في تغلغل الفساد .

قال شوقي :

- لقد لمس مقال الأستاذ صلاح كثيراً من هذه الجذور في الحدود المتاحة للنشر، فأنت تعرف أن هناك سقفاً لحرية الصحافة مهما بدا من مظاهر الحرية ، لكنه يعتمد على ذكاء القارئ بعد أن يقوم بالتركيز على الوقائع المثيرة ، فيصل من ورائها إلى ما تطالب به يا دكتور صالح ، مثلماً لمح في مقاله إلى دور المباحث وراء هذه القضية .

كان عبد الناصر يذهب من وقت لآخر لمتابعة القضايا التي نظرت من « الرول » ، حتى جاء متهللاً ليطمئنهم إلى أنه لم يعد أمامنا إلا قضيتان .. ووجه حديثه إلى الشاهدين :

- وأحب يا أساتذة توضيح أن الأجوبة على أسئلة القاضي تكون في حدود الوقائع والمعلومات الخاصة بالقضية فقط وعلى قدر السؤال الموجه وألا يتطرق إلى موضوعات عامة .. مع احترامي الشديد لكل الآراء.

وعندما نودي على القضية كان كل من الأستاذ صلاح والدكتور صالح جالسين في وسط القاعة حيث وجدا مقاعد خالية ، أما شوقي فظل واقفاً في أحد الممرات يعصف به القلق ، فيما وقف عبدالناصر أمام منصة القضاة وعرض بصوت منخفض – لا يكاد يصل إلى الصف الأمامي من القاعة – وقائع الدعوى ملتزماً بما جاء في العريضة المقدمة ، ومقدِماً المستندات على الأضرار التي أصابت المدعي جرَّاء المقال المطعون عليه وما تضمنه من ادعاءات باطلة من شانها – لو صحت – أن تعرِّضه للسجن المؤبد ، مِن تآمرٍ على الوطن وتخريب متعمد لمؤسساته واحتضانه للمتآمرين الإرهابيين في مرسمه ، واستعرض ردود الفعل للمقالة على نفسية المدعي بما أصابه بأزمة نفسية شخَّصها الأطباء بحالة اكتئاب مرضية ، ومن ناحية أخرى أدت إلى ردود أفعال غاضبة لدى الرأي العام تتمثل في مقالات الصحفيين وبيانات المثقفين وجمعياتهم الأهلية مثل أتيليه القاهرة التي تضمنت إدانات واحتجاجات شديدة على المجلة وتضامن مع الفنان الذي استهدف بهذه الهجمة الاعلامية الظالمة فوق الهجمة الشرسة لرئيس وقيادات هيئة الفنون على مرسمه ولوحاته والتنكيل بشخصه بالاعتداء البدني والتشريد الوظيفي ، وهو ما حاولت المجلة التغطية عليه بتحقيقها الصحفي المسموم ، وأشار المحامي إلى حكم المحكمة الإدارية العليا الذي أدان بدوره الحملة البربرية التي قامت بهذا التنكيل بموكله ، وكان رئيسها في مقدمة من تحدثوا في التحقيق الصحفي المطعون فيه وكالوا الاتهامات إليه ، فوق ما فعله في لوحاته ومرسمه وما أصابه به في شخصه .. وبناء على كل ذلك طالب بتعويض مالي قدره عشرة آلاف جنيه من المجلة المذكورة . كما طالب المحكمة بالاستماع إلى شهادة الشاهدين المذكورين في الدعوى.

سأل القاضي : هل الشاهدان موجودان ؟

نهض كلاهما ، فنادى القاضي على اسم صلاح حافظ وطلب منه ترديد القسم ففعل، ثم سأله عدة أسئلة عن معرفته بالمدعي وما إذا كان قد قرأ التحقيق الصحفي بمجلة الأسبوع المصور وهل تعرَّف على أنه المقصود بما نشر فيه (حيث لم يذكر فيه اسمه صراحة) ، فأجاب بنعم .. وعن سؤاله عما إذا كان ما تم نشره ينال من سمعة المدعي ويحط من شأنه أمام الرأي العام أجاب بنعم ، وأشار إلى ما نشر بمجلة روز اليوسف دفاعاً عنه تجاه العدوان الذي تعرض له وكان التحقيق الصحفي المذكور رداً على مقالات روز اليوسف التي تبنت قضية المدعي ، وفي النهاية أستأذن القاضي في الإدلاء بكلمة قصيرة إضافية ، وعندما سمح له قال :

- سيدي القاضي .. إن ما حدث قبل نشر التحقيق الصحفي على الفنان شوقي نعمان من عدوان أثبتته محاضر الشرطة وحكم المحكمة الإدارية على لوحاته وحياته ذاتها ووصفته بالإجرام .. قد أبقاه جريحاً ينزف إلى ما شاء الله ، أما ما تضمنه التحقيق الصحفي المشار إليه من اتهامات ظالمة على ألسنة من تآمروا عليه وحطموا لوحاته ومرسمه فهو اغتيال معنوي أشد فتكاً من العدوان المادي الأول ، كونه يقتل ما هو أعز لديه من مرسمه ولوحاته .. أعني حبه وإخلاصه لوطنه فما قيمة كل ما يبدعه الفنان إذ أتُهم بخيانة الأوطان؟!

ونادى القاضي على صالح محمد رضا ، وسأله نفس الأسئلة تقريباً التي سألها لصلاح حافظ ، فأجاب بأجوبة لا تختلف عما أجاب به صلاح ، وأنهى شهادته بقوله :

- إننا كفنانين وأعضاء بجماعة أتيليه القاهرة وبمصر عامة قد شعرنا بأن ما وُجّه إلى زميلنا الفنان شوقي من اتهامات خطيرة لا تسيء إليه وحده بل تسيء إلى كل واحد منا ، لهذا كان الأذى النفسي والمعنوي الذي أصابه هو نفسه ما أصابنا جميعاً .. وإن من وجهوا إليه وإلينا هذه الاتهامات هم من طبقة المنتفعين الجدد الذين لا تعنيهم مصلحة الوطن التي يتباكون عليها خوفاً من أمثالنا من الفنانين الشرفاء .

وفيما كان القاضي يستدعي محامي المدعي عليه للإدلاء بمرافعته ، كان عبدالناصر المحامي يضغط بأسنانه على شفته السفلى في غيظ وهو يعاتب الدكتور صالح بالنظرات على عبارته الأخيرة في الشهادة ، التي قد تضر بموقف شوقي في القضية ، على عكس ما حذره منه قبل الجلسة ، فرد عليه بابتسامة شقية كطفل مشاكس وهو يرفع إبهام يده علامة على أنه قال الحق وأنه مقتنع بما قاله !

(٦٥)

بدءاً من مدخل وكالة الغوري ، قوبل شوقي بالتهاني بصدور القرار الجديد بعودته إلى عمله ونقله إلى الوكالة ، وهو ما يعني أن الخبر قد سبقه إليها ، واستقبله الأستاذ محمود عفيفي المدير العام بمزيد من الحفاوة هو وكل من كان بمكتبه من العاملين ، وما كان أحدهم – قبل صدور القرار – ليجرؤ على معاملته بمثل هذه الحفاوة ، فيما عدا المهندس محمد عمران رئيس الأقسام الفنية للحرفيين ، الذي لم يكن يخفي تعاطفه معه طوال فترة الأزمة ، وانتقاده لسياسة الهيئة ، خاصة لعدم اهتمامها بأوضاع الحرفيين في الأقسام الفنية بالوكالة وتهميشهم بنظرة عنصرية باعتبارهم مجرد صنايعية ، فيما كانت تضن على أقسامهم بأي دعم ينهض بهذه الحرف التراثية ، وهذا ما يقوي العلاقة بينه وبين شوقي الذي كان يحرص كلما أتى إلى الوكالة على زيارة هذه الأقسام الفنية ويبدي إعجابه بعمل الحرفيين بها . لهذا كان عمران أكثر العاملين بالوكالة سعادة بنقله إليها ..

وبعد أن أمر الأستاذ عفيفي باتخاذ الإجراءات الإدارية لتسلم علمه ، وجه بإعداد حجرة كمكتب خاص به ، مزودة بالأثاث المناسب ، وكان من الواضح تلقيه توجيهات خاصة من وكيل الوزارة بتوفير الاحتياجات اللازمة للإدارة الجديدة .. وحين أطمأن شوقي إلى مكان الحجرة وإلى أن محمد عمران سيشرف بنفسه على تجهيزها ، صعد السلم متجهاً إلى مرسم الفنان عامر البحراوي ، الذي فوجئ به أمام بابه ، وقابله بقناع خشبي ، ولولا أنه قادم إليه كضيف لما استقبله ، واكتفى بالدخول

وتركه عند الباب دون مصافحته أو دعوته للدخول . كان شوقي يتوقع مثل هذا الاستقبال ، مقدراً دوافع غضبه لأنه قام بخداعه واستغلال مرسمه في تنفيذ خطته ضد أحلام ، دخل المرسم واتخذ مكانه على الكنبة كالمعتاد دون أن يبدي استياءً من سوء استقباله ، بل تعمد إبداء البرود مُركِّزا على قضاء مهمة محددة لا ينبغي أن ينشغل عنها بشيء آخر .. قال :

- هل علمت بالقرار الجديد؟
- نعم علمت .. أكنت تريدني أن اكون في معية استقبال سيادتك عند باب الوكالة ؟!
- لا .. يكفيني استقبالك الحافل في مرسمك الآن !

وكأنما نَكَأَ جرحه فاندفع غاضباً :

- ماذا كنت تنتظر مني بعد ان استغفلتني وكذبت عليَّ وجعلتني أداة رخيصة لتصفية حساباتك ، متخذا من مرسمي مسرحاً لتنفيذ خطتك .. أتريدني بعد ذلك أن أفرش لك الأرض بالورود؟!
- أنا واثق من أنك الآن غير مستعد لأن تسمع مني أي تبرير .. لذلك دعنا ننحي ذلك جانباً الآن بصفة مؤقتة حتى تهدأ نفسك .. فلنتحدث عن المستقبل.
- ليس بيننا مستقبل مشترك لنتحدث عنه .
- بل يوجد يا عامر شئنا ذلك أم أبينا .
- ماذا تقصد ؟
- نحن سوياً في إدارة واحدة الآن .
- تقصد أنك صرت رئيسي ؟
- لا .. بل أقصد عقد اتفاق على فك الاشتباك بيننا .
- كيف ؟ .. لا أفهم .
- أظن أنك لن تتحمل وجودي هنا في الوكالة .. الآن على الأقل .
- لماذا ؟ .. أنا لن أشيلك فوق رأسي .. فالوكالة ليست ملك أبي !

- من الآخر .. جئت أعرض عليك اتفاقية بتبادل الأماكن بيننا .. يعني أن أترك لك مرسمي بالمسافرخانة وتترك لي مرسمك هذا .. وأنت تعلم أنها صفقة غير عادلة بالنسبة لي بالمرة .. فمساحة مرسمي هناك أربعة أضعاف مساحة مرسمك على الأقل ، بخلاف مزايا كثيرة اخرى .. لكنني لست مستعداً للتواجد فيه بعد كل ما تعرضت له هناك .. وأنت هنا لن ترضى بوجودي كمدير للإدارة يعني أن تصبح تحت رئاستي .. وهذا مفهوم .. ولو كنت مكانك لكان هذا نفس موقفي.
- هل ستحل هذه المشكلة بمجرد ابتعادي مكانياً عن إدارتك ؟
- لن تكون هناك إدارة أصلاً بالمعنى المفهوم .. فلا حاجة لنا بها .. فالأمور ستسير على نفس المنوال القديم .. وكلانا حر فيما يفعله ، ولا إجراءات مالية أو إدارية تستدعي تقديم طلبات أو الحصول على موافقات .. ولا محاسبة على مواعيد للحضور والانصراف .. لا شيء يستدعي التبعية الإدارية كما تسميها ..
- فلماذا طلبت إذن إنشاء هذه الإدارة ؟
- من أجلك أنت يا عامر .
- من أجلي أنا ؟ .. وما دخلي بذلك ؟
- لأنني حين طلبت النقل إلى الوكالة لم يكن أمامي إلا أن أحل محلك في وظيفتك للمراسم هنا .. وهذا ما رفضته تماماً .. فلم يكن ثمة حل إلا بإيجاد مسمى وظيفي جديد يسمح لي بالوجود هنا .. فضلاً عن أن مرسمي بالمسافرخانة الذي كان قطعة مني وأنا قطعة منه سوف يحتله من بعدي بالتأكيد أي غراب من الغربان المتربصة به .. وليس هناك من يستحقه من بعدي غيرك.
- وكيف ستبقى في الوكالة في وجود أحلام بعد كل ما حدث بينكما ؟
- أحلام أصبحت غير موجودة بالنسبة لي أصلا .. لا في الوكالة ولا في الحياة كلها .

صمت عامر فترة وكأنه بدأ يقلب الأمر في رأسه ثم قال :

- ومن الذي يضمن لي أنك لن تطالبني بعد فترة طالت أم قصرت بتنفيذ تعليماتك كرئيس لي في أي شأن من شئون الإدارة ؟

ضحك شوقي لأول مرة منذ دخل المرسم وقال :

- هل صدَّقت إن هناك إدارة بحق ؟ .. إنه اسم وهمي اخترعته وأنا أعرف – وهم يعرفون قبلي – أنه غير موجود كمسمى وظيفي ضمن وظائف الهيئة بالجهاز المركزي للتنظيم والإدارة .. لهذا فإن الضمان الذي تطالب به بسيط جداً : أن تقول لي ساعة أن أنقُض عهدي : أرني أي مستند قانوني لوجود إدارة بهذا الاسم !

فجأة انفجر عامر في نوبة ضحك جعلت كرشه الصغير يهتز .. ثم قال :

- عليك اللعنة يا شوقي نعمان .. أكنت تلعب بأعصابي أنت وهيئتك اللعينة بقراركم الكوميدي هذا وأنا أتعامل معكم بمنتهى الجد ؟!

وبعد أن هدأت موجة الضحك المشترك قال شوقي بكل جدية :

- لكن إياك أن يعرف أي مخلوق بما قلته لك .. وإياك أن تهز « البريستيج » الخاص بي أمام الجميع كمدير إدارة .. حتى بلا اختصاصات !

وعاد إلى الضحك على نفسه هذه المرة .. فواصل عامر الضحك قائلاً :

- أتاريك جنّ مصوَّر وأنا لا أعرف !

قال شوقي وقد تأكد أن الأزمة انفكت وعادا صديقين :

- هيا إذن وأعدَّ لنا الشاي لنحتفل بتدشين الإدارة الجديدة !

وفيما كان عامر يملأ سخان الشاي ويعد الأكواب قال شوقي :

- أتعرف ما هو أول قرار سأصدره بعد تولي هذه الإدارة ؟
- ما هو ؟
- سأنقلك إلى المسافرخانة وأخلي مرسمك هذا ثم أحتله !

وعادا إلى موجة الضحك ، لكن كليهما كان يعرف في قرارة نفسه بأن ذلك ليس دعابة ، بل سوف يتحول بعد فترة قصيرة أو طويلة إلى حقيقة.

(٦٦)

هل كان يعرف قبل الآن أن معركة شرسة مع خصم عنيد لاسترداد حق من حقوقه ، قد تكون أسهل من معركة مع نفسه للتنازل عن هذا الحق ؟ .. ربما كان لشوقي تجارب عديدة خاض فيها الصراع المبدئي بين الحق والباطل ، لكنه نادراً ما كان عليه أن يختار بين الحق والحق مثل الآن ، وهو ما يؤرقه ويضج مضجعه؛ إنه في الحالة الأولى مدفوع بعقيدة قتالية محسومة الأسباب ، بلا بدائل ولا مقايضة عليها مهما كان الإغراء أو الثمن ، أو الضعف وعدم القدرة على المواجهة ، وإزاء كل ذلك قد يتوارى صوت العقل وحسابات المكسب والخسارة ، ويصبح الإنسان أمام تحدٍ وجودي ، وقد يشعر بالخيانة لنفسه إذا تخلى عنه ، وتلك كانت المعركة الصِفرية التي خاضها طوال الشهرين الماضيين لاسترداد مرسمه ولوحاته ووظيفته ، وكان يكفيه أصغر فوز ليشعر بحلاوة النصر وقيمة النضال من أجله ، أما في قضية اللوحات التي تم تشويهها فقد كتب إقراراً بإخلاء مسئولية الهيئة عما تعرضت له لوحاته في مقابل نقله إلى وظيفة جديدة بوكالة الغوري مع مرسم بديل عن مرسم المسافرخانة ، بما يضمن عدم تعرضه لمثل ما حدث له هناك مرة أخرى ، وابتعاده عن مكان شهد الاعتداء عليه وإهانة كرامته ، فلم تبق أمامه إلا « أحلام » كصيد سهل يضمن صدور حكم قضائي عليها بتجريدها من كل ما تملك .. إن لم يكن بسجنها أيضا . وهنا مكمن المشكلة ؛ فالحق أصبح اختيارياً بالنسبة له ، ولن يجديه الاستمرار في القضية المرفوعة من خلال القضاء الإداري بشأنه ضد الهيئة ، لأنها تملك الآن إقراراً منه بإخلاء مسئوليتها عما تعرضت له اللوحات ، وأصبحت أحلام وحيدة في وجه المدفع تتحمل مسؤولية تبديد أمانة شخصية ، ما يستدعي رفع القضية أمام محكمة أخرى كقضية مدنية ضد شخص بعينه وليست ضد الحكومة ، وسيكون الحكم في هذه الحالة باهظاً قد يصل إلى الزج بها في السجن ، بينما لن

تعيد له أموال التعويض الذي سيكسر ظهرها تلك اللوحات مرة أخرى حتى لو قام بترميم البعض منها .

إن مثل هذا الحكم قد لا يحتمله ضميره ، مع إدراكه بأنها كانت مدفوعة عند توقيعها على الإقرار بسلامة اللوحات .. بلحظة ضعف إنساني لجرح كبريائها كامرأة بتخليه عنها ، ولعلها نالت عقابها المعنوي في مرسم عامر ، وهو ما ستظل جريحة بعاره طوال حياتها .. فهل يضع حدا للمعركة معها بما يستدعي التنازل عن القضية المرفوعة ضد الهيئة ويتحتم أن تكون أحلام هي الخصم الوحيد فيها ؟ .. لكن ذلك سيكلفه التنازل عن الشق الأهم في القضية الخاص بالعدوان عليه جسدياً وهو الثابت بمحضر الشرطة .. لكنه في الحقيقة قد أرهقه استمرار المعركة ، ومن ناحية أخرى فقد نال تعويضاً معنوياً هائلاً بانتصاره على الهيئة وفضحها أمام الرأي العام وكسب تعاطف الجميع معه ، فوق ما حققه من انتصار باسترداد وظيفته والحصول على مرسم بديل عن مرسم المسافرخانة باختياره الحر وهو في مركز القوة .. أفلا يكفيه ذلك لإغلاق هذا الملف .. وعفا الله عما سلف ؟ .. إن العفو عند المقدرة أنبل أنواع العفو ، وربما كان أنبل أنواع التضحية ، فهو تنازُل عن حق تستطيع نيله بارتياح.

« لكن تنازلك عن حقك لدى أحلام ، وإخلاؤك لمسؤولية الهيئة عن إتلاف اللوحات بعد أن زعمَتْ كذباً أن أحلام تسلمتها سليمة كأمانة تُرد إليك ، لا يعني إخلاء مسؤوليتها –أي الهيئة– عن فعلها الإجرامي بقيادة قدري عثمان وحسن السكري ، ولا يشفي غليلك منه عودتك منتصراً واحتضان الرأي العام لقضيتك ، فأمثالهما لا ينبغي أن يفلتا بجريمتهما لأن الخطر من وجودهما سيظل قائماً ومهدداً للجميع ، كطاقة مولدة للشر بمساعدة أعوانها ، لكن المعركة في الحقيقة لم تنته ، وحتماً سينال قدري جزاءه حين ينهزم في معركة النقابة بنشر حكم المحكمة بإدانته واتهامه بالعدوان الإجرامي والتخلف الحضاري ، ولأن إسقاطه سوف يتم بإرادة الفنانين عبر صناديق الانتخاب .. وعندئذ سوف يكون بوسعك أن تضحك كثيرا ! »

كانت هذه الخواطر تدور ملتهبة في رأسه وهو ينتظر الأستاذ الهلالي في حجرة مكتبه حتى يعود من إحدى جلسات المحاكم ، لاستشارته في إمكانية سحب

القضية الثالثة ، الخاصة بالاعتداء عليه وعلى مرسمه ولوحاته ، وذلك قبل تحديد جلسة للنظر فيها ، وليكن تبريره لسحبها هو الإقرار الذي كتبه لعبد المتعال بإخلاء مسئولية الهيئة عن تحطيم لوحاته ومتعلقاته بالمرسم . أما قدري عثمان وحسن السكري فقد لا تتوفر الأدلة الكافية على تآمرهما المسبق لما حدث من عدوان وتدمير، وقد يكون من الجائز أن تُرفض القضية أساساً لعدم اختصاص المحكمة الإدارية ، مما يستدعي رفع الدعوى أمام القضاء المدني حتى لا يكون استمرار تداولها أمام المحكمة الإدارية تضييعاً للوقت .

عندما حضر الأستاذ صارحه بكل هذا ، فابتسم قائلاً بأن ذلك هو ما كان يبحث له عن مخرج طوال الأيام الماضية ، وأنتهى إلى رفع الدعوى أمام القضاء المدني – إذا أردت – لأسباب قانونية لا لأسباب إنسانية .. وهنا شعر بالارتياح وقال للأستاذ :

- لا أفضل ذلك .. بل أفضل استلام أعمالي بحالتها الراهنة ، وبصفتي الوظيفية الجديدة أستطيع استبقاءها في نفس المخزن مؤقتاً لحين انتقالي إلى مرسم جديد ، كما يعني ذلك إغلاق ملف أحلام كي أتفرغ لعملي الطبيعي وأستأنف الرسم ، استعداداً لإقامة معرضي الذي هيأت نفسي لإقامته أوائل العام القادم .

أيَّده الأستاذ في رأيه ،ووعده باتخاذ إجراءاته لحفظ الدعوى ضد الهيئة بهذا الشأن ، وبذلك لا تبقى أمامنا إلا قضية مجلة الأسبوع المصور وقد أصبحت جاهزة للحجز للحكم . قال شوقي لنفسه :

- الآن أشعر بالتصالح مع نفسي وأستعيد السلام الذي فارق روحي .. لكنني وإن كنت تصرفت في ذلك مستخدما حقّي في التنازل عما أملكه .. فإنني لا أملك التنازل عن شيء ليس من حقي ، بل هو حق كل من كتبوا المقالات ووقَّعوا على البيانات وتحملوا المخاطر في مواجهة الشر والفساد ، وطالبوا بالعدل ، حتى ولو كان العدل في النهاية مجرد قطعة قماش تسترُ العورة تُلوِّح بها وتهتف : يحيا العدل !

(٦٧)

وجد شوقي أن المهندس محمد عمران قد قام بتجهيز حجرة مكتب لإدارة المراسم بما يفوق توقعه ، فهي تطل على صحن المبنى والنافورة ، وتضم – بجانب المكتب الخشبي الكبير – طقم أنتريه بالطراز العربي الذي يحبه ، من إنتاج ورش النجارة بالأقسام الفنية ، وزُوِّد المكتب بجهاز تليفون داخلي ، ويمكن تحويل المكالمات الخارجية إليه . سأله عمران عن حاجته إلى سكرتير للإدارة فرد بأنه ليس بحاجة إليه في الوقت الراهن فقال :

- أظن أنك سوف تحتاج من يعمل أرشيف للمراسم .. ويقوم بتخليص أمورك بالهيئة ويمسك دفاتر الصادر والوارد ويعرض عليك البريد وكل هذه الأشياء ، ويكننا تزويد الحجرة بمكتب صغير ودولاب و « شانون » بأدراج للملفات .. فلو أردت سوف أرتب لك كل شيء .
- شكراً جزيلاً يا محمد .. سوف نرى كل ذلك فيما بعد .. أما الآن فتعال معي نذهب إلى الأستاذ عفيفي .

أعاد المدير العام الترحيب بشوقي راجياً أن تكون حجرة المكتب قد حازت رضاه ، فشكره وأثنى على ذوق محمد عمران ومجهوده الكبير في تجهيزها .. ثم قال له :

- لعلك علمت بأنني كتبت إقراراً بإخلاء مسئولية الهيئة عما تعرضت له لوحاتي وأثاث مرسمي وهي في عهدة مدام أحلام .. واليوم أريد أن أخلي مسئوليتها أيضا وأقوم باستلام اللوحات بحالتها الراهنة ، لأنني لا أحب أن تحاكم بتهمة خيانة الأمانة ، فهي تقول أنها أرادت الحفاظ عليها حين قامت باستلامها بحسن نية ، وقد اتفقت مع المحامي على شطب القضية واستلام اللوحات بعد كتابة إقرار بذلك يخلي مسئوليتها كما فعلت مع الهيئة .
- بارك الله فيك .. كان هذا عشمنا فيك .. رجل بمعنى الكلمة .
- أرجو أن نُتم هذه المهمة الآن .. وسأعطيك الإقرار وتسلمني المفتاح.
- لكن ألا ترى أن ننتظر حتى تحضر أحلام لتقوم بتسليمك الأعمال بنفسها؟

- طالماً أخليت مسئوليتها بهذا الإقرار فقد انتهت علاقتها بالأعمال .. وستشهدون عليه ويعتمد رسمياً .. ولن أُخرِج شيئاً من المخزن الآن .. لكني فقط سأتسلم المفتاح وأنظر فيما يمكنني عمله لترميم بعض اللوحات .

وألحَّ عفيفي في دعوتها للحضور إذا كانت في مرسمها ، فأرسل موظفاً إليها ، لكنه عاد بعد دقائق وأبلغه بأنها لم تحضر اليوم .. فقال شوقي :

- أظن أنه لا ضرورة الآن للتأجيل .. فهل نبدأ ؟

سأل عفيفي المهندس محمد عمران عن رأيه فأيَّد اقتراح شوقي بشدة ، وكذلك فعل المدير الإداري للوكالة حين دخل الحجرة وعلم بالأمر ، وأشادا بكرم أخلاق شوقي ، فانفرجت أسارير عفيفي وهو غير مصدِّق لهذا التحول الكبير في موقف شوقي بهذه السهولة ، وأخرج له ورقاً وقلماً لكتابة الإقرار ، فكتبه دون تردد ، وطلب من عمران ومدير الإدارة التوقيع كشهود ، ثم طلب من عفيفي اعتماد توقيعهما ، ثم سأله عن المفتاح فأخرجه من درج مكتبه وسلمه له ، ومن ثم قام شوقي بتسليمه الإقرار . وصافحهم شاكراً على وعد اللقاء في الغد .

* * *

صعد إلى مرسم عامر بعد أن أبلغه بواسطة أحد السعاة أنه قادم إليه . اكتشف أن خبر الإقرار الذي كتبه قد وصله ولم يمض على ذلك غير دقائق .. دهش من طيرانه هكذا بسرعة البرق .. سأله :

- كيف عرفت ؟
- ألا تعرف أن لي عيوناً بكل مكان ؟

ولما رآه ينظر إليه متشككا بين الجد والهزل قال ضاحكاً :

- الموضوع ببساطة أنهم أرسلوا أحداً للسؤال عن أحلام في مرسمها فلم يجدها .. فجاء إلى هنا إذ ربما تكون قد أتت عندي .. وعندما سألته عن سبب

سؤالهم عنها أخبرني بكل شيء ! .. وأكيد أن التليفونات اشتغلت وأبلغتها الآن.

- فلتعلم بأي طريقة .. فالأمر لا يعنيني بعد حصولي على المفتاح .
- لا تقل إنك لا تنتظرها لتقدم لك الشكر !
- بالعكس .. أفضل ألا تفعل .. فأنا عند كلمتي لك بأنها لم تعد موجودة بالنسبة لي .. وما فعلْتُه الآن بإخلاء مسئوليتها عن تشويه الأعمال ليس إلا إثباتاً – لنفسي على الأقل – لإغلاقي الباب بيننا للأبد .
- والآن ماذا ستفعل ؟
- هذا ما جئتك الآن من أجله .

قال عامر :

- لقد فكرتُ كثيراً في فكرة المبادلة لمرسمينا .. من حيث المبدأ فأنا موافق .. ولكن ...
- ولكن ماذا ؟ .. أهناك مانع لا أعرفه ؟
- إطلاقاً لا .. إنه مجرد شعور .. صدقني لو قلت لك إنه نفس الشعور الذي جعلك ترفض العودة إلى أعز مكان عندك .. إلى جانب موقف الفنانين كما حكيت لي .. فلن يصدقوا أن نقلي إلى هناك هو استجابة لرغبتك وليس لرغبة رئيس الهيئة، فأخشى أن أصبح في نظرهم ونظر الكل أنني أصبحت تابعهُ وأداته.
- يا أخي فليفهموا كما يشاءون .. هل لرأيهم وزن أو قيمة ؟ .. أنت تعلم مواقفهم معي .. باستثناء أثنين لا ثالث لهما وهما محمود اللبان وسمير تادرس اللذان يملكان ضمير الفنان .. ولذلك رحلا بشرف .. أأقول لك شيئاً ؟ .. ليتهم ينظرون نحوك كما تظن .. فسوف يتقربون إليك لنفس السبب الذي تخشى منه وهو أنك رجل الريس .. فلتتعامل معهم على هذا الأساس فيعملوا لك ألف حساب !
- يا شوقي افهمني .. أنا لن أقبل أن أُحسب كأحد أعوان قدري عثمان أو غيره.

- أعرف .. لذلك فلتعمل ما تراه صواباً ولا تضعهم في حسابك .
- هناك شيء آخر يقلقني ؛ فسوف أحل محلك في نفس المكان الذي شهد ذكرياتك وأحلامك وصراعاتك وقصص حبك وولادة لوحاتك .. سبع سنوات كاملة انتهت بتدمير همجي لك .. أشعر بأنك ستكون ماثلاً أمامي في كل لحظة .. لن أهنأ بالشعور بأنه مكاني أنا .. الذي يحمل لمساتي وبصماتي مثل هذا المكان الصغير والفقير الذي أوجد فيه الآن.. لكن كم هو حميم وجميل وعزيز على النفس !

صمت شوقي وقد لمس كلام عامر نفس نقطة الوجع بداخله .. قال :

- أتفق معك .. فنحن كتلة مشاعر تسير على قدمين .. إن الأماكن التي نعيش فيها تصبح كالبشر .. أو هي بذاتها كتلة مشاعر نحملها بداخلنا أينما ذهبنا أو حللنا .. وقد تسير عجلات حياتنا وضروراتها في مسارات أخرى عكس إرادتنا.. وتلك هي الحياة التي لا نختار فيها كل شيء .. حتى ولو أدعينا غير ذلك .. فسنظل نقبل خيارات الحياة أحيانا وهي ليست خياراتنا .. وإن تعارضت خيارات الحياة مع مشاعرنا .

واستفاق من السرحة الرومانسية التي أخذتهما قائلاً :

- والآن دعنا من حالة النهنهة الوجدانية هذه .. فلننظر إلى الأمر بواقعية .. فكلانا أمام احتياج لنقطة بداية جديدة في حياته وفنه .. أنا عند نقطة تحول وجودية بعد انكسار كل مشروعاتي القديمة .. وأنت عند نقطة تحول أخرى بعد فشل الرهان على مشوار السعودية .. ولابد من بداية بديلة عن مشروعك الذي تم بتره قبل أن يبدأ .. ويبدو لي أن تبادل المراسم بيننا هو الحل الأمثل لبداية جديدة لكل منا .. فقل على بركة الله !

نظر عامر من خلال نافذة مرسمه إلى البيوت القديمة المستحمة بأشعة شمس نوفمبر الذهبية قبل الغروب .. ثم وقف ووجهه مشرق بابتسامة ريفية طيبة وقال :

- على بركة الله !

وأقبل محتضناً صديقه بقوة ، حضناً افتقده كل منهما منذ زمن طويل ، ثم جلسا يضعان الترتيبات اللازمة لتنفيذ النقل المتبادل بين مرسمين يحمل كل منهما فوق جدرانه قروناً من التاريخ ، وتاريخاً من المشاعر والحكايات ، ثم أرسلا في طلب طبقين من الكشري حين شعرا بالجوع ، وعلق شوقي :

– هل تستطيع أن تتذكر كم عدد المرات التي أكلنا فيها العيش والملح معاً ؟

(٦٨)

عندما نزل إلى الممر الذي توجد به الحجرة رقم ٨ والتي يُخَزن بها حطام لوحاته وأشيائه ، تذكر قراره في الصباح مع نفسه بأن يفتح الحجرة بعد خلو وكالة الغوري من جميع العاملين ، وقد فاض به الحنين إلى رؤية لوحاته والاطمئنان عليها والانفراد بها في صمت وهدوء بعيداً عن أعين المتطفلين ، فغيَّر مساره متجهاً نحو الحجرة وفتح الباب بمفتاحها الذي تسلمه اليوم . تملكته رجفه وانقبض قلبه وتسارع دبيبه بعد أن واجهه الظلام الدامس والرائحة المعتقة للرطوبة بداخلها ، لكن قوة غامضة دفعته إلى إضاءة لمبة النيون فتوهجت الغرفة الصغيرة ذات القبو المنخفض بضوء أبيض نهاري . تولاه شعور باضطراب ممزوج بالرهبة ، وكأنه يفتح باب مقبرة مغلقة منذ عشرات السنوات . أخذ يعدل وضع اللوحات المسندة في وضع مقلوب إلى الجدران التي تنز رطوبة ، وقد أسودت أحجارها الضخمة بفعل هذه الرطوبة عبر مئات السنين – إلى وضعها الصحيح طولياً أو عرضياً ، وراح يسوِّي بيده المرتجفة أطراف اللوحات الممزقة أو المجعدة ، و يضغط بكف حانية على المناطق المنبعجة أو المحدبة في سطح القماش الذي تلقى ركلة قدم حاقدة أو أرتطمت به أداة غليظة . نادته إحداها من الحجم الصغير بالألوان المائية وهي مسندة على الجدار وخلفها صف من أخواتها بنفس الحجم وجميعها مؤطَّرة بزجاج تحطم معظمه ، فكشف عن أجزاء منها. جلس القرفصاء وحملها بين يديه كطفل وليد وقربها من وجهه ؛ كانت بورتريه لفتاة ترفع كفها مفتوحة الأصابع في وجه المشاهد وعيناها متسعتان عن آخرهما في رعب ، وذراعها الآخر يحمي صدرها العاري ، وكأنها تواجه شخصاً

يحاول اغتصابها . كانت طبقة التراب على سطح الزجاج تجعل الألوان ضبابية أقرب للون الرمادي . سالت فوقها قطرات من الماء فاختلطت بالتراب وكوَّنت بُؤراً امتزج فيها الأحمر بالأسود في اللوحة الأصلية ، وانحدرت سائلة إلى أسفل ، فانتبه إلى أن مصدر القطرات هو سيل الدموع الذي ينهمر من عينيه على اللوحة دون أن يلاحظ . انبثقت في مخيلته ذكرى اليوم الذي رسمها فيه منذ سنوات بعيدة ، كان ينثر بقع الألوان المائية فوق سطح الورق المبلل فتنتشر وتُحدث تأثيرا أقرب إلى ما تحدثه الآن قطرات دموعه فوق الزجاج فتمتزج بالتراب وتسيل كقطرات من دم أسود.

ضم اللوحة إلى أخواتها بحرص شديد ممزوج بحنان وألم ، ونهض غير قادر على مواصلة النظر إلى بقية اللوحات ، لكن قدراً قليلاً من الأمل والطمأنينة أطل من أشلاء المذبحة ، باكتشافه أن بعض اللوحات يمكن ترميمها بمجهود كبير ، خاصة تلك التي تحمل كدمات لم تصل إلى التمزق ، أو أخرى بها تمزقات قليلة يمكن لصقها من الخلف بِرُقَع من نفس قماشها مع علاج أطراف الخيوط النافرة على حواف التمزقات من الأمام بوسائل الترميم الدقيق التي درسها . وأطفأ النور وخرج ، وقبل أن يغلق الباب عاد فأضاء النور بحركة لا شعورية وأعاد إغلاق الباب ، حتى لا يُفزع الظلام اللوحات ويصيبها بالخوف، أو رغبة في أن يشعرها بالونس في سجنها الموحش في عمق الظلام .

(٦٩)

جاءه صوت عبدالناصر المحامي عبر التليفون مهللاً بالفرحة :

- ألف مبروك يا فنان .. صدر الحكم اليوم لصالحنا بالتعويض .

جعلته الفرحة يكاد يقفز وهو يصبح :

- بجد ؟ .. ألف مبروك لنا جميعاً .. وأنت أولنا لما بذلته من مجهود .. كنتُ قد نسيت موعد النطق بالحكم .. كم قيمة التعويض ؟
- ألف جنيه .

- فقط ؟ .. يعني عُشر المبلغ الذي طلبناه .
- المحكمة قدرته كتعويض أدبي وليس مادياً .. وهذا هو الأهم .. ولا تنس شهادة الدكتور صالح .. ولو كان القاضي غير متعاطف معنا لرفض التعويض بسببها .
- ذكِّرني بمضمون هذه الشهادة .
- لقد حول الموضوع إلى خطبة سياسية ضد النظام .. والمحكمة تتحفظ على مثل هذا الأسلوب .. لأنها تبحث فقط عن ثبوت الضرر المباشر.
- لكن الاتهامات الموجهة إليَّ في المجلة سياسية تماماً .. فكيف يتجنب الشاهد الأبعاد السياسية ؟
- هل ذكر في الشهادة أضراراً جسيمة أصابتك بسبب هذه الاتهامات ؟ هذا ما يبحث عنه القاضي من خلال الشهادة .. أما الآراء السياسية فتبقى مجرد آراء لصاحبها وهو ما ركز عليه الأستاذ صلاح حافظ ، وهو أيضاً ما ركزنا نحن عليه في صحيفة الدعوى والمذكرة اللاحقة بها . فأثبتنا التأثير المباشر على حالتك النفسية والصحية .. حتى أن الدفاع عن المجلة حاول أن يسخر من دفاعنا فقال المحامي : أي مناضل هذا الذي يدِّعي البطولة ثم يخرُّ صريعاً بسبب مقال ! .. لكن المحكمة أخذت بكلامنا لا بكلامه .
- على كل حال هو يشكر على حضوره واخلاصه لمبدئه ، ورأيه يحترم بالتأكيد.. وبغض النظر عن قيمة التعويض فإنه مكسب كبير لنا جميعاً .
- المهم أن نراك خلال الأيام القادمة بعد استخراج الصيغة التنفيذية للحكم وما تتضمنه من حيثيات لنذهب إلى مقر المجلة للمطالبة بتنفيذه .
- أرجوك أن تبلغني فور استلامك لهذه الصيغة وسآتي إليك حالاً .. تحياتي وشكري للأستاذ نبيل .

استلقى على الكنبة في مرسمه بحجرة الجلوس ، وسرح ببصره فوق الحائط المقابل .. « ... ربما يكون هذا الحكم آخر حصادٍ لمعركة تكسير العظام .. لنبدأ بعدها معركة إزالة آثار العدوان وإعادة البناء .. وسنستغرق وقتاً طويلاً أكثر بكثير من المعركة القضائية .. لكن ها هي الأبواب والسبل التي كانت قد سُدَّت في وجهك

تفتح واحداً تلو الآخر .. فتم استرداد الوظيفة .. وقريباً تحصل على المرسم وعلى المرتب الموقوف .. وتم رد الاعتبار إليك أمام الجميع في الصحافة وعبر التفاف المثقفين حولك .. وتم وضعك في مكان محترم كفنان بمعرض الخريف وبيعت فيه لوحاتك .. وتم إعلان الهزيمة المذلة لخصومك .. وتجلى لك أمل في إنقاذ بعض لوحاتك بعد أن كانت في عداد المفقودة بلا رجعة .. وها هو حكم المحكمة الأخير ضد الطابور الخامس في الصحافة من أبواق السلطة فمحا أي إساءة لمبادئك وضميرك الوطني فماذا في جعبتك لمشوار إعادة البناء ؟ .. البداية هي أن تبعث الحياة في مرسمك الجديد بعد أن تتسلمه من صديقك عامر .. لتولد فيه ذرية إبداعية جديدة تعوض ما ضيعته الجائحة .. وستكون « فريدة » هي الأم الراعية التي ستأتي لك بهذه الذرية .. هي الحاضرة أبدا برغم الغياب ، وعليك أن تجعل من هذا الغياب مصدر إلهام لعدد من اللوحات . مثلما كانت خلال مشوار المعارك الماضية شعاعاً يضئ روحك وطريقك .. ويمنحك القوة على الصمود والاستمرار ... »

(٧٠)

- **أكتوبر ٢٠١١**

شوقي .. وأكتوبر .. والمسافرخانة .. جمعت الأقدار ثلاثتهم في علاقة تاريخية ملتبسة ؛ بين أحداث مؤلمة ومواقف مبهجة ، وجميعها لا تزال حية في ذاكرته مع مر السنين ..

ففي أكتوبر ٧٦ تم اجتياح مرسمه بالمسافرخانة وتحطيم لوحاته والاعتداء عليه بوحشية . وفيه أيضا هبت حملة إدانة جماعية لذلك الفعل بين الصحافة والمثقفين عبر بيانات ومؤتمرات ، وتوَّجها القضاء بحكمين أدانا هذا العدوان وردّا الاعتبار إلى ضحيته ، وكان ذلك بداية لهزيمة رمز تلك العملية الإجرامية « قدري عثمان » ولقصف قلعته الحصينة ثم وفاته بذبحة صدرية صبيحة إعلان خسارته في أول انتخابات لنقابة الفنانين التشكيليين ، وفوز منافسه ، على خلفية نشر حكمي القضاء في قضية المسافرخانة ، ومنهم د. صالح رضا الذي انتخب سكرتيراً عاماً

للنقابة . وفي اكتوبر ٩٨ شب حريق هائل أتى على أهم معالم هذا الأثر التاريخي النادر ، في وجود شواهد على أن ذلك تم بفعل فاعل لكنه قيد ضد مجهول ، وأعلن وزير الثقافة آنذاك أنه سيعيد بناءه كاملاً كصورة طبق الأصل ، ثم انتهى الأمر عند هذه التصريحات وبقيت أطلال القصر شاهدة على عصره وتاريخه . وفي أكتوبر ٢٠١١– عام الثورة المجيدة – تبدد الوعد بإعادة بناء القصر نهائياً، وأصبح ذلك أمراً مستحيلاً ، استحالة أن تصبح الأساطير حقائق !

ففي مساء أحد الأيام من أواخر أكتوبر ٢٠١١ اصطحب شوقي – وقد بلغ السبعين من عمره – بعض الأصدقاء من الشباب المغرم بحكايات فنان عجوز يثير خيالهم دائماً بذكريات الزمن الجميل ، في رحلة على الأقدام بين معالم الآثار الملهمة بمنطقة القاهرة الفاطمية ، بمساجدها وقصورها وأسبلتها ووكالاتها وحرفييها المبدعين لأروع نماذج الحرف التقليدية ، وبناسها .. أولاد البلد الجدعان ممن كان لهم دور مشهود في الثورة مطلع ذلك العام . وفي مقهى شعبي صغير بميدان بيت القاضي بالجمالية جلسوا لبعض الراحة وتناول المشروبات .. فسألهم :

– من منكم زار المسافرخانة ؟

بدا الاسم غريباً عليهم ولم يسمع به أغلبهم ، باستثناء شابة تعمل معدة برنامج بإحدى القنوات التليفزيونية ، تذكرت أنها شاهدت فيلماً تسجيلياً قديماً للمخرج الراحل شادي عبدالسلام يتضمن فقرة عن قصر أثري بهذا الاسم وبه مراسم لبعض الفنانين التشكيليين ، ويخيل إليها أن الأستاذ شوقي كان أحدهم في شبابه ، وفيه مشربيات ضخمة ونافورة وزخارف وأشياء من هذا القبيل .. هذا – إذن– هو كل ما يعرفه الشباب عن القصر حتى قيام ثورة يناير ، أما بالنسبة له (كما أخبرهم) فهو أسطورته التي حملت أروع ذكريات شبابه وأسوئها معاً ، وهو كذلك ضحية أفظع حريق تعرضت له مصر منذ حريق القاهرة ٥٢ . وجدها فرصة ليحكي لهم قصة هذا الأثر بين ماضيه البعيد وماضيه القريب حتى مأساة الحريق عام ٩٨. كان شغفهم كبيراً وهم يستمعون لتفاصيل الأحداث التي عاشها فيه وكأنهم يستمعون إلى حكاية

أسطورية ، وعندما وصل إلى وقائع الحريق وما صرح به الوزير بعدها من وعد بإعادة بنائه سأله أحدهم :

- وهل أعيد بناؤه ؟
- لا لم يتم بناء شيء .. آخر مرة زرته فيها كانت منذ سنتين .. وكان على نفس حالته بعد الحريق .. لكن جدرانه وبعض قاعاته كانت لا تزال قائمة .. وكنت أحمد الله على ذلك .. لأن الأطلال تظل شاهدة على عصورها وملهمة للأجيال .. وقد يأتي من يزيل التراب عنه وعما حوله .. فيصبح – حتى لو كان أطلالاً – مقصداً سياحياً وساحة لتقديم العروض الفنية والتراثية .. كما نرى في كثير من دول العالم حول مثل هذه المعالم المندثرة .

ولما علم الشباب أن القصر لا يبعد عن المقهى الذي يجلسون فيه غير دقائق على الأقدام ، أبدوا حماسهم للذهاب إليه فوراً ، وكان هو لا يقل عنهم حماساً، بل يزيد ، فحنينه إليه لا يفتُر مهما مرت السنين ، بالرغم من كل الأحداث المريرة التي تعرض لها بداخله في اكتوبر ٧٦.

عبر بهم شوقي من بداية بيت القاضي ، إلى مصلحة صك العملة والموازين، إلى شارع قصر الشوق ، إلى مقام سيدي مرزوق عند مدخل حارة الطبلاوي ، ودخلوا فيها وهم يتحسسون طريقهم في ظلام الحارة الموحشة دون أن يقابلوا في طريقهم مخلوقاً غير الكلاب والقطط ، وكأن الحارة قد خلت من سكانها .. وعندما وصلوا إلى نهاية الحارة المسدودة راح يبحث في الظلام عن أطلال القصر فلم يجد له أثراً ، ولولا تأكده من أن هذه بالفعل حارة الطبلاوي ، وأن هذا هو مكان المسافرخانة ، لظن أنه أخطأ ودخل بهم حارة أخرى تشبهها .. وعلى أضواء خافتة تأتي من نوافذ بعض البيوت القريبة استطاع أن يتبين أن مساحة القصر الشاسعة أصبحت أرضاً خالية ومنبسطة لا توجد بها أية جدران ، وقد أحيطت بسور في قامة إنسان لكنه يسمح بالإطلال إلى ما وراءه ، وعندما اقتربوا من السور فوجئوا بمجموعة من الكلاب الشرسة تندفع نحوهم ، ففزعوا حتى أن معدة البرامج الشابة صرخت وهي تجري بعيداً . حاول أن يجد أحد السكان ليعرف منه شيئاً عن مصير

القصر . خرج أحدهم على نباح الكلاب الذي لم يتوقف لمدة طويلة ، واتجه نحوهم وسألهم عن مقصدهم ، فلما أجابه شوقي رد قائلاً :

- لقد تم هدم ما تبقى من أطلال القصر أثناء شهور الثورة .
- ومن الذي قام بالهدم ؟ .. المفروض أن القصر تابع لهيئة الآثار .. فكيف تهدمه ؟
- ليست هيئة الآثار هي التي هدمته .. بل ورثة محمود محرم شاهبندر التجار الذي بناه .
- ولكنه آل إلى الدولة منذ قرن تقريباً وتم تخصيصه للفنانين منذ نحو نصف قرن .
- هذا ما سمعناه عندما كبرنا .. حتى أشتعل فيه حريق سنة ١٩٩٨ وتركه بعدها الحارس عم شعبان الذي كان يعيش فيه مع أسرته .. وقد عاصرتُ بنفسي هذه الفترة .. وظل القصر خرابة مهجورة لا يأتي إليه حتى رجال الآثار طوال هذه السنين .. وعندما هبَّت الثورة في يناير ظهر فجأة من يقولون إنهم ورثة الشاهبندر أباً عن أجداد .. ووضعوا أيديهم على المكان وبنوا حوله هذا السور وهدموا كل المباني المتبقية من السراية وساووها بالأرض .. وأتوا بهذه الكلاب لحراستها ، وبدأ صراع بينهم وبين آخرين أدعوا أيضاً أنهم من الورثة .. ووصل النزاع إلى المحاكم .. ولا أحد يعرف حتى الآن هل تم الفصل في النزاع أم لا ..

قدم شوقي الشكر للرجل .. فدعاهم بنخوة أبناء الأحياء الشعبية لاستضافتهم في بيته لكنهم اعتذروا وكرروا الشكر له .. وعادوا يتحسسون طريقهم في ظلام الحارة نحو أضواء شارع قصر الشوق .. يخيم عليهم صمت ثقيل .. كان الكلام قد مات .. فغاص كل منهم في بئر صمته العميق .